إذا أعجبك الكتاب، فرجاءً حاول شراء النسخة الورقية
تذكر أن الكتاب العرب معترّون والكل يستوطي حيطهم
دعمنا لهم يضمن إستمرار عطائهم
(أبو عبدو)

حكاية زهرة

حنان الشيخ

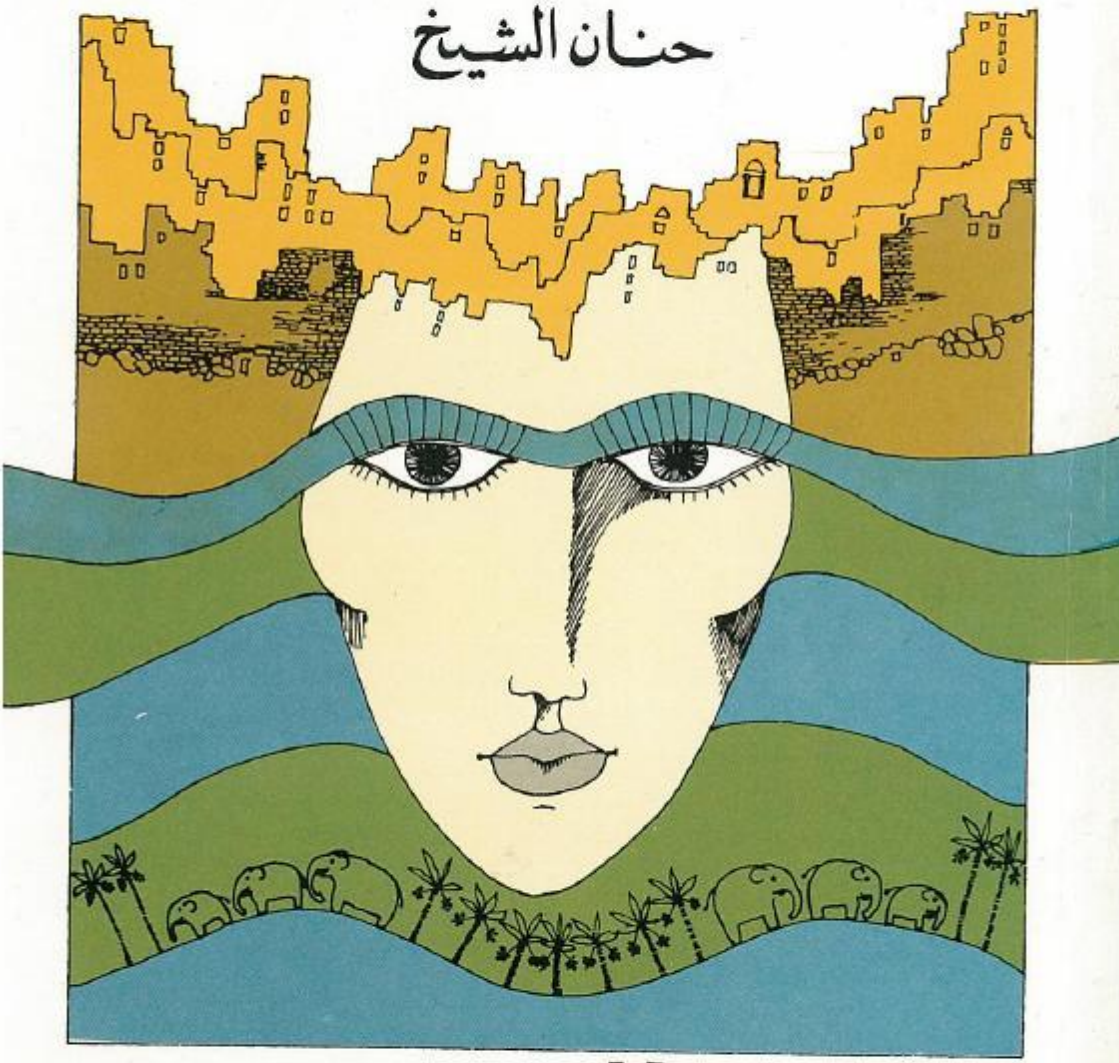

دار الآداب

http://abuabdoalbagl.blogspot.com

أبو عبدو البغل

http://abuabdoalbagl.blogspot.com

أبو عبدو البغل

حنان الشيخ

حكاية زهرة

رواية

دار الآداب

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الثانية
١٩٨٩

القسم الأول

١

وقفنا خلف الباب نرتجف. سمعت دقّات قلبي تختلط بنبض يدها المطبقة على فمي. كانت رائحة يدها صابوناً وبصلاً. وددت لو تضع يدها على فمي إلى الأبد. كانت يدها بيضاء سمينة ودافئة. كنا في ظلام الغرفة مختبئتين وراء الباب المشقوق. جلبة ووقع أقدام اقتربت منا قبل أن يفتح الباب المشقوق ويدخل النور كله. بحركة لاشعورية التصقنا بالحائط وكان الخوف قد انتقل إليّ عبر سلك غرس بزندها وزندي في آن. أصابعها هذه المرة شدّت على فمي ـ لاحظت أن دقّات قلبي ذابت ونبض يدها مات من شدّة الخوف. وما أن أطل الرأس الكبير السمين يحدق في الغرفة، يرانا ولا يرانا، حتى فهمت سرّ الخوف وسر يدها المطبقة على فمي. ورغم أن ما فهمته كان مهزوزاً. فهي ألبستني كالمعتاد البنطلون الكحليّ الصوف والكنزة الخضراء المحاكة بالصنارة. وضفرت شعري وهي تغمس المشط في كأس من الماء. ونبهتني بصوت عال سمعه والدي أنها ستضربني إذا عاندتها، كما أفعل كل مرة عندما تصطحبني إلى الدكتور شوقي. وأنا أسمعها تقول هذا، حاولت أن أتذكر إذا كان الدكتور شوقي قد حقنني. ولم أتذكر. وأمسكت بيدي ونحن ننزل الدرج. أحاول أن أتذكر. وسألت أمي: «لماذا يريد أن يحقنني؟ هل لأنني كسلانة؟ أم لأن المعلمة قالت إنها ستدهن وجهي باللبن وتضعني في غرفة الجرذان لأنني دائمة التبّول في الصفّ؟». وسمعتها ترد عليّ قائلة: «أوف

اسكتي، بعت سواري حتى أشتري لك حقن الكالسيوم، مش شايفة اجريك قديش مقوّسين؟». وعادت فأضافت وهي تنظر إلى قدميّ: «كانت واحدة بالشمال وواحدة باليمين».

وقفنا خلف الباب. كانت دموعي داخل رأسي تحاول أن تنفر لكنها أضاعت طريقها وما عادت تعرف من أين وإلى أين. نحن واقفتان. ويدها البيضاء لا تزال تشدّ على يدي بدلاً من فمي. خاصة عندما برز وجه أبيض عبر الباب الذي فتحه صاحبه نصف فتحة وتفرس في الظلمة ورآنا وما رآنا. وارتاحت يدها البيضاء عندما اختفى وجهه وأقفل الباب. رغم أن جسمينا كانا متلاصقين كنت أشعر بالبرد وبالخوف. بعد وقت لم أستطع تقديره، كما لم أستطع استيعاب كل الذي حدث والذي يحدث سوى أني برداناة وخائفة، أدرت المفتاح في ثقب الباب ليدخل منه وجه أعرفه. وجه لرجل رأيته قبلاً يتكىء برأسه فوق حضن أمي. الرجل نفسه الذي رأيته ببذلة لا يزال لونها ونقشها مسجلاً في ذهني. يزورنا مرة ومعه امرأة. الرجل الذي كنت كلما رأيته كان يمد يده إلى جيبه ويعطيني طفلاً من الكاوتشوك الزهري اللون. هذا الرجل كان يحملني كلما رآني. هو الآن واقف قبالتنا يمسك بيد أمي. أمي تمسك بيدي ونجلس ثلاثتنا فوق السرير. أم أني لم أكن أجلس؟ ربما اتكأت على فخذ أمي. الضيق والبرد يحومان حولي بعدما تلاشى الخوف. الضيق لأني أعرف تماماً أننا لسنا عند الدكتور شوقي كما قالت أمي، وكما أكّدت لي وصدّقتها. رغم أن الجدار الذي كنا نمر به ونحن قاصدتان الدكتور شوقي كانت عليه لطخات سوداء، وكنت أعرف حكاية الوطواط الذي يهجم كل ليلة على شجرة التوت التي يملكها (محمد التوتة)

ويلوث الجدار المقابل ببقع كحلية وأرجوانية. كنت دائماً أتساءل لماذا يلطخها فوق الجدار عوض أن يأكلها؟ لماذا هو يختار شجرة التوت؟ اليوم لم أر جدار التوت ولا محمد التوتة . ولم تمّر أصابعي فوق البقع الكحلية والأرجوانية.ما التفتّ صوب شجرة التوت حتى أبحث عن الوطواط. ولم أسأل أمي إذا كان الوطواط يحب نقر عيون الناس.

أمي أكدت لي، وتؤكد لي دائماً أن الطرق إلى بيت الدكتور شوقي صحيحة. وصدقت. وكان عليَّ أن أصدق لأنه قيل لي هذا، رغم أن الأدلة كانت تقول العكس. لكنني صدقت. رغم أن هذا الرجل هو غير الدكتور شوقي. لكنني صدقت، رغم أن جو الزيارة كان مختلفاً والحقنة لم تغرز في فخذي ذاك الصباح لكنني صدقت. عبثاً أحاول أن أتذكر تفاصيل ذاك الصباح في تلك الغرفة المزيّفة. عبثاً أحاول أن أتذكر الكلام الذي تبادله الرجل مع أمي ولا أستطيع. هل لأني كنت صغيرة؟ والأيام الكثيرة التي تلت تلك الزيارة أخذت تتكاثف فوق الماضي البعيد؟ أم أنني كنت أتوقع زيارة الدكتور شوقي، وكان دماغي قد سجل بين صفحاته منظر الغرفة؟ أثاث الغرفة. وجهه المألوف. علقت هذه الأشياء كلّها في الذاكرة إلى درجة لم أستطع إلا أن أراها، رغم أني لم اشاهدها قط. لكنني أذكر عندما وصلنا إلى الشام، أنا وأمي وصديقتها التي ما أحببتها قط والتي بدورها كانت تشعر بكرهي لها. كنت أكره لونها الغامق وغلاظة شفتيها وجديلتها المجعدة السميكة. كانت تظهر ضيقها مني تارة وهي تحدجني بنظرات قاسية وطوراً لتقول عندما كان السائق يقف بناء على طلب أمي حتى أتقيأ عقب وشوشتي لها «ولك خلصينا يا بنت». ولحظة أترجل من السيارة كان الغثيان يغيب ويبدأ الشعور بالذنب مع عودتي إلى السيارة خاصة

عندما ألتقط بلمحة بصر نظرات صديقة أمي الملأى بالضيق والاشمئزاز. وكان توقّف السيارة يتكرر ثانية وثالثة. وفي المرة الرابعة رفضت أمي الاستماع لي فيما كانت صديقتها تواصل التذخين ومضغ اللبان معاً. آنذاك لم أستطع السيطرة على نفسي. فتقيأت في حضني أولاً ثم على أمي التي سحبت يدها اليسرى من فوق فخذ السائق وعلا صوتها وصوت صديقتها.

نحن في الشام، هكذا من البارحة وأنا أقول لنفسي أنا ذاهبة إلى الشام. أنا في الشام. وكنت قبل قليل في مكان آخر. لا فرق، إلا أن الغرفة الضيقة التي مددتني أمي على أحد سريريها جديدة بأثاثها ونقش بلاطها. كنت أود لو أظل مستيقظة، لكن يبدو أن النعاس والجوّ الحارّ قد غلباني، كأنني عندما سمعت دقاً على الباب لم أستطع أن أفتح عيني من التعب. كان الدق يزداد والأصوات تتعالى قائلة: «افتحوا الباب هذا أوتيل موسوق». وثبت واقفة ورأيت أمي تنهض من بين الشراشف والرجل يدير وجهه وجسمه عن عيني وهو يلبس بنطلونه. استغربت ذلك الوقت أن أرى الرجل وأمي في سرير واحد. هل لأني كبرت وصرت أستوعب الأشياء، أم لأنني كنت أعرف أن أبي وأمي ينامان باستمرار في سريرين منفصلين؟ واستغربت الدقّ على الباب والصياح اللذين توقّفا عندما فتحت أمي الباب ورآني الرجل الغاضب ملتصقة بها.

أنا الآن في سنّ أستطيع أن أميز معها تماماً الضيعة عن المدينة. فأنا خائفة من رمد العيون. لذا لن آكل التين. لن أمسك شجرة تين. سأغسل يدي من إبريق صفيح أضغط عليه بين فخذيّ وأنحني معه مسيطرة على توازنه. فتنساب المياه بهدوء ودون أن تندلق مرة

واحدة. كما كان يحدث عندما جئت إلى القرية للمرة الأولى. هذه هي القرية: بيض مقلي فوق شوك مشتعل. لدغات البرغش في وجهي وجسمي. ومصطفى الجالس عند باب خيمة القش يدندن «ضمنو ضمضووضو». التين لن آكله ولن أمسك به، ولن ألمس عيني وأنا أسير بين أشجاره. عندما كان مصطفى يحملني فوق كتفيه ويسير بي وهو يدندن «ضمنو ضمنو»، كنت أخبىء عيني بيدي. أطلب منه العودة إلى خيمة القش حيث أمي. كان يسألني عن الذي قال لي إن التين يحمرّ العيون؟ كنت أجيب: «سمعت الجارة تقول ونحن في بيروت نستعد للمجيء إلى الضيعة: «رايحين تّينوا وتّرمّدوا».

وكان مصطفى يضحك، يضحك ولا يرضى أن يعيدني إلى خيمة القش إلا بعد أن تنهمر دموعي. وكانت دندنته قبل أن نصل إلى خيمة القش بخطوات قليلة تعلو وترافقها أغنية: «جينا وجينا وجينا جبنا العروس وجينا». وتطل أمي بفستانها الأزرق المعرّق، وشعرها المرفوع عن عنقها بمشط. ويطل وراءها رجل الغرفة. الرجل الذي يقبّلني ويحملني ويجلب لي الدمى الصغيرة. يطل ويداه على منديل أبيض فوق أنفه. يقرب رأسه حتى رقبته ويشدّ على أنفه ويعود فيرجع رأسه إلى الخلف ثم يفتح المنديل ويعود فيضعه على أنفه ويشتم. أمي قلقة تحاول أن تفعل شيئاً، تحاول أن تقول شيئاً: «كيف فاتت هالملعونة؟». ومصطفى لا يستفهم، إنه يعرف أن ذبابة دخلت أنف الرجل. وشعرت فجأة أن الضيعة قد أفلتت من يدي وأن أمي لم تعد معي. هذا الرجل لحق بنا إليها، حيث أنا وأمي والريح.

أخذت الهوّة بين أمي وبيني تكبر. تزداد عمقاً، تتوسّع، تتشقّق، رغم كوننا كالبرتقالة وصرّتها. هذا التقارب، هذه الأيام الممتدّة، هذه

الشمس التي تنبت فوق جلستنا وتنتهي ونحن نركض إلى البيت. هذا الوقت كله جعلني أحفظ أمي جيداً. أحفظها وهي معي. وأحفظها وهي بعيدة. كنت أفكر وأنا أنظر إليها كم أودّ أن أشدها إليّ، أن أشدّ نفسي إليها، أن أمسك بوجهها وأقرّب عينيها من وجهي. أن أختفي داخل ذيل فستانها وأكون قريبة منها أكثر من البرتقالة وصرّتها. لكن كلما فكرت هكذا حقدت عليها وارتجفت وجرفت معي الحقد والوجع والتمنّي. كلّما عاندتها ونفرت منها، تجاهلتني هي لا عن قصد. في حياتها كان هذا الرجل. ما تبقّى حوله رماد طائر.

كنت أسأل نفسي، والشعور الذي لا أستطيع إعطاءه صفة يلازمني. وها أنذا أسأل نفسي الآن ماذا كان هذا الشعور؟ هل كان غيرة؟ هل كان شفقة على والدي؟ أم أنه الخوف الذي يضغط عليّ في كل مرة كنت أرافقها فيها لتلتقي بهذا الرجل. كان الخوف يجعلني أرى كل شيء كأنه من خلف زجاج انهمرت عليه زخّات مطر، وعبر مرآة تغبّشت أثناء دوش ساخن. أفكاري لا تعود تستند على شيء ولا تطلب شيئاً. إنها مشلولة تماماً.

عندما شاهدتها مرة تحت شجرة جوز خضراء، رأسه في حضنها تغني له «أيها النائم» كان هو مغمض العينين، مغمض الوجه والشعر. جسمه يتمدد بسلام تحت حجارة الجبل البنّية المحمرة بلا غبار ولا رمل. حجارة نظيفة شهية، كأن جدول ماء انساب فوقها وتركها تجف تحت أشعة الشمس وشجرة الجوز. كلما شاهدتهما وسمعت صوتها قرفصت كامرأة عجوز منهارة وأخذت أبكي بصوت يسمعه كل من حولي حتى الفضاء، ما عداهما. لم تكفّ أمي عن الغناء. ظل

صوتها يهمس أغنية «أيها النائم». بينما اخذت أغنّي: «ست الحبايب يا حبيبة، يا أغلى من روحي ودمي». تجاهلا غنائي. فعدت أبكي من جديد. ورأيت المشهد ذاته، يدها تتحسّس شعره وهي تغني له «أيها النائم». أخذت الألغاز تحلّ نفسها. كلما كبرت يوماً ونظرت إلى الخلف في خيبة وأسف حقدت على أمي أكثر لأنها أدخلتني مغطس الحيرة والتساؤلات والسحر وأنا ما زلت صغيرة. الآن أعرف تماماً لماذا وقفنا خلف الباب نرتجف. ورأس الرجل الذي أطل يرانا ولا يرانا. جدار الوطواط المبقّع، شجرة محمد التوتة، الشام، التقيؤ، السرير الواحد. أعرف الآن سرّ مشينا تحت المطر والوحل يشدّ أقدامنا نزولاً والأشجار كأشخاص لها عيون. وكنا نركض، رأيت أمي تشير بيدها محيّية وقبل أن أرى من الذي تحيّيه شدّتني من يدي وهي تشهق شهقة طويلة. وعدنا نركض تحت المطر، نغوص في الوحل. كان عليّ أن أنتظر اليوم حتى تتفكك هذه الألغاز بلا مساعدة.

أما والدي فكان منهمكاً في الترام. كنت أنتظر اليوم الذي يدخل فيه البيت مع الترام، وطنطنة ساعته ذات السلسال يضعها في جيب بنطلونه الكاكي. كل ليلة قبل أن ينام كانت يده فوق زنبرك المنبّه المستدير تبرمه. وكلّ صباح تمتد يده توقف رنينه. يلبس بنطلونه ويخرج منه ساعته ذات السلسال. يرى الوقت ثم يقربها من أذنه ويعود فيضعها في جيبه. يرتدي قميصه الكاكي أيضاً. يتناول قبعته فيصبح جميعه كاكياً. يقول: «لا تتأخري يا زهرة عن المدرسة، وأنت يا أحمد لا تنسَ تجيب وصل القسط من المدرسة». ويذهب إلى «الكبّانية» ليأتي بترامه ويبدأ نهاره الذي ينتهي مع أول الليل عائداً إلى البيت

يشد الحبل. فيرن جرس صغير في زاوية غرفة الاستقبال. كان هو الوحيد من كل الناس الذي يصر على رنّ الجرس. «كيفك يا بابا، وين أحمد» يعلق قبعة الترام. «وين أمك». وهو يخلع بدلة الترام الكاكية ويسندها إلى المقعد. ولا ينسى أن يمد يده إلى جيبه ويخرج الساعة يدنيها من أذنه ثم يعيدها إلى جيبه: «وين أحمد؟».

حول طاولة الطعام في المطبخ هو وأحمد وأنا. ألمح الملوخية وفوقها بعض قطع الدجاج. هل هذه حصوص ثوم أم قطع دجاج؟. إنها دجاج. لا أستطيع أن أمد يدي. فأنا تناولت العشاء قبل قليل. ملوخية أيضاً، لكن بلا دجاج. المأساة تتكرر، إنها لا تطعمني الدجاج ولا اللحمة. إنها تخبئها دائماً لأحمد وأحياناً لوالدي. إنها لم تنسَ. ربما هي لا تأكل أيضاً الدجاج واللحم. أنا متأكدة من أنها لا تأكل. لقد تناولنا العشاء معاً. غداً عندما نجلس في المطبخ لنأكل سينكشف حبّها. انكشف اللحظة. اننا نأكل الكشك وهي تسكب. لقد ملأت صحني. ها هي تملأ صحن أحمد. إنها تأخذ وقتها. تبحث له عن القاورما. لا تزال تبحث. تنهض لتأتي بملعقة كبيرة ذات ثقوب تنزلها كالصنارة. ها هي القاورما واللحمة المفرومة في الملعقة. ها هي في صحن أحمد. ها هي في بطن أحمد.

أمي تقطع الصمت: «بكره بدي آخذ زهرة معي عالضيعة، بيّي مريض، مصطفى تلفن للدكنجي وقال بيّي مريض». وعادت تقول: «اعطني خمس ليرات». تجهّم وجه والدي لكنه لم يقل شيئاً ولم يعطها الليرات الخمس. لكنها أخذتها من جيب بنطلونه وهو لا يزال في المطبخ. قلت لها إنه يراها. فابتسمت وأنا أشير إلى الصورة المعلقة في الغرفة. كانت صورته في بذلة الترام الكاكية. جاء الغد، رحلنا إلى الضيعة ورأينا جدّي المعافى، الأحمر الوجنتين، الذي يشك ميابر

أوراق التبغ بسرعة وبسهولة كأنه يفتل شاربيه. والرجل نفسه كان معنا في الضيعة، ليس عند جدّي الذي عرف أننا جئنا لأجل ورقة من دائرة النفوس. حتى أن أمي لم ترض أن نجلس أكثر من نصف ساعة في خيمة أوراق التبغ الخضراء، وكنت طوال جلستنا أودّ أن أرتمي بين ذراعي جدّي وأرجوه لو يبقيني معه في هذه الخيمة المؤنسة. لأن ما ينتظرني الآن هو الشعور الذي أخشاه ولا أعرفه: هو الخجل مع الغيرة مع الخوف مع أشياء أخرى. هل سيختار شجرة تفاح؟ برتقال؟ أم زنزلخت هذه المرة؟. السيارة تتوقف على شاطىء البحر. لم أر سوى شجرة واحدة يابسة. ورأيت فوق الرمال البيضاء بعض النفايات. تناولت كعب سكربينة عالية. ولما رأياه في يدي تغامزا وضحكا. آه كم كرهتهما تلك اللحظة. انهما يجعلانني أشعر بالخجل والغربة والتردد. ماذا بعد الآن؟ الجوّ جديد عليَّ. إننا لا نقترب من الشجرة الوحيدة. ولا من البحر. إنما من البيت الصغير. وندخل هذا البيت الصغير الفارغ تقريباً من الأثاث. يتركنا الرجل ليأتي بكيس من السيارة. نتبادل أنا وأمي النظرات. أحاول أن أتفرَّس في وجهها متسائلة: لماذا تصطحبني معها دائماً. لماذا تعذبني دائماً؟ هل هي تعرف ما أعانيه؟ ربما لا، فأنا لا أظهر لها سوى سكوتي. وقطع شرودي الرجل الذي همّ بفتح الكيس. أخذ يقطع الفروج المحّمر بيديه. ويقدم لنا قطعه في صحون من كرتون أراها للمرة الأولى. وأمسكت هذه القطعة الهائلة من الدجاج. وفكرت: إذا سألني جدّي هل فرحت يا ابنتي بالفروج لقلت له: «لا لا يا جدي، كنت خجلى أمام الرجل. كنت خائفة أن أحدث صوتاً وأنا أمضغ، وأنا أبلع. كنت خجلى من أن أمدّ يدي إلى فمي لأخرج عظمة صغيرة آثرت أكلها وآثرت الألم الذي أحدثته في زلعومي. كنت خجلى أن أمصّ

اللحم الذي التصق بالعظم. وكانت الرائحة شهّية. وأنا كنت جائعة. لا يا جدي وحياتك ما تهنيت أبداً». ولما انتهينا من الأكل. بدأ نقاش فهمت منه لماذا تصحبني أمي دائماً معها. انها تحتمي بي. تودّ أن نكون برتقال «أبو صرة». تحتمي بي. نقاشهما كان حول ما إذا كانت زهرة تودّ أن تلعب بالرمال. وكان جواب أمي يسبق جوابي. مع أنها تعرف وأنا أعرف أنني لن أفتح فمي. كان جوابها النفي تلحقه بحكاية حلمها ليلة أمس وهي تشد شعرها، وكيف أنها لن تطمئن عليّ إذا كنت قريبة من البحر. وعاد يسأل إذا كانت زهرة تودّ أن تجلس على الدرج لتلعب بهذه الدمية الجميلة، وأخرج من جيبه طفل الكاوتشوك إياه. مدَّ يده وأحاطني بها. وأنا ما زلت جالسة كالتمثال. أجابت أمي بأنها تخاف أن يوسوس لي الشيطان وأذهب إلى البحر. عاد وطلب من أمي أن تنهض معه حتى يريها شيئاً ما في الغرفة الثانية. تبعته وهي تنظر إليّ وأنا أنظر إليها وكأني أرجوها أن تبقى. وداخلني هذيان بأن أشدها إليّ، وأشد نفسي إليها، لكن سمعت الباب يغلق. ولم أعد أسمع شيئاً سوى بكائي. وتمنيت أن أفتح الباب، حين لم افعل، تأكدت من ابتعادي وعدم رؤيتي للمشهد نفسه: رأسه على حضنها. وأصابعها بين شعره وصوتها يغني «أيها النائم». إنه يشبه ما شعرت به وأنا في الحرج عندما ركبت «الدويخة» مع ابتسام. كانت عالية. كانت تدور بين الأرض والسماء بسرعة. وتضعني بين الأرض والسماء كالبرق. وعندما نصل إلى الأرض، كان أسفل جسمي وقدماي تكاد تهرب مني وتتدحرج. وكانت الدويخة تلف وتصعد من جديد بينما كان أسفل جسمي وقدماي تتكمش بي، تعصر قلبي ويدي تضغط على الحديد. العرق يفلتها عن الحديد وأسناني تصطك وأنا ألعن «الدويخة» ونفسي بسبب دخول هذه

التجربة البغيضة. كانت «الدويخة» تعود فتنزل بنا، فأفكر في جهنم. هكذا النزلة ستكون في جهنم. دحرجة الى الهوة. كم وددت أن أفتح الباب، رغم أني لا أعرف ما يجري خلفه سوى رأسه على حضنها أو يدها تطعمه أو يداه تحملانها تحت شجرة الجوز، بينما فردة حذائها تنسل من قدمها. وصوته يناديها «ماما». أكثر من هذا، لم أكن أعرف. لكن بين هذا الرجل وأمي ثمة غموض.

حاولت أن أفكر والصفعات تنهال على وجهي. وصوت ربّ الترام ببذلته الكاكية ينهال على وجهي. ونظرات أمي وصوتها وعصبيتها تنهال على وجهي خوفاً من أن أقول الحقيقة. «قولي الصحيح، وين كنتو تروحوا وين كان ياخذكُم». وأمي تردّ بعويل وصراخ: «والله أنت مجنون يا إبراهيم. أترك البنت. والله كله كذب وافتراء. أترك البنت يا إبراهيم». وهو لا يسمعها بل ينهال بكفه على وجهي وصوته يشد على شفتيّ يحاول إخراجهما من وجهي. الخوف من صاحب البذلة الكاكية ومن ترامه ومن جسمه الممتلىء أخافني. وأخذت أرتجف وأنا أجهش بالبكاء. لكنه لم يغلب أمي وعويلها ولطم وجهها وشد شعرها وهرولتها إلى المطبخ: وأنا ما زلت متسمّرة في الغرفة وكأني ناطور التين الخشبي لا يصدر عني سوى شهقة بكاء بين حين وآخر. سمعت صوت والدي هذه المرة: «والله أنت مجنونة يا فاطمة يا حرام الشوم، نظيفة، بلا عقل» وهي تولول: «خليني بدي موت». ولا أعرف كيف وصلت إلى المطبخ وشممت رائحة الكاز ورأيتها تستند إلى النملية تنتفض من بين يديه، تميل بيديها تحاول فكفكة أصابعه عنها. وتولول «خلّيني.. بدّي موت». وددت أن أعدو إليها أشدّها إليّ أو تشدّني إليها ونعود البرتقالة «وصرّتها». وأخذت أولول وأبكي معها. ولم أعرف أين أقف. وأين موقعي وأين

عـاطفتي ولمن عاطفتي. كـان الموقف محيّـراً. لكنني كنت متأكـدة أنني خائفة منـه. وخائفـة من ضربـاته لي ولها. وهي لا تـزال تنتفض بين يـديه وتـولول. وسمعتهـا بين هـذيانها وولـولتها تقـول: «والله وحياة الكعبـة ما شلحت كلسـاتي قدامـه، بس وصلني مـرة أنـا وزهـرة من ساحة رياض الصلح وكانت الـدنيّ عم تشتي. وحياة ستنـا زينب أنو مـا شلحت كلساتي». وخـارت يدا والـدي قليلاً عنـد سماعـه الجملة الأخيرة ولكن بعد لحظات عاد يصيح كمجنون: «بتحلفي يـا فاطمـة على القرآن؟» ترد عليه بولولة: «بحلف مية وخمسين يمين... بحلف عالقرآن... وبحلف على مزار الست زينب». وتـركها وركضت أنـا إلى الغرفة.

أحاول أن أمسح الأرض من آثار ارتباكي وأفكر بالكلسات. عدت أسمع صراخاً وولـولة من جـديد وأصـواتاً مبهمـة. ترى لمـاذا عادت الولولة؟ انفجرتُ راكضة باكيـة خائفـة صارخـة إلى المطبـخ، ورأيتها مـرمية عـلى الأرض وأبي ببذلتـه الكاكيـة وبجسـده الممتـلىء وفي يـده حزامه الجلدي ينهال عليها وأمـامها القـرآن وهو يقـول لها: «احلفي» ويعـود يقـول: «احلفي». ويصرخ: «احلفي لشـوف»، وهي تخبط وجهها على بلاط أرض المطبخ وهو لا يـزال كأنـه تحت تأثـير مخدّر لا يقوى إلا على قـول الكلمة الـوحيدة «احلفي» وأحيـاناً يتبعهـا بكلمة «لشوف...» وما أن رأيت الدماء تغـطي وجهها، حتى أخـذت أشدّ شعري وأضرب صدري تماماً كـما كانت تفعـل هي. ثم صعدت إلى الكرسي حتى الشباك وأزحت قشـور البرتقـال التي لم تجفّ بعد. كنت أود أن أستغيث بجـارنا الحـاج عيسى، لكن والدي اعتقـد أني أريـد إلقاء نفسي. وترك أمي وهجم عليّ. ووقتها فكّرت أن أقفز خوفاً منـه، عندها استجمعت أمي نفسها وهربت إلى الحمام واقفلت بابه خلفها.

٢

كنت أظن أنني سأتعرف على ملامح خالي لحظة تطأ قدماي مطار افريقيا رغم أن رؤيتي له لم تتجاوز خمس مرات خلال حياتي كلها. فهو قلما زارنا «قبل هربه إلى أفريقيا» لكنه ظل موجوداً أينما كان وكيفما كان. في أحاديث العائلة وعلى لسان جدي وفي قلوب خالاتي كلهن، خاصة خالتي وفاء التي كانت تكبرني بعامين فقط، والتي كانت تحار وتنقل في عدوى الحيرة كلما انتبهنا أنها خالتي. كل شيء يتعلق بخالي هاشم كان خارجاً عن المألوف. حديثه، طريقة حياته، أصدقاؤه، طعامه، فقد كان يسكن من وقت إلى آخر غرفة يستأجرها في بناية قرب الجامعة الأميركية. كأن يأكل ـ كما سمعت وفاء تخبر جدي ـ أصداف البحر والبزاق. وكان قد اشترى غرامافون وأسطوانات وجرّب أن يعلّم خالتي وفاء وصديقتها رقص التانغو. كان يسبح في الصيف ويسكن في فندق فخم في ضهور الشوير. ويوقف سيارته المستأجرة أو الدراجة النارية التي يملكها على مدخل بناية رئيس الشرطة، غير مبال بتهديد البواب ولا بنظرات الجيران المستغربة فعله. والتي استغربت قبلاً اصطحابه لبعض الفتيات إلى البيت أثناء وجود أهله في الضيعة ورائحة العطر المنبعثة منه كلما مرّ وهو يصفر، واضعاً يديه في جيبه. كان يلفت النظر بضخامة منكبيه الرياضيين. واقامته للاجتماعات الحزبية في بيت أهله. (فقد كان منتمياً إلى الحزب السوري القومي) ورسم الزوبعة الحمراء على حائط المدخل. وقساوته على أخته وفاء

بينما كان جواب جدّي الدائم: «ليش في حدا بالعالم كله بيوقف بوجه هاشم؟» وجواب جدي وهو في خيمة شكّ الدخان في الجنوب: «هاشم قبضاي ولولا أنو مش ببيروت لكنت رجّعت وفاء وأمها عالضيعة من دغشة بكرة». ما رأيت خالي إلا مرات قليلة، ومع ذلك كنت أعرفه بين العديد من الوجوه في الصور المعلّقة في كل صالون من بيوت الأقارب، وكانت هذه الصور قد ارتسمت في ذاكرتي بل طبعت حتى في أدق تفاصيلها الصغيرة، لأن بعض الزنوج العراة كانوا أيضاً في تلك الصور. عراة إلا من عقود الخرز والعاج. وأنا أبحث عنه في المطار كان هو قد عرفني من المعادلة الحسابية كما قالها بالحرف: «أنت البنت الوحيدة والباقي كنّ نساء». فكرت: نساء وصدور، وأساور ذهبية وأولاد في البطون، وعلى الأيدي ثم قناني حليب ومصاصات في حقائب اليد. لما دنا مني، وسلّمت عليه قبّلني على خدّي. كم أنه لا يشبه الصورة. كم هو أقصر وأكثر امتلاء! لما تكلم، تأكدت أنه خالي. صوته كصوت أمي، لهجته جنوبية أيضاً، لون شعره مثلها. في السيارة أحسست بالضيق، وندمت فجأة لأني قبلت دعوته. ربما الخجل هو التعبير الوحيد عن الحالة التي أصابتني وأنا أفكر أني سأبقى هنا شهراً واحداً. شهر بكامله؟ معاً؟ عن ماذا سوف نتحدث؟ كيف سأتصرف؟. وحاولت أن أهرب من قلقي هذا بسؤالي عن خالتي التي كانت تسكن في بلد آخر قريب. لما وصلنا إلى البيت وجدنا ورقة على بابه تركها له خادمه الزنجي يخبره أنه سيتأخر عن موعد العشاء قليلاً. سألته إذا كان خادمه ينام في البيت حين أجابني بالنفي تضايقت. دخلت غرفته التي باتت غرفتي الآن، أحببتها. كانت متواضعة. بدت لي رفوف الكتب العربية حنونة،

كذلك «تقويم طبارة» ودخل خالي وجلس على الكرسي قبالتي وابتدأ بحديثه عن لبنان وعن الدعاية الصهيونية هنا وكيف لبنان لا يهتم أن يقوم بدعاية مغايرة لها. كلام كثير عن الوطن والمثالية والمرء تجاه وطنه. لم أناقشه بادىء الأمر ولم أهتم بأقواله. لكنه ظلّ يردد هذا الموضوع طوال الوقت عرفت كم هو جائع إلى العودة. إنه في أفريقيا، يفكر في الوطن الرمز، ظناً منه أنه يفكر في الوطن الحقيقي اليومي. إنه في أفريقيا بين آلاف الزنوج يظنّ أنه ملك عليهم. ويفكر لماذا لا يستطيع أن يملك وطنه؟ يفكر في الوطن، في كل ما فيه. الجبال والسهول والبحر. مراراً كان حديثه لا يخرج من هذا الإطار. يفكر في الوطن بنقاء عجيب. بأسلوب مثالي. بدأ يضايقني حتى صحت وأنا أقاطعه: «أين الحمام»؟ وكان عليّ أن أدفع باب المطبخ، وأسير في ممر ضيق على جانبيه أكداس من أجهزة التلفزيونات وراديوهات وآلات تسجيل تصل بعلوها المرصوص حتى السقف. عندما رأيتها للمرة الأولى خفت أن تقع فوق رأسي وفي المرة الثانية استأنست بوجودها وفي المرة الثالثة اعتدتها لدرجة صرت أرفع رأسي عالياً للتأكد من أنها لا تزال في مكانها في هذا الحمام الصغير كنت أرتاح وأخطط لما سوف أفعله كل يوم، ثم بدأت أحتاجه ليحميني.

لقد بدأ خالي يدخل غرفتي كل صباح في الساعة السابعة، محدثاً حركة خفيفة وأحياناً جلبة لإيقاظي بينما أنا أمثل النوم. عندما ييأس، كان يشق الستارة، فأظل جامدة ولا أتحرك. يذهب إلى غرفة الجلوس ويدير الراديو بصوت عال. وأنا صامتة، مغمضة العينين. ويدخل من جديد إلى الغرفة ويجلس فوق سريري ويلامس وجهي. في المرة الأولى ظننت أن ذلك حركة طبيعية لإيقاظي مع أن يده كانت تستقر

على وجنتي ولا تتزحزح إلا عندما أبعد وجهي بخجل. وفيما بعد أصبح تحرّك الستارة انذاراً ما أكاد أسمعه حتى أقفز من الفراش وأستأذنه في الذهاب إلى الحمام. في الأيام الأولى لم أفهم تماماً لماذا لا يدعني أنام كما أرغب. لكن سرعان ما فهمت انه يريد أن يستحوذ على كل انتباهي. وأخذت تصرفاته تضايقني لدرجة القهر خاصة في صالة السينما، عندما رافقته ذات ليلة. حين اطفئت الانوار وبدأ الفيلم شعرت بحركة رفضها عقلي، ولم يجد لها تحليلاً ولا جواباً، فقد أحاطني بيده وشدّ على كتفي. لبثت بلا أنفاس وبلا حركة وأنا متأكدة من أن يده لا تزال تضغط على كتفي. تململت هذه المرة وحركتها بعيداً عني. لم أعد أرى شخصيات الفيلم ولم أعد أستوعب شيئاً. وانتقلت فجأة إلى غرفة صغيرة في الشام، واستيقاظي لأرى أمي تقفز كالمجنونة من تحت شراشف الرجل. ثم انتقلت إلى منطقة أوتيل ديو عند بيت خالتي، إلى جانب جدّي الذي حمل سطل اللبن من الجنوب إلى بيتنا في بيروت، وما أسقطه إلا على درج بيت خالتي. وقتها أجلسني على ركبته وكأنه يريد أن ينسى المأساة الصغيرة. استغللت تلك الفرصة وجلست باطمئنان، يدي تغمر ظهره. كنت أحب جدّي. أحبّ حبّه لي. وأنا جالسة سعيدة كنت أراقب خالتي وهي تعدو تجمع غسيلها من فوق الشجرات الصغيرة ثم تقطف نبتة جامدة واقفة تدنيها من أنف جدي الذي صاح بفرح «أووه، هالشاي الأخضر ريحته مثل البقلاوة». وعاد يسأل خالتي، إذا كان عندها سيكارة، ورأيتها تعود إلى الشجيرات الصغيرة، ودنوت من أذن جدّي أسأله إذا كانت هي ستقطف له سيكارة، ضحك جدي وغمرني قائلاً: «لَهْ لَهْ يا زهرة». وقفزت عن ركبته أعدو نحو خالتي،

التي رأيتها لا تزال تجمع الغسيل. وعدت معها إلى المطبخ، وعندما فتحت النملية أعطتني سيكارتين لجدّي. انتبهت أنني في دنيا أخرى. فشباك مطبخها يطلّ على غرفة من غرف المستشفى، ورأيت ممرضات باللباس الأبيض، ورأيت لوحاً من الصابون على الشباك، وشممت رائحة المستشفى.

بقينا تلك الليلة عند خالتي التي كانت تستعد للسفر بعد أيام إلى أفريقيا، وتترك وراءها ابنها قاسم ليدخل الجامعة في بيروت. حين سألها جدي عن قاسم أجابته: «هالتوّ بيجي» ولما جاء قاسم وانحنى يقّبل يد جدي، نظر إليّ نظرة غير الواثق من معرفته لي. وانتبهت خالتي وصرخت ضاحكة: «ولك يا قاسم هيدي زهرة بنت أختي فاطمة». وتمتم قاسم بخجل: «ولو بعرف، كيف أحمد بهالأيام. وبأي مدرسة؟» وردّ جدي عني بخيبة: «هالعائلة مثل الغريبة لا سلام ولا كلام ولا زيارات. هالعائلة مثل الأعداء بالاسم قرايب وحبايب». لذا وأنا نائمة قرب جدي في فراش على الأرض وكانت الظلمة قوية لا تستوعب إلا الظلمة، شعرت بيد باردة تمتدّ بسرعة وتستقر في سروالي. نهضت أجلس مذعورة لتختفي اليد فجأة. لكن الخوف والبرد معاً كانا لا يزالان يهزّانني، ورغم الظلمة التي لا تستوعب إلا الظلمة، رأيت نظارتي قاسم البيضاء لوهلة، ثم اختفى كل شيء. صعبة كانت تلك الليلة. وكأنها ليست واقعية. بقيت جالسة طوال الليل، حتى اني ما أسندت رأسي فوق الوسادة، إلا عندما عمّ الغرفة نور ضئيل. وسمعت خطوات خالتي تقترب في اتجاه فراشنا وتنادي جدي: «يللا وحّد الله يا بيّ، الساعة خمسة ونصف، صلاة الفجر». وينهض جدّي وهو يتنحنح. وقتها فكّرت في أرق

ليلة الأمس وغمرني شعور خليط من الحزن والخوف وعدم الراحة.

انه الشعور الذي عاودني وأنا جالسة الآن في السينما، بل إن تلك الذكرى جعلتني أنسى ما أنا فيه حيال خالي. لكن أنامل خالي عادت تبحث عن يدي وتمسك بها. استجمعت شجاعتي أسحبها وأنتفض وأصابع يدي تتشابك تصلّي أن لا يحاول مرة أخرى. وأخذت أصابعي تتشابك أكثر وتنزف عرقاً، رغم أني وددت لو أنها تستطيع أن تنزف دماً. بل وددت أن أنزف دماً حتى من وجهي ومني كلي. لو أستطيع أن أنزف بلا جرح فوق اللحم. يكفي جرحي الداخلي النازف وكأنه نافورة. وشعرت برغبة في البكاء. برغبة في الهرب. برغبة لأن أصرخ، أصرخ حتى تضيء الصالة أنوارها، ويتوقف عرض الفيلم. وما شعرت بكرهي للظلمة ولرؤوس البشر وأعينهم صوب الشاشة كتلك الليلة. لكن عندما فكرت أن الأضواء ستعمّ الصالة بعد وقت وسيذهب الكل، حتى أنا وخالي سنعود إلى البيت، كم وددت لو أن الفيلم لا ينتهي! لأنه بعد أن تضاء الأنوار ستتوالى الأيام والليالي التي ستحاول أن تدفن حزن هذه الليلة وخوفها ولكنها لن تستطيع.

جلست طوال الوقت في السيارة أحاول فتح الموضوع. تمنيت لو أقول له «أرجوك لا تفسد أيامي هنا. انك تضايقني». منذ أن أخذت الأيام التالية تحاول أن تدفن ذاك الجرح، أخذت أفكر في خالي وفي يده وأعصابها التي كانت تشدّ على كتفي كما يحدث بين رجل وامرأة. ورغم إظهاري بأني صرت أتضايق منه ما أنفك يجرّب إحاطتي بذراعه. وانتقلت إليّ موجة جديدة من الحزن، فأنا أصبحت في حالة ضياع. هذه اليد، هي يد خالي. وإذا صرخت كيف ستلتقي نظراتنا

بعدها؟. وكيف سأذهب معه إلى البيت؟. وإذا قررت السفر فجأة، كيف سأدعه يرافقني إلى المطار؟. كان قد مضى وقت ظنّ فيه أني راضية، لأني ما انتفضت كما يجب ولا صرخت كما يجب. بل اكتفيت باغلاق باب الحمام لأبقى فيه سجينة. كنت أهرب إلى الحمام في بيتنا في بيروت. خوفاً من أن تلتقي عينا أبي بعيني، ويكتشف أمري. البطش صفة تلازمه. أعتقد أن شكله هو الذي حدّد طبعه. بوجهه العابس وبشاربه الهتلري فوق شفته الغليظة المكورة وامتلاء جسمه. هل كنت مخطئة؟ كان حادّ الشخصية. والأسود عنده أسود مائل إلى السواد. هذا الطبع هو الذي أنقذني من تشويه وجهي تماماً. كان ينهرني كلما رآني أصطاد حبّة فيه، أصابعي تحوم حولها. تلمسها، تقشرها. ثم تكبسها. ولا أتوقف إلا عندما أرى نقطة من الدم استقرت فوق أصبعي. وهكذا باستمرار كانت أصبعي تسبق كلامي كلما تهيّأت لجواب ما وتبدأ بالحفر. أنظر إلى وجهي في المرآة فأرى البثور موزعة فيه. ونقاط الدم متجمدة فوقها. الآثار تظل بلونيها الأسود والبنّي. فأسرع وأكتب إلى مجلة نسائية أسأل عن العلاج.

لازمتني هذه العادة السيئة زمناً طويلاً. وكان أبي يجنّ جنونه كلما ضبطني واقفة أمام المرآة أفتح البثور النائمة، فإما أن يصفعني على وجهي أو يصيح بأمي في هزء شديد: «يوم السعد يوم تتزوج زهرة، . . زواج لحتتزوجه. . وجهها مثل خبز التنور المنقور»

كان كل من رآني برر بثوري بهذه الجمل ذاتها: «هذا حب الشباب، غداً يولي ظهره دون أن تدري». «هذا من أكل الحلو». «هذا من أكل الحار والحامض». وكان والدي يقاطع هذه الأقوال

بقسوة: «هذا استهتار، هذا من صنع يدها». كان تعليقه يوتّرني، بل إذا عدت إلى الأيام الماضية وجدت أن علاقتي متوترة معه منذ أن وعيته، في بذلته الكاكية وشاربي هتلر، وصوته الرنان في البيت، وبالتالي اصطدامه الدائم مع أمي. كان أمله أن يجمع القرش فوق الآخر حتى يتسنى له ارسال أخي أحمد إلى الولايات المتحدة ليتخصّص مهندساً كهربائياً: لماذا مهندس كهربائي؟ لا أعرف، وأحمد يكاد لا يقرأ ولا يكتب بل كان يُطرد من المدارس. وما كان البطش والقوة اللذان يتمتع بهما والدي يتركان ولو أثراً بسيطاً على أحمد. ومع ذلك ظل أمل أبي في إرسال أحمد إلى الولايات المتحدة قوياً وظلّت اللحمة لأحمد، البيض لأحمد، البندورة الجيدة لأحمد. حصّ الزيتون الكبير لأحمد. وإذا تأخر أحمد في العودة ليلاً كانت أمي تلخبط سريره، وتضع في وسطه وسادة حتى إذا سأل أبي عنه، ردّت عليه مرتعشة: «أحمد نائم». كانت تتستّر على أحمد، حتى عندما حاول سحب أساورها الذهبية وهي نائمة وقفزت مذعورة، لتجد أحد الأساور عالقاً في منتصف راحتها. هرب أحمد، وأعادت أمي السوار إلى رسغها واستأنفت نومها. كان أحمد يكبرني بسبع سنوات، كان بيننا توأم وبنات وصبيان ما عاشوا إلا في صحن حساء صيني، بعدما طرحتهم أمي الواحد تلو الآخر. لماذا كانت تجعل الأجسام التي في حجم الأصابع، تسبح في صحن الحساء، بينما هي متمدّدة على السرير، والقابلة القانونية إزدهار تهزّ رأسها أسفاً أو فرحاً، لا أدري؟ أذكر الجارات وهن يفدن إلى الغرفة يصافحن أمي ثم يكببن على صحن الحساء، حيث المخلوق الصغير يسبح، يتفرسن فيه ويقلن: «بسم الله الرحمن الرحيم، سبحان الخالق، إنسان بكامله»

وواحدة تكون صريحة فتسأل أمي، «ما سبب هذا الطرح تلو الآخر؟» وأخرى تكون أكثر صراحة عندما تبصق قائلة وهي تبعد صحن الحساء عنها: «تفو، تفو على الإنسان، هلق هيك كنا، تفو، تفو على الإنسان كيف بيخلق مثل الظفر ويصير مثل الهرش». وأمي تتكىء على أحداهن لتدخل الحمام، ثم تعود ووجهها أصفر إنما السعادة تكاد تقفز من لمعان عينيها. كانت لا تريد أولاداً من والدي، وكنت أسمع كلمة الطلاق على فمها كل مرة نزور جدي في خيمة شك التبغ، حيث كان يردد هو: «استغفر الله يا فاطمة، استغفر الله يا بنتي».

شعور الاشمئزاز والخوف الذي وقف بيني وبين خالي جعلني أتحسّب مئة مرة لكل شيء يخصّني ويجعلني وإياه في موقف حرج. لذلك وأنا أفد إلى غرفتي مرة وجدته يقلب مفكرتي التي كنت قد كتبت فيها البارحة ليلاً. هجمت عليه كما تهجم النمرة الصغيرة. ولم تكن القوة هي التي تساندني بل وخز الضمير والخجل إذا هو قرأ ما كتبته عنه في مفكرتي: «خير للمعيدي أن تسمعه من أن تراه» لقد أصبت بخيبة أمل بعدما تعرفت عليه، شخصية معقدة». هجمت وانتشلتها من يده، يظهر أنه لم يكن قد بدأ في قراءتها لأنه قال لي بعصبية: «لم الخوف؟ لماذا تتصرفين بهذا الشكل»؟ وجلست فوق السرير وأنا تعبة، فكرت في تصرفه الذي لا يشبه إلا تصرف والدي. خاصة عندما فارق الغرفة بغضب. انسللت مع مفكرتي إلى الحمام. وسمعتني أفكر: «لا مفر منك أيها الحمام. أنت الوحيد الذي أحببته في أفريقيا، أنت، والمعدّات الكهربائية المرصوصة». ونزعت الورقة إياها ومزّقتها نتفاً ولم أضعها في المرحاض، لم أعد أثق بخالي. لففتها

في ورق تواليت وخبأتها في سروالي. هي الآن عند أسفل بطني. لن يستطيع أحد أن يعرف ما كتبت عنه. ثم جلست أكتب ورقة أخرى انطباعاتي عن أفريقيا وعن الطقس وعن الزنوج. وقبل أن أفتح الباب شعرت بسعادة ولم أنس أن أهنىء نفسي على الحيل والأكاذيب التي دائماً أتفوّق بها حتى على مكر والدي.

وانسللت أضع المفكرة في مكانها السابق. لما دخل ورآها على السرير تناولها وهو يقول: «شو الظاهر أنك كبّرت عقلك». ولما همّ بقراءتها رماها قائلاً: «هيدي كتابة جديدة! أنت كذابة»، وعاد يبحث في الغرفة. قلب الغرفة كنسر دخل الغرفة خطأ ولم يستطع الخروج. ثم كفأر جائع يبحث عن الطعام. ذهب الى الحمام وسمعت صوت السيفون ثم صوت الماء. مع أن فتات الأوراق كانت تسكن أسفل بطني، إلا أني كنت خائفة. فقد تخطر له فكرة أن يبحث عنها في سروالي. ولم أنتبه له وهو يتسلّل خارجاً من الغرفة. كان يودّ أن يضبطني أخبئها. إنها نائمة بين فخذي أيها الرجل العنيد. إنها في أمان لو أتيت بأعظم منجم في افريقيا لن يجدها إلا إذا هي صاحت وخرجت من مخبأها.

ليلة مضت وخالي قلما يحدّثني. ولما زارنا أصدقاؤه العازبون ودعونا الى العشاء وجدت نفسي كأني مرة ثانية في الحمام الضيّق المقفل عليّ، وفي حمام بيتنا في بيروت. عدت إلى الأمان النفسي والطمأنينة. مع أني لست اجتماعية ويدي لا تزال تصعد بسرعة تتحسس البثور في وجهي كلما قابلت أشخاصاً للمرة الأولى، إلا أني فرحت لمجيء أصدقاء خالي.

بعد حادثة الرسالة التي عرفتني على شخصيته، أخذت أنتظر منه

كل العنف، خاصة عندما أسترجع الطريقة التي أمسك يدي بها. والنرفزة التي تألقت كالجمر في عينيه.

في المطعم الذي ذهبنا إليه في اليوم التالي، وقفتْ مغنّية أفريقية تغني الفرنسية والاسبانية، بلهجة حنونة. لما دعاني ماجد إلى الرقص، ارتبكت، فأنا ما رقصت قبلاً سوى مرة واحدة وفي إحدى الحفلات المدرسية، ومع بنت تصغرني. بدأت أرقص معه بلا إيقاع وأدعس على قدميه وتعرق يدي وأدير وجهي عنه. كان هو أيضاً يرقص بارتباك، وفجأة سألني أن أتزوجه. هكذا بلا مقدمات. دهشت مستغربة. وبدأ هو يلحّ عليّ لمعرفة الجواب. وأنا بكماء. وعاد يشرح لي وضعه المادّي ووجهة نظره في الحياة. أراد أن يعرض حياته كلها قبل أن تنتهي هذه الرقصة. وأنا صماء. أفكر بالبشر وكيف يصابون بلوثة الحر وبلوثة الشمس. إذاً طباع خالي لم تعد عجيبة. هذا الذي يراقصني مثله. وكل هؤلاء الذين أقابلهم كأن أفريقيا أعطتهم هذا الداء المعدي والمنتشر. هل يصبح المهاجر غير طبيعي لأنه ليس في بلده. الرجل الذي يراقصني يطلب الجواب قبل أن تنتهي الرقصة. وأنا بكماء، صماء. عندما عدنا إلى البيت سألني خالي بغيرة: «ماذا كان يحدثك ماجد؟». ولما أخبرته تجهّم وجهه وقال: «فظاعة هيك خبط لزق؟ صحيح أنو ماجد ولد بلا تجارب. شو كان جوابك؟» قلت «ولا شيء».

جلست في السرير، والشراشف مضمومة إليّ برغم الحر. كنت أريد التأكّد مما أفكر فيه. وماذا بعد افريقيا الخيبة؟ وماذا بعد أفريقيا؟ أين أرحل؟ سيأتي اليوم الذي أتزوج فيه. وسيكتشف زوجي أني لست عذراء، وأني أجهضت مرتين. أنا في أفريقيا، لا لأتفرج عليها

وأتعرف على خالي كما أوهمته حين كنت أشدّد بطريقة غير مباشرة على موضوع الزيارة ليدعوني إلى زيارته. إذن ان رسائلي إليه هي التي جعلته يتصرّف معي ذاك التصرّف. أنا الآن في أفريقيا، لأني كنت أود أن أبتعد عن بيروت. فوالدي كان مصمماً على زواجي بسمير، صديق أحمد الذي تقدم يطلب يدي مرات عديدة وأنا أرفض، رغم أنه كان يعجبني. سرّ عدم عذريّتي واجهاضي كان السبب الوحيد لرفضي. وكان والدي يقف كمارد فوق كتفي قائلاً: «بدي أعرف ليش بدو يتزوجك شو شايف فيك وجهك الممصوص أو حبوب القمح». وكنت أودّ لو أجيب المارد الواقف: «يريد أن يتزوجني لأني ساكتة، لأنه ما رأى أسناني قط، لأني لا أهتم له، لأني أشكل له علامة استفهام». كنت بدلاً من شرحي هذا أقول لوالدي: «لن أتزوج، يعني لن أتزوج». وكانت أمي تصرخ: «ولك بتبوري، وهلق أنت بايرة سلف، يللا اقبلي قبل أن يغير فكره». وأنا أحمل الجواب نفسه دائماً: «لن أتزوج، يعني لن أتزوج». ويعود والدي بهدوء يريد معرفة السبب: «يا زهرة إذا حدا بدو ياكي ما تخافي، بس أنت قولي» وأنا أبعد الجواب. أبعد صورة مالك. أبعد عني السرير الصغير الذي كان في الكراج والذي كان يمدّدني عليه. أبعد صورة زوجته وطفله التي يحملها دائماً في محفظته حين فتحها حتى يدفع حساب القهوة في مقهى لا يفد إليه إلا الخائفون من أن يراهم أحد. أبعده عن جسدي، الذي ما شعرت به مرة يهتّز وينتشي. أبعد يد الدكتور الكهل الذي مددني على طاولة الاجهاض أبعد مجيئي إلى البيت بعد الاجهاض وأنا أجمع قدمي وفخذي قبل أن يكتشف سرّي والدي. أبعد كرسي المقهى الذي يعرفني من كثرة ما أخذني مالك

إليه، محاولاً إغرائي، مبتدئاً بالكلام عن الحب، منتهياً بالحب. يشرح الأمثال وأنا أصدقه. أصدق آراءه ومثاليته. من عنده وجه كوجهي وقامة كقامتي تكون سهلة التصديق. هكذا كنت أبرر لنفسي. وكان هو يقول أنه معجب بوجهي ذي البثور وكيف أنها تجعله يهتاج. وهو فوقي يخرق عذريتي لم أشعر سوى بالخوف. تمدَّدت ولم أشعر إلا أني كغيري من البنات، والداي متعصّبان. لكن ما أن تدنو صورة والدي حتى أتكهرب، وأتأكد من أنه سيذبحني لو علم بأمري. إنه لن يتورع عن هذا ولو قضى بقية عمره في السجن. إنه إنسان قابل لأن يفصل رقبتي عن جسمي. آه إني أبعد هذه الصورة عن ذهني، ولكنها تلحّ وتلجّ لتعود فتنبت من جديد وهي تلح وتنبت، يقف والدي ببذلته الكاكية، وجسدي لا يشعر بشيء ألبتة إلا بمالك يتحّرك فوقه لثوان معدودة. ثم ينتظرني بعدها حتى أغادر غرفة الكراج الذي يملكه صديق له. ثم يغادر بعدي. ولم اسمعه يتكلم مرة عن المستقبل ولا عن الحاضر، فقط عن الحب وينتهي الحب. ها أنا أبعد الصور وها أنا أهرب من فكرة الزواج. أهرب من مالك بعد اجهاض لأني كرهته. لما خرجت من معمل الريجي ورأيته يقف قرب سيارته هازاً رأسه، «بمعنى تعالي». شعرت بالمرض، لكن تقدّمت منه. كأن فيه وبسيارته آلة مغناطيسية خاصّة. أخذت أقترب، بينما أخذ البرد يعصف بي. البرد والارتعاش رغم الشال الذي خبّأت به شعري وأذني. البرد يعصف حتى في قدميّ نصف المبلولتين من مطر الصباح. وكأن ظهري قد جمع نفسه وتكوَّمت فقراته. تحسَّست شفتي، تذكرت البثرة التي جلست على العرش منذ يوم الاجهاض ولم ترد التنازل. وصلت إليه وأنا لا أزال على حالي، أرتعش وأرتجف، دخل

مالك وفتح باب سيارته، ودخلت أنا بدوري ولكن لم أقل شيئاً. بل جلست وأنا أحاول أن أمنع جسمي من الاهتزاز، وأن أخفي اصطكاك أسناني. كالعادة أوقف السيارة واختفى في البناية. لم أتردّد. لم أفكر لحظة في عدم اللحاق به، رغم أني لا أزال أرتعش وأشعر بأني لا أقوى على الوقوف ولا على السير. لكني دخلت البناية ذاتها وأنا أتلفّت ورائي. ونزلت درجتين حتى الكاراج الذي بدا مقفراً، يصفر من الوحدة يمنعني من أن أحتمي بظل السيارات. حتى دولابها يحمي قدمي، ومصباحها يحمي يدي، وهيكلها يحمي جسمي. أنا الآن وحيدة إلا من وقع قدمي، أرى نفسي بوضوح وأنا أدخل الغرفة القابعة في آخره. عندما دخلت الباب المفتوح نصف فتحة عاد البرد إليّ وعاد اصطكاك الأسنان. أمسك بكلتا يدي وأجلسني على الأثاث الوحيد في الغرفة. السرير الخيزراني وعليه غطاء أصفر بدت البقع عليه واضحة. ها أنا أرتجف، كما ارتجفت أول مرة جاء بي إلى هنا، وكل مرة أرتجف ولا أعرف لماذا لا أمنع نفسي من المجيء. فهو قد بدأ علاقتنا بالكلام عن الصداقة، وكيف أنها مهمة بين الرجل والمرأة وأن لقاء في مقهى حول فنجان قهوة هو شيء رائع يحدث بين اثنين. كان يرجم التقاليد التي لا تؤمن بالصداقة بين آدم وحواء. في اللقاء الثاني أخبرني أنه وجد لي عملاً في الريجي، وكان أخي قد أرسلني ذات صباح إلى مكتبه العقاري حتى يبحث لي عن عمل. ولم اتردد إلا قليلاً في الذهاب لأن مالك صديق أحمد وصديق العائلة. اعتدنا رؤيته يومياً يأتي مع أحمد كل مساء، ماسكاً الكيس الصغير الذي يحتوي إما على البيض والبندورة أو على لحمة مفرومة. يحضر هو وأحمد عشاءهما ويجلسان في المطبخ، يأكلان ويضحكان.

في اللقاء الثالث أخذ يتحدّث عن الحب وأخذ يستشهد بجبران خليل جبران ثم عن الحبّ العذري. ولم ينس أن يلعن الزواج والأولاد. ولم ينس أن يعلّق أنه أراد الزواج مني لكن صمتي لم يشجّعه. بعد اللقاء الرابع أخذ يمسك بيدي. ثم يستغفل الساقي وينتزع قبلة سريعة. وأنا راضية بكل الذي حدث ويحدث، أسمع له ولا أقول إلا القليل. فأنا خائفة جداً من أن يراني أحد معه، شدّة هذا الخوف كانت تخدّرني. أجلس وعيناي صوب الباب مخدّرتان. كل وقعة قدم لها وقعة مؤلمة في قلبي. كل صوت له غرزة في لحمي. لكن لم أمتنع عن القيام بأيّ شيء طلبه مني. كل هذا، وأنا كعادتي لا أقول إلا القليل. وعندما اقترح عليّ غرفة الكاراج وحاولت التمنّع أقنعني بسرعة أنه فكر في الكاراج من أجلي ومن أجل مستقبلي. يجب أن لا يراني أحد مع رجل متزوّج. وبسرعة تصوّرت والدي ببذلته الكاكية وشاربي هتلر يسحبني من الفراش إلى المطبخ حتى يستنطقني عن مالك. عندما دخلنا أول مرة غرفة الكاراج بلع لسانه وبلع محاضراته عن الحبّ العذريّ وعن أمثال جبران خليل جبران وراح يقّبلني وأنا لا أفعل شيئاً. إلا أني أفكر أن دبوساً يشبك حمالتي وأرجو أن لا يتحسّسه. وأن هناك ثقباً في جواربي أرجو أن لا يراه. وأن عليّ ابتداء من اليوم أن أهتم بنظافة سراويلي. وما كان يتضايق أبداً من عدم تحّركي وانفعالي وهو يقّبلني وهو ينطرح فوقي وهو يطارحني الحب.. لكن وأنا أرى دماء عذرّيتي على فخذيّ والغطاء الأصفر بعد صرختي، قلت له: «قل أمام الله لقد تزوّجتك. هذا يكفيني». وما رضي أن يقول «تزوجتك» وشرح لي سبب رفضه، وكان لا يريد ربطي به حتى لا يحجز حرّيتي. وابتدأ بالقاء المحاضرة تلو الأخرى.

عن المساواة بين المرأة والرجل وعن العلاقة الجيّدة وعن وعن. . وأنا لا أقول إلا القليل القليل. رفضه هذا لم يؤثّر على علاقتنا فأنا أراه يوماً بعد آخر في غرفة الكاراج فقط. حتى المقهى ألغاه ومرافقتي له بالسيارة ألغاه وقام بإلغاء الكثير من كلامه. واليوم وأنا لا أزال أرتجف كنت أشعر بأني قد سيطرت عليه وعلى علاقتنا بعد حملي منه وإجهاضي. شعرت أنه في وسعي الكلام أكثر، لكني كنت متوهمة، لأنه ما أن رآني وهمّ بتقبيلي حتى أبعدته عني. رفع تنورتي غير مبال بتقبيلي أو بخلع ملابسي وطارحني الحب. فجأة أحسست بالقرف، ساورني الشعور نفسه وأنا أخوض عملية الإجهاض. الدكتور العجوز يمدّدني بمساعدة الممرضة العجوز الممتلئة قليلاً، والتي رأيتها تسرّح شعرها بلا مرآة، وتضع أحمر الشفاه فوق آثار فمها بلا مرآة. كنت أظن أني أتوهم وأنني لا أزال تحت تأثير البنج، لكن ها هي أمامي تسرّح شعرها وتضع أصبعها حول آثار شفتيها وأبعدت وجهي عنها وصليت ألا ألتقي بها ثانية أبداً: خوفاً من أن تكتشف أني غير متزوّجة. خاصة أنها لم تكفّ عن القول بعد العملية: «يللا حبيبتي، هلق جوزك بيستفقدك، يللا حبيبتي»، فقد أرادتني أن أغادر المكان بسرعة. نهضت وسرت بترنّح، البنج لا يزال يسكنني كلي، أبعد وجهي عنها حتى لا تحفظه بل تنساه. وصليت مرة أخرى أن لا أراها طيلة حياتي كلها. لكن كنت مخطئة في تقديري فقد عدت ورأيتها مرتين بعد هذه المرة. عندما أردت إعادة عذرّيتي لدى الدكتور العجوز، ثم عندما عدت إليه حتى أجهض بعدما فضّ عذريتي مالك بلحظة وبلا لذة لأنه كان يعرف باصطناعيتها.

«يا خالي أرجوك، لماذا أنت ممدّد بجانبي»، تمنيت لو أقول هذا.

«يا خالي لو تسمع دقات قلبي. لو ترى الغلّ والاشمئزاز الذي تكوّم في صدري. لو فقط تعرف حقيقة شعوري. أنا متضايقة وأكرهك. أنا متضايقة من نفسي أكثر وأكرهها لأنها صامتة. متى ستصيح كامرأة دهمها المخاض؟» ولبثت لا أتحرّك. ولبثت بلا معان على وجهي. بلا تعابير. كأني ميتة. رغم أن الحرب قد اندلعت في داخلي. ابتداء من دماغي حتى أصبع قدمي. اندلعت الحرب وما تركت إلا أشلاء. لما اقترب أكثر وأخذ يدي وكان على ظفرها أثر خفيف جداً لعادتي الشهرية إذ كنت أودّ التأكد من قدومها وأنا نائمة. حتى أعاد يدي. فقد كان بدأ يلحس أصبعي عندما وجد أن طعمها غريب. واقترب مني وهو يقول كم هو مشتاق لعائلته اشتياقاً مميتاً. وهنا شعرت أن عضوه ينتفض على فخذي رغم بنطلونه ورغم قميص نومي. وقفزت جالسة وفتحت فمي لأقول. لأصيح، لأنذر. لأحتجّ. ووجدت نفسي أقول له: «لماذا لا تدعني أنام؟» ونهضت من الفراش متوتّرة، وكأن ايقاظه لي كل صباح هو سبب توتري، لا تصرّفه. وهرعت إلى الحمام بين أكوام التلفزيونات. وجلست أبكي بصوت سمعته كل أفريقيا. وضعت رأسي بين يدي وأغمضت عيني ووجدت نفسي في خيمة القش مع أمي وكنت نصف نائمة أحكّ كل جسمي من لسعات البرغش. كنت خائفة أن أفتح عيني ويداهمها حليب التين وتحمرّ عندما شعرت بوشوشة وبحركة في الفراش الوحيد الذي كان على الأرض وكنت أشارك أمي به. شعرت بحركة ثم بالفراش يهتزّ ثم سمعت صوتاً آخر وقرّبت وجهي من جسمي، ورفعت قدميّ حتى وصلتا صدري، ثم قربت يديّ وخبأتهما عند رقبتي. ولما استجمعت جسمي كله، كانت الحركة قد تلاشت فجأة. وجمدت في

وضعي هـذا ثم نمت واستيقـظت في الصبـاح عـلى رؤيـة رجـل أمي خارج الجيمة، يحتسي القهوة، وأنا نائمة-في الليل التالي شعرت بالحركة وبالهمسات ذاتها. وعندمـا استجمعت جسمي اختفت الحركـة وتركتني مستيقـظة في عـرق يبلّل قـطن الفـراش. عينـاي حمـراوان من شـدّة عصرهما. أنفاسي متلاحقة، من شدّة ما حبستها. كفّاي مجـروحتان من غرز أظافري بهما. لم أستـطع النظر إلى أمي، أو إلى الـرجل الـذي كان يشارك قريبي مصطفى الخيمة المجاورة.

رفعت رأسي عن يـدي وأنـا أسمـع خبـطات عـلى بـاب الحـمام الضّيّق، وصوت خالي. وكأن ما يحدث خلف هذا الباب لا علاقة لي به. لذلـك عدت أخفض رأسي وأضعـه بين يـديّ. وأشعر بـالدفء يتسلّل إليّ. وعـدت أرى وجـه أمي الأبيض المـدور، طبعـة ذقنهـا. عينيها الزرقاوين، شعرها الأشقر، امتـلاء زنديهـا. فستانها الحـريري الأزرق. الغـطاء الأسود مسـدل على الـوجه الأبيض المـدوّر. عـدت أراهـا وأراه في الجبـل «عنـد شجـرة الجـوز» وتـارة أرى نفسي أخبط بحذائي عالياً حتى ينهمر عنقود العنب ورجلها يهرع يحملني ويعصرني ويتأمل حروق فخذي. وأراها في فستان البيت الواسع. جالسة عـلى الأرض ورأسها في حضنه. وتتوالى الصور التي لمحتها تريها لصديقتها التي لم أحبها قط. وأمي تضحك وهي تمسك الصور ثم تحاول أن تسحبها في لهفـة وخوف عندما حشرت وجهي مرة لأراها في الصور محمولة بين يدي الرجل. أخـذت أبحث عني ولم أجدني، رغم أني رأيت الجـوزة والحجـارة النـظيفـة البنية.

خبطات الباب وصوت خالي لم يتـوقّفا. رفعت رأسي بهـدوء، كأن الأمر لا يعنيني، عدت أمسك رأسي بين يدي حتى أتقوقع داخـل هذه

الجدران الضيِّقة الحميمة. ولا أعرف كم من الوقت مضى. رفعت رأسي فقط عندما رأيت الباب محطّماً يكاد يقع عليّ وخالي يلحق به وشرايين وجهه ويديه قد انفجرت: «شو عملت بحالك». ثم هزّني، «شو عملت بحالك؟». وكان الصمت يحوم حول المكان، وكأن شيئاً لم يكن. ولم أرفع عينيّ إليه. بل ظللت جالسة على كرسي الحمام ثم نهضت أسير كالنائمة. لا يعكّر اتجاهي أيّ صوت. ولم أعد أسمع أو أرى خالي حتى وقع أقدامه قد اختفى. وكأني نمت وأنا أسير، وأنا أقف، لأني بعد وقت وجدت نفسي في السرير وخالي مع رجل آخر واقفان. ثم شعرت بألم في يدي لكني لم أرفعها. رأيت الرجل الآخر يحاول أن يسألني أسئلة بالفرنسية لم أفهم منها شيئاً ثم غادر الغرفة وخالي وراءه.

كم نهار مضى؟ كم ليلة مضت؟ لا أعرف، لقد خانني الوقت وخانتني أفريقيا. كنت أشعر بجوّ حارّ رغم التبريد ـ من خلال النافذة أرى السماء رمادية وألمح الطيور مستسلمة للفضاء ولرؤوس الأشجار والذباب في رجاء دائم مع الشبكة التي وضعت على النوافذ وعلى الأبواب يريد أن يدخل ولو للحظة. وخالي جالس. أرى خادمه الزنجي يحمل صينية ويخرج بها وأنا لا أحرك فمي. ثم أرى الدكتور يبحث عن يدي تحت الفراش، وكأني في غيبوبة لا أعرف ماذا يفعل بها إلا عندما أشعر بنغز خفيف في يدي. وتعود يدي تؤلمني وأنا لا أعرف كيف أرفعها حتى أراها. وأسمع صوت خالي يتوسّل. وأنا أستغرب كيف يطلب مني أن أتحدث إليه. ألا يعرف أني لا أستطيع؟ لقد حاولت ولكن لم أستطع. ولم أتحرّك إلا عندما كنت أشعر بأن شيئاً ما سوف يفلت مني، وقتها كنت أتحسس طريقي ببطء خارج

الفـراش متجهة نحـو الحمام وأمـرّ في طريقي أمـام المرآة. ألمـح وجهي وأشهق. وجهي الأحمر متنفخ. شفتاي متورّمتـان. زرقاوان. ثم أعـود وأدخل الشراشف، أرتاح وأجلس محدّقة في وجه خالي الـذي يحاول أن يستخلص كلمة واحدة مني بينـما أنا جـالسة في هذا السريـر الأبـديّ. المشهد من خلال النافذة، مشهد واحد لا يتبـدّل: ذباب فـوق شبكته، طيور تطير، رؤوس أشجار، سماء رمادية.

بعد أيام مرّ في خاطري عرض ماجد للزواج بي، فحـاولت إبعاد الفكرة ككل مـرة، ولكن عدت واسـترجعتها، ربمـا لأني وأنا في هـذه الحالة، يبدو لي كل شيء كأنه موجود وغير موجـود. لا أحد يستـطيع لومي. أشعر بحالة استثنائية. كنت قد مررت بهـذه الحالـة نفسها في بيروت، عندما علمت أني حامـل للمرة الثـانية، وكـان مالـك يبحث معي أمر موعد إجهاضي لدى الطبيب العجوز والممرضـة. رأيت فمه يتحرك، وسمعت صوته جيداً، لكني لم أعـرف ماذا يقـول ولم أحاول معرفته. جلست بارتخاء، وكان نظري قد اعتاد غرفة الكاراج، وكأنّ مصيري قد تقرر. أفكر أنه لا مفّر من هـذه الغرفـة وأنا جـالسة بـلا حراك أحاول أن أنبش ذكرى واحدة ولا أستطيع. أعرف وجه مـالك وجسمـه ولا أعرف عن مـاذا يتكلم، كأني اعتـدت ضجّة السيـارات وصارت جزءاً من سمعي وما عدت أسمعها. حاولت، وكـان مالـك يكلمني هذه المرة في غضب. كانت عيناه الواسعتان قد بدتا ضيقتين. حـاولت أن أستجمـع أفكـاري وسمعي وأركّـز عـلى مـا يقـولـه ولا أستـطيع. نسيت مـاذا كنـا نبحث. وامّحى كـل شيء عني ومني وعـليّ. أنـا جالسة باسترخاء، أتسمّر تارة في وجهه وتارة في باب الغرفة، وتارة في الأرض. رأيته يمسكني عنوة ويدخلني سيارتـه عنوة ثم رأيت نفسي في

غرفة الدكتور العجوز. وأنا أشعر بألم حادّ عند أسفل بطني. ما أن أغمضت عينيّ على الممرضة، حتى رأيت نفسي في بيتنا وأمي تبكي. وقد رفعت شعرها تحت منديل أبيض. كنت في السرير نعسة، لكني متوتّرة لوجود مالك في البيت إلى جانب أمي يحدّثها. وأمي تبكي، وأنا أفكر أين والدي؟ كنت ما زلت متخدرة إذ حتى هذا السؤال عن والدي كان يغيب عني حالما أغمض عينيّ إلا أنه يعود حالما أفتحهما. ثم نقلوني الى المستشفى في بيروت نفسها وأخذ الطبيب يحدّثني كل يوم لساعات وأنا لا أذكر أني أجبته بكلمة. إلا أني حفظت الروتين اليومي في المستشفى، وكنت أنصاع لأيّ طلب. لكني لم أسمع صوتي إلا عندما شعرت بأسلاك كهربائية تمتدّ إلى كل خلية وعظم ونقطة دم في جسمي وتهزّه، وتجعلني أشعر بأني سأظلّ في هذه الحالة ولن تغادرني. وكم كان هذا صعباً. فأنا قد اهتززت رغماً عني ولساني محجوز في بيت من بلاستيك. بعد هذه الهزات التي كانت تغادرني وتعيدني إلى حالة عادية أستطيع معها الذهاب إلى عملي في الريجي وممارسة أيامي بكل تفاصيلها وكأن شيئاً لم يحدث وكأن من بقيتْ في المستشفى لمدة أسبوع هي غيري، إلا أن الفرق كان يظهر من معاملة والدي لي الذي بدأ يتودّد ويحدثني أكثر من قبل. وأمي التي كان همّها أن لا أعترف لأي إنسان بأني كنت فعلاً في المستشفى، وأرادتني أن أخفي تماماً سرّ الجلسات الكهربائية. وكانت تستفهمني كل دقيقة عن عدد الأشخاص الذين رأوني أقع في الريجي، قبل أن يتصل المدير بمالك ويسأله الحضور. وكانت أمي تقول هذا بينما كان الاشمئزاز يسيطر عليّ من كذب مالك.

غادرت السرير في أفريقيا، وأخذت آكل بشهية وأنا أفكر طوال

الوقت في عرض ماجد، أفكر في الحيلة التي سأحاولها معه حتى لا يكتشف أني امرأة مجهضة مرتين. الأمر يقلق نومي يقلق نهاري، أيّ نهار فتحت عينيّ على شمسه أو مطره وغاب عن فكري القلق والخوف من أن يعرف والدي بالأمرّ؟ وكنت أحياناً أواسي نفسي بأن الطبيعة لن تجعله يسمع بهذا السرّ. الطبيعة ستحجب الصوت عن أذنه، لأنها تعرف بطبعه الجبار. كنت لا أسأل نفسي إذا كان خوفي منه جسمانياً أم نفسياً. إنه الخوف كلّه المتجّمع والمنسيّ، الخوف من أن تنقلب الصورة. الصورة التي طبعت عنها مئات النسخ ووزعتها على كل من عرفني منذ الطفولة، منذ الشباب. زهرة الراكزة التي لا تقول إلا القليل، زهرة الملكة كما أطلق جدي عليّ هذا اللقب، زهرة البيتوتية التي يحمر وجهها خجلاً بسبب وبلا سبب. المجتهدة في المدرسة التي تسهر حتى منتصف الليل تدرس عكس أخيها أحمد. زهرة التي لا يقوى أيّ غبار أن يعلق بحذائها، زهرة التي ما ابتسمت لأيّ رجل حتى لأصحاب أخيها. زهرة امرأة تتمدد يوماً بعد آخر على فراش في غرفة كاراج نتنة، عارية. زهرة لا تستطيع الاعتراض على شيء، تمدّدت على طاولة الدكتور العجوز، حملت مرتين، أجهضت مرتين، خاطت عذريّتها مرة واحدة، كل هذا مع رجل لا يحبّها ولا تحّبه: زهرة تركض أيضاً في الكاراج، زهرة... زهرة...

قلت لخالي عندما عدت من السوق، والعرق الرطب يبلّلني: «لقد قبلت أن أتزوّج ماجد». وقفز خالي بسؤاله: «هل رأيته في السوق؟» وأجبته بهزّ رأسي نفياً. ولا أعرف ماذا خطر ببال خالي لأنه صمت وما تفوّه بكلمة واحدة. ولما عدت وسألته ما رأيه، قال بصوت منخفض: «خير، لكن هل أنت متأكدة من أنك تستطيعين العيش

معه في بلدة صغيرة خارج العاصمة كما كان ماجد يفكّر؟» وهززت رأسي موافقة، وغادر الغرفة وتركني جالسة أستجمع الحيل التي سوف أمثّلها على ماجد حتى لا يكتشف شيئاً. لكن عاد خالي وأمسكني من يدي فخطفتها منه بحركة لا شعورية. طلب مني أن أجلس، فجلست وأخذت أسمع منه وهو يضعني أمام حالتي للمرة الأولى.

«هلق أنا مش غريب، بس هالوقعة اللي بتصرلك مش قليلة ولازم ماجد يعرف فيها قبل أن تتزوجوا شو رأيك؟ ما تاخذي كلامي غلط أنت بنت زكية، وطبيعية لكن هالوقعة اللي بتصرلك قال الحكيم أنها مش بسيطة وماجد لازم يعرف عنها، لأنه نحن ناس أوادم وطيبين، ومش لازم نخبّي شي». وبصوت النعامة أجبته وقلبي ينتفض: «هالوقعة صارت لي منك»، «مني؟» حدق بي وقال بهذيان: «مني؟ ليش يا زهرة عم تحكي هالحكي؟».

قلت بصوت النعامة أيضاً ولا أعرف كيف أفلتت الكلمات: «نعم منك، يمكن أنت ما كنت تقصد، لكن ما أحببت تصرفاتك معي». وصرخ بي: «شو عم تحكي يا بنت؟ أية تصرفات؟» قلت بصوت النعامة: «بالسينما بتمسك ايدي، والصبح نمت حدّي، هالتصرّف ضايقني لدرجة المرض». ونهض وغادر الغرفة دون أن ينظر إلي. سمعت دوي الباب وراءه. وتركني وحدى أنتفض مع اعترافي.

سرت فوق الطريق غير المعبدة، أمسك قلما وورقة أحاول أن أخطّ برقية إلى أختي فاطمة وزوجها أعلمهما عن زواج زهرة. تستوقفني، رغم أني لا أزال أسير، ضحكات الزنوج. إنهم يسكرون الآن، وقد سكروا البارحة. كل ليلة تبدأ القناني الرفيعة تدار على وجوههم، وتنزل في حقوقهم. عندما يشرب الزنجي، فإنه يشرب الدنيا كلها. إنه يستوعب لذّة الشرب التي تضعك في حالة قد تكون أو لا تكون مسروراً، لكن هناك خدشاً يعكر مزاجك ولكنك لا تعرف ما هو. موسيقاهم تدق على وتر واحد. هذا الوتر الواحد واللحن الواحد يندلق أيضاً في أفواههم التي تستوعب الدنيا كلها. أراهم خلف شارع بيتي في خيمة القصب المفتوحة يتمايلون ويدلقون القناني في أجوافهم يتمايلون ويرقصون ويقعون على الأرض ثم ينهضون والضحكات العريضة التي هي كضحكات مارد لا تنتهي، لا تتوقف إنما تزيد. لماذا يشربون؟ كنت أسأل نفسي، هل لأن الأشجار الطويلة العريضة، الكبيرة لا يجدون لها خالقاً؟ هل لأن الشمس الحارقة تجعلهم في ظمأ دائم؟ أم لأن ألوان نقوشهم تبهر الأعين؟ أم لأن في أفريقيا وردة خضراء؟ أفريقيا، عندما نزلت إلى يابستك وتنفّست، شددت ساعدي ومددت صدري إلى الأمام وقلت: «ما أجمل التنفّس! وما أجمل الحرية!». رغم الهواء الساخن الذي صعد إلى الطائرة وأنزلني ثم تركني فوق الاسفلت الأسود. كانت الينابيع

منتشرة بين الأشجار المتوسطة الطول، والقماش الذي يلفّ الأجسام السوداء ملوناً بألوان التعاويذ والشمس والقش والأصداف. معظمها نائم قرب الينابيع في كسل. الواقف واقف في كسل. الجالس جالس في كسل. لقد اخترتك يا أفريقيا. وفضلتك على البرازيل وعلى الأردن، لأني كنت دائماً أحلم بك منذ صغري. أحلم بأفيالك وبألوانك وبقرع طبولك والنقوش الأبدية فوق العاج الذي كنت ألمحه في بيت أختي إلهام. أقترب منه وألمسه وأعود فأضع شفتي عليه. حتى أكتشف ما هو. كان قريباً من الخشب ولم يكن خشباً. وكان قريباً من الحجر ولم يكن حجراً، وعندما كنت أرى روزنامات شركات الطائرات وأراك عارية الصدر ترقصين أو أرى طبلاً بين قدمي رجلك بأسنانه اللامعة البيضاء كنت أقول لنفسي: «كم أودّ لو تنام امرأتي والطبول تقرع وأنا أمسك بمروحة ريش نعام بينما هي متمدّدة، أقشّر لها ثمرة الأناناس وأمسك رأسها بيدي مقرباً إلى شفتيها جوز الهند. أريد أن أسمع معها صوت الغابات وأرى «شيتا وطرزان». لم أكن أستطيع أن أفسّر هذا لرفاقي في الحزب عندما جاءني جواز السفر المزوّر مع تذكرة سفر ذهاباً بلا إياب إلى أفريقيا. قال لي الرفاق: «ما تبدّل عليك شيء، معظم أهلك في أفريقيا قبل الانقلاب بسنين وها أنت ذاهب إليهم كأنك لست ملاحقاً». هززت رأسي وكأني موافق على ما قالوه لأن أعصابهم كانت متوترة في ذلك الفندق الدمشقي المعتم. كانت أيديهم فوق مسدساتهم حتى لحظة سماعهم قرقعة كؤوس بائع السوس والتمر الهندي. وكان بؤبؤ أعينهم يدور يميناً وشمالاً طلوعاً ونزولاً حين يسمعون صوت القبقاب الخشبي فوق الدرج. وكانت أنفاسهم تنحبس ثم تتلاحق عندما كان يرن جرس

الهاتف فوق طاولة الاستقبال ويسمع صداه إلى الطابق الثالث حيث نحن. أيّ خطوات تقترب من غرفتينا المتلاصقتين كانت تجعل عصام يسرع ويضع نظارتيه الزائفتين بينما يرتدي رياض القبعة الصوفية. بينما كنت أقف خلف الباب منتزعاً مسدسي مخفياً إياه وراء ظهري وبين أصابعي والزناد لحظات حاسمة. كانت أعصابنا كخليّة نحل تماماً. الهوس مع الحقيقةمع الخوف مع الشجاعة. كانت كل هذه، دائمة الهذيان في رأسي بعنف، وما كانت ترتاح إلا عندما يتسلّل النوم رغماً عنا ونستسلم له بشغف وكأن أمر القبض علينا لم يعد يعنينا. كنت الوحيد بينهم أجلس الساعات ولا أضجر. كنت أجلس بين يدي مايا التي وجهها كوجه ريش الطاووس وعيناها بلونه أيضاً ويدي الأخرى تشدّ إليها لويز. كنت أجلس والزوبعة الحمراء أمام يدي أرسمها فوق الورق وأعلقها على الجدار في غرفة الجلوس رغم معارضة أمي. أقبل صورة «سعادة» صباحاً وظهراً ومساء وأعلق خريطة سوريا الكبرى قرب شهادة أختي وفاء في تجويد القرآن. وأحلم وقتها بأني أتحدث مع الأمينة الأولى وأحلم بأني في سيارة عبر جبال ضهور الشوير بين بنات الزعيم الثلاث والسيارة تسير بنا وأنا لا أقوى على احاطة احداهن بذراعي بل إني سعيد بقربهن فقط. أرى النشيد الحزبي «سوريا عظيمة» ينشد نفسه بنفسه ويسمعني. وأستجمع كل نبضي حتى أصرخ في كل اجتماع «لمن الحياة يا أبناء الحياة» ويستجمع الرفاق والرفيقات نبضهم ويجيبون «لنا». وأعود فأصرخ: «ولمن نحن» ويجيبون «لسوريا!» وأسألهم بصراخ: «ومن هو قائدنا؟» فيصيحون «سعادة! سعادة! سعادة!». كنت أجمع بنات العائلة وصبيانها ومن بينهم زهرة، وأطلب منهم حفظ المبادىء لقاء مبلغ نصف ليرة للصفحة الواحدة. وعندما كنت أسمع أصواتهم الصغيرة تردد أول

صفحة من المبادىء: «حين بدأت أفكر في بعث أمتي ونهضتها وألاحظ الحركات السياسية...» كانت تغرورق عيناي بالدموع وأتمنى لو أن سعادة حيّ يرزق يستمع إلى هذه الأفواه، والقلوب الصغيرة.

الرفاق كانوا يتناقشون فيما بينهم وهم ثلاثة: اثنان يريدان امرأة والثالث يقول انه لا يحب أية مجازفة. ووجدتني أنهض وأقترب من الخزانة وآتي بالعصا ثم بالحقيبة الجلدية وأغادر الغرفة. لحق بي عصام وبدأ يحدثني عن المفروض وكيف أنه من واجبي أن أعلن عن مكان ذهابي، لم أجبه، بل تابعت نزول الدرج القذر. روائح الحمامات الكريهة تزداد حدّة عند كل درجة. والحيطان سقط دهانها فوق الأرض قشوراً رقيقة. فجأة انتبهت إلى أني أمسك بالعصا. نسيت أنه يجب أن أتكىء عليها. فكرت إن كان عرجي يجذب الانظار إلى قدمي ويبعدها عن وجهي. صوري في كل الجرائد اللبنانية. صورة وأنا أرفع التحية الحزبية في ساحة البرج وصورة أخرى تمثّلني عاري الصدر أتأمل عضلات يدي وقد شددتها حتى برزت كعضلات المصارعين. كيف استطاعت الجرائد الحصول على هذه الصور! ليلة الانقلاب، ليلة ما فتح رجال التحري باب بيتنا الخشبي وكانت شقيقتي وفاء تدرس متربّعة... صرخت بأعلى صوتها: «حرامي!» ولم يصحّح رجال التحري اتهامها بل خطفوا الكتاب من يدها وأخذوا يقلبونه وبلمحة بصر كان البيت قد ازدحم برجال التحرّي الذين انتشروا في كل غرفة منه بل في كل شبر. بدأوا بوالدتي التي قادتهم بسذاجة إلى غرفتي وكان السرير مرتباً. عندها قال لها أحدهم: «شو شايفتيني غشيم يللا انطقي وين هاشم؟». وهزت رأسها قائلة وهي

تبكي «والله يا أولاد العم ما بعرف». عاد رجل التحرّي يستنطقها عن أبو هاشم. وأجابته: «بالجنوب بالنبطية الفوقا» فرد هازئاً «ابنك ما بتعرفي وين، وجوزك بتعرفي؟». وأجابته: «ما حدا بيسأل وين وايمتى بيروح هاشم». وأخذ رجال التحري يبحثون في الغرف كأنهم يبحثون عن ابرة. كان بحثهم دقيقاً كما قيل لي. لم يتركوا ورقة من دفاتر أختي وفاء إلا وتفحصوها. ولما جاء أحدهم يأمر الآخرين بالانتقال إلى السطح لأنه متصل بسطوح البنايات الأخرى، لحق به الجميع بمعاطف المطر الطويلة وبقبعاتهم ومسدساتهم، بينما وقف اثنان عند الباب الخارجي. وهنا بدأت أمي وأختي تكومان كل ما في خزانتي من كتب وأوراق مبعثرة وتضعانها في موقد الحمام الذي أشعلتاه. أكوام الكتب كانت كثيرة، بينما أمي وأختي أخذتا مع ازدياد خوفهما تجمعان كل ما في الخزانة، بما فيها بيت نظارتي الجلديّة، لأن رائحة الجلد المحروق أخذت تعم البيت. وفجأة لعلعت رصاصة، رصاصتان، وما مرَّت لحظة حتى هجم رجال التحري بمسدساتهم وهم يصيحون: «هالعكروت عم يقوِّص علينا. وين هالعكروت؟». وأخذ اثنان منهم يبحثان من جديد في الغرف وتحت الأسرة وفي التتختية. لحظة أخرى وهجم سائر رجال التحري الذين كانوا يبحثون عن أثر ما فوق السطح والسطوح المجاورة ومسدساتهم لا تزال في أيديهم ثم قالوا: «سمعنا قواص، في ريحة قواص». ثم هجموا إلى مصدر الرائحة. إلى المطبخ إلى موقد الحمام، ورأوا الأوراق والكتب تحترق. ونظروا إلى أختي وأمي نظرة احتقار وشك ثم جاء واحد منهم بسطل من الماء محاولاً إطفاء القازان ثم بدأت يداه تمتدان إلى الكتب نصف المحروقة وهو يشتم أمي وأختي. وما سكت

إلا عندما شاهد الرصاصتين بين الصفحات. واستمر تردد رجال التحري على البيت ثلاثة أيام: أخذوا مرة والدتي ومرة أختي الصغيرة وفاء التي كرّروا عليها السؤال: «ماذا كانت تفعل بعد منتصف الليل في صالة الجلوس عشية الانقلاب ومن كانت تنتظر ومتى رأت أخاها هاشم آخر مرة وماذا قال لها بينما لم يفارق غيرهم من رجال التحرّي خيمة والدي في الجنوب طيلة أسبوع وكانوا ينتظرون أن يطل وجهي عبر حزم التبغ التي لم ارها منذ سنين طويلة. أختي وفاء.. في المرة الأخيرة التي رأيتها فيها كانت تمسك صنارتين ومكب صوف ملوناً. تقف كالعادة مع بضع بنات في الزاروب. وما أن رأتني حتى حاولت الركض. كنت قد نهيتها عن النزول إلى الزاروب وعن حفّ الحامض على جدرانه وعن اللعب بالاقوط وبالإكس. كنت أريدها كبنات سعادة. كراغدة التي قلما رأيتها بلا كتاب تجلس في حديقة المنزل أو في البيت: لم أكن أريد أختي أن تكون كسائر بنات الحي. لذا كنت أحدجها بعيني العابستين، وأعقد جبيني وأنا أنبهها أن لا تلعب في الزاروب. مرة أخرى رأيتها تمسك بالصنارتين مستندة إلى حائط الزاروب وما أن رأتني حتى ركضت خائفة وقالت وهي ترتجف: «أنا لا ألعب في الزاروب، إني أشتغل بالصنارتين وماما قالت معليش». لم اعلق على خوفها بل شددتها بهدوء من ضفيرتها السوداء اداعبها. ثم أفلتها وأنا ألوح بجديلتها في الهواء وأعطيتها ليرة. وأبتسم لها وأنا لم أتوقف عن السير بسرعة. عدت ونظرت خلفي ورأيتها تقف مدهوشة لابتسامتي، ولعدم توقفي لتأنيبها كالعادة. ورأيتها تركض وتلحق بي، ثم مددت إليها بليرة أخرى وأنا لا أزال أسير، وهي لحقت بي ومدّت يدها تأخذها، وجدتني ألتفت إليها وأهمّ أن أقول شيئاً. لكني تراجعت

وركضت فوق الدرج حتى غرفتي أبدّل ملابسي وأبحث عن أمي لأجدها في المطبخ. أقبّلها، وأضمها إلى صدري وهي مندهشة تسألني لماذا أنا فرحان. وأجبتها: «هذا يوم عيد رأس السنة». وأسمعها تقول: «يا حرام الشوم عليّ، سنة بتجي، سنة بتروح وأنا مش دريانة، أنا هون وبّيك بالضيعة». أعود لأدخل غرفتي بلا سبب، وأغادرها... أغادرها. اليوم، أو في هذا الليل، ستحقّق الكلمات المبعثرة هنا وهناك، الكلمات المكتوبة هنا وهناك، في دفاتر الناموس والرفيق أدونيس والرفيق ملكارت. بعد هذا الليل لن تعود للحزب جلسات واجتماعات، وكما قلت كلمات مبعثرة هنا وهناك. كلمات، رغم نفور حروفها يبهت لونها وتصفّر صفحاتها. منذ أن انتميت إلى الحزب وهم يسمعونني أناقش، وأرفض وأقبل، وأرضخ وأعود فأناقش.

لما تمَّ إعدام سعادة، بدأ انتمائي إلى الحزب يأخذ صورة أخرى. لا أزال أذكر عندما أجهشت بالبكاء، وأسرعت أجوب كل تجمّعات الحزب، وأدقّ أبواب بيوت المديريات، محاولاً أن أسمع ما جرى. أن أفهم لماذا لم يشعلوا الدنيا بعد. لماذا بقي الهواء على حاله والماء على حاله ولافتات السينما على حالها وبقي الترام يطنّ وسيارات الأجرة تزعق بزماميرها. لماذا بقي باعة الخضر يجوبون الشوارع ولماذا بقي في وسعنا التنفّس والعيش؟ ألم يكن الحزب هو سعادة وسعادة هو الحزب؟ قتل سعادة وقتل الحزب، ومع ذلك بقيت الحياة. في الاجتماعات كنت أجلس مطأطأ الرأس تارة، رافعه تارة أخرى صائحاً، ثم باكياً، ثم منرفزاً، حين سمعت المدير يسأل كالمعتاد: «هل من سؤال؟» كجاري عادته، قبل أن ينهي الاجتماع، مددت يدي

وقلت: «عندي أسئلة، لكنها لا تتعلق بحديث ونقاش الليلة». هزّ رأسه موافقاً، وقال بلهجة عسكرية آمرة: «تكلم أيها الرفيق». كان هذا الأمر باللغة العربية الفصحى ينشيني ويجعلني أنفخ صدري كأنني فعلاً من قادة جيش يتباحثون فيما بينهم. وقفت، وابتدأت بهذه الكلمة: «يجب أن نفعل شيئاً. لا أن نجتمع ونكتب ما جرى في الاجتماعات ونناقش ونحمّس غيرنا. يجب أن نفعل شيئاً، يجب أن نهبّ كلنا، نمتدّ كالنار في الأجسام المهترئة وفي النظام الذي جعل قائدنا في مقبرة». ولما كنت أغلي وأنا أتكلم كنت أرى كيف تمتدّ يدي دائماً وتهدّد، خاصة بتحريكها أصبعاً واحدة، وبالتالي كيف كانت كلماتي تكّر وتلحقها بين حين وآخر زخّات من ريقي. سمعت المدير يهدئني قائلاً: «مفهوم رْفيق هاشم. رفيق هاشم». لم تكن هذه المرة الأولى ولا الثانية، بل ربما المئة التي اندفع بها بالكلام. فأنا منذ أن دخلت الحزب، وكأني دخلته وفوق ظهري مدفع مشحون، أريد تفجيره وبالتالي انفجاري معه. كان ابن عمي حسان قد عرّفني على الحزب.. كان يتكلم ويتكلم وأنا أسمع ولا أفهم ما يقول: «كالاعتباطية، سوريا الكبرى، والهلال الخصيب». وكنت وسنواتي الثماني عشرة لا غير تناقشه بهذا الأسلوب: «ما بالنا وغيرنا من البلاد، لماذا لا نهتمّ ببلادنا قبلاً ونمحو الجوع والفقر؟» وكان يجيبني أنه عند إيماننا بسوريا الكبرى وبالهلال الخصيب تحلّ مشاكل بلادنا تلقائياً. وأذكر أنه أول ما استوعبته من المبادىء كان اللاطائفية وكان هذا كافياً لأندفع إليه كسهم النار. فأنا كنت أفهم وأبرر أي شيء عدا المفارقات الدينية. فقد كنت شغوفاً بقراءة كل ما يتعلق بالصحون الطائرة وبذبذباتها ووجودها في الفضاء وعن احتمال وجود حياة على

القمر. وقتها كنت أجلس وأفكر هل يعقل أن نكون ككرة تسبح في الفضاء؟ وهل يصدّق من يراها من على كوكب آخر أن أهلها منقسمون ديانات مختلفة وطبقات فقيرة وغنية؟ وكنت أحمد الطبيعة وحسان لأنه أدخلني هذا العالم الجميل، عالم التحمّس. وجعلني إنسانا ذا قضية. جرفني هذا التحمّس وتيار القوّة. كما جرف معظم لبنان. فما خلا بيت تقريباً من منتم أو محبذ سواء في المدارس أو في المؤسسات الحكومية والخاصة. النساء والصغار مع الرجال يرددون: «سوريا لك السلام، سوريا عظيمة، سوريا فوق الجميع». إلى أن أصبح الحزب بالنسبة إلى الصغار وإلى بعض النساء تسلية ونشاطاً خارجين عن المألوف. كان الصغار يلقون التحية، وينشدون الأناشيد بحماسة، رغم أنهم كانوا أصغر من أن يفهموا ماهية الحزب، وبعض «النساء المحبذات» كنّ مشغولات عن فهم المبادىء، لكنهن سعيدات في هذا الجو المختلط المختلف.

ولم أستطع أن أبقى كسائر الرفاق أنتظر الاجتماع من يوم إلى آخر وأسمع وأناقش حتى الاجتماع الآخر ثم أنصرف إلى بثّ تعاليم الحزب ومبادئه بين كل من أعرفهم. لا. كنت أودّ أن أحدث شيئاً. أن أكون فعلاً منتمياً، أن أنفذ كل المبادىء الآن. كان بعضهم يظن أني متهور. حتى حسان قال لي يوماً «إنك في حزب ذي مبادىء، إنه يكبر إنه يتطور إنه سيبقى على مدى الأجيال وهذا هو الكسب». وكنت أسأله: وماذا بعد؟ ها أنا وها أنت وها غيري في الحزب لكن وماذا بعد؟» وكنت أرفع التساؤلات حول وجود أحزاب أخرى تتعارض ومبادىء حزبنا. وكيف نحن نرضى بها ولا نفعل شيئاً. الكتائب اللبنانية، والحزب التقدمي الاشتراكي، والنجادة، كيف

نستطيع الحياة وهذه الأحزاب التي تناقض وجودنا، تعيش وتتكاثر. قلت مرة لحسان يجب أن نبدأ باغتيال رؤساء الأحزاب هذه، ورأيته يأخذني على حدة ويقول لي بالحرف الواحد: «يا هاشم، أنت مش داخل عصابة. أنت في حزب منظم». ثم أضاف غاضباً ينتقد المستوى الذي أفهم به الأشياء: «ربما كان يجب أن أدعك تكبر قبل أن أطلعك على الحزب ومبادئه. لا تدعني يا هاشم أعتبرها غلطة». وكنت أستغرب كلامه هذا وبالتالي تفكيره وأجيبه بأنه شخصياً يأخذ الحزب كربّة بيت، كل شيء في مكانه. كل شيء مدروس. اليوم الذي ستغسل فيه واليوم المعدّ للكي واليوم المقرر للمضاجعة.

ويعود حسان يتهمني بالعصبية والتهور. ولم أعد أناقشه. لم أعد أناقش أحداً، بل أخذت أنفذ كل ما أريد أن أفعله. ابتدأت بعرض فكرة مراودة النادي الرياضي الذي يخص حزب الكتائب. صمت جميع من كان في الاجتماع ليقول المدير إنه لا يرى مانعاً. وأخذت أتردَّد على النادي. وكنت ما أن أتخطّى العتبة حتى يبدأ قلبي في الخفقان. وما أن ألبس الشورت وأبدأ برفع الأثقال، وأسمع أنفاس الكتائبيين حولي حتى تدهمني الكراهية والحقد وأتمنى لو أرمي بكل ما أمسكه عليهم حتى أراهم يتناثرون على أرض النادي. بعد مدة سألني أحدهم هناك لماذا لا أتعرف على مبادىء الكتائب اللبنانية؟ وما تمّ هذا لأن أحدهم رآني بصحبة رفيق من حزبي وكانا يسكنان حياً واحداً. وتأملني الكتائبي بعينين من نار. بينما أمرني حزبي بالابتعاد عن النادي الكتائبي بأي ثمن. ولم أكن أعرف عن الكتائب سوى سؤالهم لي وأنا أرفع الأثقال إذا كنت أحب

الله، ثم إذا كنت أحب الوطن ثم العائلة. ولما هززت رأسي موافقاً، قال لي أحدهم ضاحكاً: «أنت كتائبي حتى دون أن تعرف». ورفعت تقريراً إلى الحزب وكيف أن أفراد الكتائب يهتمون بالتدريب الرياضي، أكثر منا وكيف أن طريقة كلامهم بسيطة وسهلة تختلف عن الألفاظ والكلمات التي على أفواه رفاقي والتي لا أفهم معظمها. بعد تركي للنادي الكتائبي، عاودني الشعور بأنه يجب أن أكون في مدفع متأهب الانفجار، وبأني لست كربة بيت. ربما كان حسان محقاً عندما قال لي: «إنك تود أن تثبت وجودك في الحزب أكثر من أي منتم، لأنك تعاني من عقد نقص مركبة، منها عدم تكملة دراستك الجامعية، وعدم استطاعتك الاستطراد في أية مناقشة منطقية إذا كانت تتطلب غير الذكاء الفطري، والتي أساساً لا يعرفها إلا التلميذ الجامعي». وكان حسان يظن أنه يسكتني بكلامه هذا لكنه كان يدفعني بطريقة لا شعورية لأناقش بلا ملل في الاجتماعات، وكان نقاشي الدائم هو حول أنه يجب أن نفعل شيئاً. مشاحنات وتصادم مع الأحزاب الأخرى. يجب أن نبدأ بالعمل في سبيل سوريا الكبرى. يجب أن نبدأ بحل الأنظمة العربية واحداً تلو الآخر. يجب أن نبدأبتصفية الخوارنة والشيوخ إذا هم أخذوا الدين مرايا وواجهات وداروا بها ينشرون تعصبهم عبر لمعانها. يجب أن نغتال كل من يقف في وجه الأمة حتى من اللاحزبيين الفاسدين الذين يسعون بفسادهم إلى شق الوطن وإضعافه.

كيف تسلّطت عليّ هذه الأفكار، هل كنت مادّة مستعدّة للانفجار برغم سنواتي الثماني عشرة فقط؟ أم أني فعلاً أعجبت بمباءى الحزب؟ لا أستطيع التأكيد، فأنا أتذكر وأعرف تماماً الأيام التي أخذت أندفع

فيها وأغلي، فقد كانت قبل تكملتي لقراءة المبادىء وبالتالي، ما كنت قد فهمتها كلها، بل كما قلت، كنت مادة مستعدة للانفجار..

بدأ هذا في الاحتفال الذي جرى في الجامعة الأميركية وكان يترأسه ابن عمي حسان. حشد الشباب الذين كانوا وأصوات الشباب التي تعالت. كلهم كانوا منتمين. كلهم كانوا متحمسين. وأنا مثلهم أصرخ وأنفجر. لكني ذهبت بصراخي بعيداً عنهم، أتهم الحزب بأنه جبان لأنه لا يبدأ فعلاً بالتنفيذ، تنفيذ أي شيء يقف في طريقه. أية كلمة، أي إنسان. حتى النظام. كيف نسي الحزب موت سعادة، لماذا لا تفعلون شيئاً؟ السؤال دائماً من زمان. والجواب دائماً من زمان: «نخاف أن يلاحق الحزب، ونحن الآن لا نريد هذا. الملاحقة سوف تتعبنا». تصميمي وسؤالي وانفجاري حتّهم ربما على اتخاذ قرار بمحاولة قتل القاضي يوسف شربل الذي حكم على سعادة بالإعدام، ولما علمت بالنبأ من الجريدة، حدث لي انفجار باكٍ من الفرح والغيظ. لماذا هم ما فكروا فيَّ للتنفيذ؟ كيف مررت بخاطرهم حتى لا يقع اختيارهم عليّ؟ هل مررت كفم يتكلم ويتكلم فقط؟ أم مررت مخيّ الظهر ويدي مرتجفة؟ أم مررت سعيداً بنفسي بعد المحاولة واستكثروا عليّ هذه السعادة. لا أعرف. لكن انفجاري الباكي من الفرح والغيظ معاً أخذ يقطر نفسه بقطارة ويصبح زيت غيظ صافياً مئة في المئة. لو أوكلت إليّ المهمة، لكانت رصاصتي قاضية. رغم أن الخطة لم تكن للقضاء عليه تماماً. حاولت الاحتجاج في الاجتماع، وكلماتي تطير من الحنق، والزبد يتناثر فوق الطاولة، فوق أوراقهم. هل حتى في الحزب هناك الأفراد المهمون وغير المهمين؟ ونحن انتمينا إليه لأنه يعارض هذه التقاليد الاجتماعية. لكن جوابهم كان: «انظر

من حاول اغتيال يوسف شربل؟ إنه حسين الشيخ من ضيعتك». ولم أقتنع، بل أردت أن أفعل شيئاً بنفسي للحزب. عرضوا عليّ أمانة الصندوق لكن لم يكن هذا ما رغبته. أريد المخاطرة، أريد أن أتحدّى ويعرف الجميع بهذا التحدي من أجل الحزب. أريدهم أن يضعوا أيديهم فوق قلوبهم. أريد أن أدخل حزب جنبلاط الاشتراكي. أريد أن أعرف ماذا يفكر المنتمي إليه. وكيف هي اجتماعاتهم وبالتالي أريد تحدّيهم. لم أقل هذا لرفاق حزبي مع أني لا أستطيع أن أخفي شيئاً عنهم وإلا طردت. وبدأت بالتردد على مقر الحزب الاشتراكي. واكتشفت أن الحزب هو كمال جنبلاط. إذا سافر أقفل المركز. وإذا اعتكف في المختارة، أقفل المركز أيضاً، وتمركز الشباب في المختارة والتفّوا حوله هناك، وكان إقفال المركز هو الشيء الأساسي الذي كنت أحوم حوله بالحوار مع شباب جنبلاط. كنت أقول لهم: «لماذا إذا سافر جنبلاط ما عاد هناك حزب؟ أنظروا إلى الحزب السوري القومي، مات زعيمهم وهم كل يوم يتكاثرون سوف ينتمي لبنان كله إلى الحزب». قلت لاحد الرفاق عن سرّ ترددي على الحزب الاشتراكي. وهذا الرفيق سأل في الاجتماع إذا كان لترددي أي منفعة. جلست في حنق أنتظر أمر طردي. ولكن بعدما أخذ العرق يبرد ويفارق جسمي ليحلّ محلّه عرق آخر صدر أمر بالتهديد بطردي فقط. وتأكدت وقتها كم هم على علم بمدى حماستي وإخلاصي لدرجة جعلتهم يغضّون الطرف عن طردي. وكالعادة انزوى حسان بي، وبدأ بقوله إنه هو الذي أدخلني الحزب، وعليّ أن ألاحظ كل حركة وكل كلمة أقولها لأنه لم يعد يتحمّل شغب الصبا الذي أعيش في دوامته. ووددت لو أضربه، وأبعده عني بلكمة. لكن اكتفيت بقولي له بصوت عصبي: «أتسمّي

حماستي شغباً؟ وحبي للحزب في نظرك هو تهوّر؟ ربما ما يضايقك فيّ هو الطاقة العظيمة التي أحملها للحزب بين ضلوعي. لماذا تقول إني لا أفهم المبادىء كما يجب؟ أتسألني لماذا دخلت الحزب؟ دخلت من أجل أن نغير أبناء الوطن ونجعلهم صالحين. حتى نتحد ونقف صفاً واحداً في وجه العدّو». وقاطعني حسان: «هذه نقطة واحدة. هذا الاقتناع لا يكفي. أنت ككل الشباب تسيطر عليك دائماً أحلام القوة والبطش. دخلت الحزب وكأنك تدخل حلبة مصارعة. يجب أن تعود إلى الدراسة تنهي دراستك الجامعية». وازداد حنقي ووددت لو أسدّد له لكمة. أخذت أضغط على يدي خوفاً من ان تندفع إلى وجهه تلقائياً. هل يطلب مني أن أترك الحزب، وأعود إلى المقاعد والكتب والسخافة، لأني لا أمارس حزبيّتي مثلهم؟

لو يراني الآن حسان. آه لو أراه. ها أنا هاشم علوش، عليّ أن أدخل بيت الرئيس شهاب مع اثنين من الرفاق وأقبض عليه. أنا هاشم علوش، أوكلت إليّ هذه المهمة، في الانقلاب الذي سننفذه الليلة. هذا الانقلاب الذي سيبدّد اعتقاد الجميع بأننا حزب فاشيستي عندما نرفض أن نحكم بعد نجاح الانقلاب. أردنا نحن أن نخلص لبنان من فؤاد شهاب والشهابية، والعسكر والضباط. هكذا سيكون، ولن نحكم. نريد إعطاء أمثولة بأننا لسنا خلف أمجاد الكراسي. سيحكم غيرنا، لكن الحكم الديموقراطي الذي نريده. إذاً يا حسّان، حماستي وعنادي وطبعي الملحّ اللجوج لم تكن كالغبار. لقد كانت تحفر نفسها في أدمغة المسؤولين في الحزب. ها هم ما أن فكروا في الأشخاص الذين سوف يقبضون على فؤاد شهاب، حتى نبتت الدمغة التي كانت منسيّة في ذاكرتهم. أنا هاشم علوش سوف

أقول لشهاب: «تفضّل معي». بعد أن يكون رفاقي قد قاوموا حركة الحرس الجمهوري وشلّوها. لكن ومسدساتنا في أحزمتنا، ولفائف السجائر بين شفاهنا، كنت لا أعي إلا ودخانها يمرّ من بين شفتي وأنفي... واننا لا نزال ننتظر إشارة الصفر... مرت أمي في بالي لحظة وعادت فامّحت. التوتر كان يسيطر علينا... الاشارة لم نسمعها بعد رغم أن المذياع كان لصق أذني. عندما يعلن المذياع البلاغ الأول ليعلمنا بأن كل شيء يسير على ما يرام. ربما ستتوقف ساعات لبنان كلها عن العمل... ربما ها هي الإشارة، وها نحن نهب ونهجم، رغم أننا لا نزال بعيدين. السيارة التي نحن فيها كانت كشعلة في الصحراء. ظاهرة. رغم أنها كانت عادية الشكل واللون. وأخذت أتلفّت يميناً ويساراً، وأشعر بأن كل عيون البشر تلاحق هذه السيارة، عيون الناس من هنا وهناك رغم أن الطريق تكاد تكون مقفرة. أشعر أن كل العيون تلاحق هذه السيارة كأن أصحابها على معرفة بأنها سوف تأتي بشهاب. صحت بكمال وهو خلف المقود: «انتبه، ما بدنا أكسيدان، نحن بغنى عن هذا. عندنا مهمّة حياة أو موت، وأنت ما عم تعرف تسوق». وما عدت أسكت. العيون كلها على سيارتنا لأن حاجز الجيش الذي حاول ايقافنا ولم ننصع له أخذ يطلق الرصاص على سيارتنا. ماذا جرى، ماذا يجري، لماذا هذا الحاجز المفاجىء ونيران أسلحة الجيش أخذت تتدفق؟ ربما اندفعوا وراءنا. وصرخت: «طير وأوعى توقف». لكن ماذا حدث؟ لقد اندفعت دراجة نارية وراءنا وأخذنا نسمع الزمامير، ولم نعد نفكر إلا في الطيران بهذه السيارة وتكملة المهمة. وسمعت كمال يقول: «ربما كان يجب أن نتوقف، ربما كان تفتيشاً عادياً». وأجبته بلؤم واستخفاف: «تفتيش

عادي! وإذا وجدوا معنا الأسلحة؟. أجاب: «ولك تفتيش عادي، هوياتكم يا شباب، مع السلامة يا شباب، الله معكم يا شباب». لم أجبه. الزمامير لا تزال تلحق بسيارتنا, والتفتّ إلى الوراء وقلت: «طير يا كمال، بدنا نجيب شهاب والسما زرقا، مع أن الدنيا ليل، يللا يا كمال، عجّل يا شوفور، موتورك أحسن موتور». السعادة تغمرني، رغم التوتّر الذي يسيطر على كمال وسائر الرفاق. هذه الليلة حاسمة. لو كل الليالي يتخلّلها هذا الترقّب. هذا التوتّر. سيارة تلحق بنا، زمامير من كل صوب. زمور يلحن: «انهضي، انهضي يا بلادي، جددي يومك للجهاد». هذه التي غنّيناها في الرحلات الحزبية. وقبل أن أفكّر من الذي يضرب بزموره هذا اللحن، توقّف كمال وقال: «ولكم إشارة الحزب» ووجدتني ألكزه وكأنه بقرة وأقول: «هذه خدعة، طير يا كمال، هذه خدعة». لكن السيارة كانت قد وصلت وأطلّ وجه مألوف. وجه رأيناه في أحد الاجتماعات قال ويا ليته لم يقل: «مع الأسف لقد فشلنا، دبّروا حالكم يا شباب. أهربوا». وما عدت أسيطر على سمعي. لا زلت أسمع ضجيجاً وأصواتاً مبهمة اختلطت بزمامير السيارات وبأصوات الطلقات النارية التي أطلقها الحاجز علينا. «فشلنا، دبروا حالكم يا شباب، أهربوا على الشام، ونحن مندبّركم هونيك، تحيا سوريا». اختفت السيارة. التفتّ خلفي أتتبعها. ووجدتني أصرخ بكمال: «ما تصدّق. المهمة سوف ننفّذها. روح عند شهاب، وبس عند شهاب. وحياة أبو خيمة زرقا سوف ننفّذها. روح عند شهاب، في مقعد هالسيارة لح يكون قاعد». لكن كمال توقّف وأوقف محرك السيارة. وجنّ جنوني ووجدتني أفتح باب السيارة وأنزل منه، ثم أفتح باب السيارة الأمامي

حيث كمال وأدفشه وهو يحاول أن يقول شيئاً والتوتّر جعله يعيد الجملة إياها: «بدي أحكي معك حكي منطق وعقل، يا هاشم، يا رفيق هاشم». يدي أنا على المقود وقدمي تضغط على البنزين. ربما تخطيت المئة بسرعة السيارة لأن صوت كمال أخذ يرتجّ كارتجاج السيارة وما عدت أسمع شيئاً بل أسمع زمامير وضجيج انقلاب. والمذياع ما توقّف عن بث برامجه العادية وما سمعنا البيان رقم واحد. فائزة أحمد لا تزال تغني: «يمه القمر عالباب، نوّر قناديلو». لا أزال أسمع الضجيج المتوتّر والعصبيّ هو الآخر. صوت كمال الذي لا يزال يرتجّ: «دخيلك لوين رايح؟ عندك أوامر حزبية بأن ندبّر حالنا، لأن الانقلاب فشل». أوامر حزبية شاطرين بإعطاء الأوامر الحزبية حتى عند الفشل، ما نفعها؟ كيف ما زالوا يصدرون هذه الأوامر؟ عليهم بالانتحار الجماعي. فشل الانقلاب. لماذا يجب أن أعيش بعد هذا الفشل لماذا؟ كنت دائماً أصيح كالديك حول أشياء كثيرة في الحزب. وكان جوابهم وجواب حسان: «اهدأ، لا نريد التهور». وسمعت كمال وصوته، الذي لا يزال يرتجّ مع ارتجاج السيارة: «لا تيأس، الحزب لا يزال في أحسن حالاته، اللحاق بنا واقصاؤنا عن السيارات ونقل خبر الفشل إلينا معناه أن الحزب لا يزال متماسكاً». الضجيج يتوسع، وقدماي تضغطان فوق البنزين. سوف أقتحم القصر في جونية مع أن الإمدادات ربما تكون قد توقّفت. هذه الامدادات التي كان مفروضاً أن تفتح معركة مع الحرس قد توقّفت. واستأنفت سيري حتى وصلنا إلى حاجز قبل ثكنة الجيش. ووجدت نفسي أنحرف بالسيارة فوق طريق غير معبّدة. وجنوني شدّ على البنزين، وجعل السيارة تتخطى المزروعات وحديقة منزل بلا سياج فوق زجاجها زينة

عيد رأس السنة. سحبت مسدسي، وأنا لا أزال أعارك السيارة إلى أن وصلت بها إلى مدخل لا منفذ له. وهنا بدأت أردّ على طلقات الجيش وصوت كمال يقول: «هذا انتحار، يا رفيق هاشم، هذا انتحار. ربما لا يقصدوننا، ربما لا يقصدوننا، ربما يتعاركون مع فرقة أخرى». وأبعدته عني وقلت له: «اتركني. لا تقف أمام ما أفعله». والرصاصات الصادرة من الجيش أخذت تقترب. كلما ابتعدنا اقتربت ولحقت بنا نيرانهم. ولما أصبح بيننا وبينهم بيتان وبعض الأشجار، ارتطمت بضع رصاصات بالأشجار المجاورة. واقترب كمال مني. وها هو كتلة من الارتعاش والعرق وكلماته أخذت تقطع بعضها البعض وهو يقول: «أنا ذاهب يا رفيق هاشم لن أدخل في هذه المعركة الفردية. هذا انتحار». ولم أجبه، لأني لم أشعر بوجوده طوال هذه الليلة. سمعت محرك السيارة يدور. وأنا مشغول بتعبئة مسدسي والظلام يعمّ كل شيء، نسيت أن أفكّر كم أن كمال رغم حذره سوف يقع بين أيديهم لأنه وقع في مصيدة السيارة. توقّف الرصاص. توقّف كل شيء. ربما الحياة أيضاً توقّفت. وبدا كل شيء مألوفاً وطبيعياً. عندما توقّف الرصاص لم أعد أسمع محرّك سيارة كمال. لكن ها أنا أسمع أصواتاً. أصواتهم في الظلام مشحونة بالغضب وهي تسأل: «مين كان معك، جاوب يا عكروت. كم شخص؟». ولم أسمع جواب كمال بل أخذت أسمع صدى ضربات. إذاً لقد قبضوا عليه. إنهم على بعد عشرات الأمتار مني ربما هم ورائي، هذا انتحار. لن أستطيع القضاء على ثكنة برصاصاتي العشرين. ربما عليّ الذهاب إلى دمشق، لنبدأ بتحضير انقلاب آخر يكون أكثر تنظيماً. وأخذت أركض بين الجلالي بين البيوت بين الأشجار أصعد جبالاً وأنزل أودية. «والله يا كمال شو

طلعت مجنون». أخذت أركض دونما توقّف وأجمد عندما كنت أسمع صوتاً. لا، لن أدعهم يقبضون عليّ. لقد بدأت أعرف شيئاً واحداً: الهرب إلى دمشق. وأخذت أدخل غابات ما كنت أتوقّع وجودها في لبنان، غابات شاهقة الأشجار. الطيور وأصواتها المختلفة تجعلني ألتفت عالياً ثم يميناً وشمالاً. لقد ابتعدت عن الضجيج وما عاد هنا سوى الهدوء سوى لا شيء. كأن لبنان والصراع والانقلاب وفشله لا تمت إلى هذه البقعة حتى ولا تعني لها شيئاً. أريد الهرب إلى دمشق حيث لا يستطيع أحد الوقوف في طريقي. لقد فشل الانقلاب، ومعناه أن العودة إلى لبنان لن تكون قبل سنة، سنتين، ربما لهذا دخلت مرة أخرى إلى غرفتي أودعها. ربما لهذا أعطيت شقيقتي وفاء الليرة ثم الأخرى. ربما لهذا قبّلت أمي وشددتها إليّ.

بعد سير ساعتين، أخذت أنحرف وأنزل صوب أضواء السيارات أنزل بين الصخور مخلفاً ورائي الأشجار الشاهقة وصمتها الذي كانت تقطعه أصوات الطيور. السيارات لا تزال تروح وتجيء رغم هذه الساعة المتأخرة من هذا الليل. إنها ليلة عيد رأس السنة. كنت أنزل المنحدات ولا أفكر إلا أين أضع قدمي. على أي حجر, وكيف أثبت توازني فوق الصخور الرملية التي ما أن أضع قدمي عليها حتى تحدث انهياراً. كانت الأشواك بدأت تنغز قدمي وتصل حتى منتصف فخذي. لا أزال أنزل وأنا أفكر في موضع قدمي فقط. إلى أن سمعت ضجّة خلفي. والتفتّ وما رأيت شيئاً. وفوجئت بالأرض المعبّدة. كانت على بضعة أمتار مني. خفت وأنا أفكر: بعد ثوان أغادر هذه الغابة الآمنة. سأصبح فوق الإسفلت،

قبل ثوان كنت أفكر في الأشواك التي أدمت قدميّ. أما الآن وأنا فوق الإسفلت، فسأفكر في الاختباء، كيف والاوتستراد واضح وعريض. وقبالته البحر، والسيارات المسرعة وكأنها تيار مياه معاكس. وأخذت أسير على طرف الأوتستراد؛ وخطواتي تنتقل بين اسفلته تارة وفوق العشب تارة أخرى. كنت أسير إلى جانب الغابة حتى إذا ما داهمني أحد، عدت إليها. رفعت ياقة قميصي وخبأت كفي في بنطلوني وكان البرد قد بدأ يلسع وجهي. سرت أصفر لحناً وكأني في ألف خير وفي سلام مع نفسي ومع العالم كله. زمور بوسطة حرّك نبض قلبي. ثم توقفت البوسطة على مقربة مني ونزلت منها امرأة ومعها طفلان ورجل. أخذ رجل ينزل أغراضاً من على السطح. ثم نزل وسمعته يقول للبوسطة: «الله معك». ولماهمّت البوسطة بالسير وجدت نفسي أركض مثبتاً قدمي الأولى على درجاتها، ثم الثانية تماماً كما كنت أصعد والترام الأخضر يسير.

تركت الوطن وأنا أفكر: هل فعلاً عندنا جيش وعسكر، في استطاعتهم إلقاء القبض وتدبير الخطط ومعرفة كل أفراد الحزب وملاحقتهم؟ هل هناك محقّقون؟ هل نحن دولة حقيقية في المداهمة والملاحقة حتى في التهديد والضرب! أتمنى أن يأخذوا مسألة الانقلاب كما تأخذه أية دولة، لا كما تأخذه أية قبيلة. وشعرت برغبة في البكاء وأنا أتذكر المديرية. سريري وفوقه صورة سعادة وكلماته أينما كان وخطوات والدتي بشحّاطة البيت ذات الميلات الحديدية التي أخذت تدق فوق البلاط في سيرها من المطبخ حتى الغرفة بعدما كنت منعت الجميع من الظهور طيلة الاجتماع وها هي والدتي لا تنتظر حتى ينتهي الاجتماع. إن الوطن حانق علينا الآن، وها أنا أنظر إلى البحر

والأودية والجبال حتى الهواء. إنه لا يستطيع أن يحنق. الذين حوله حانقون. لكن هؤلاء يجيئون ويذهبون ويتبدلون. إنهم ليسوا الوطن. هو للذين يحبونه ويفكرون به ويتفاهمون معه وله. لذا فهو حانق الآن علينا لأن انقلابنا قد فشل. كنا نودّ أن ننشد أن نمسح بندى الفجر الغبار المتراكم فوق وجهه من الإهمال والنسيان وفي الوقت نفسه أن نضمد جراحه من كثرة ما استعمل سوءاً. يا حسان لم يعد دخولي الحزب لأجل الأشياء التي كنت محقاً في بعضها. أنا الآن معه بشكل آخر بل باندفاع آخر. هذا الوطن الذي رأيته يبكي يوم الانتخابات لكثرة ما رأى من أموال تحشر في جيوب الأبرياء الأغبياء. وأنا بكيت عندما أخذت جارتنا مع أمي حتى تنتخب أديب قدورة وللحظة اختفت جارتنا، سحبها أحد الرجال. رغم أنها كانت تتكىء على عصاها وعلى كتف أمي لكنه سحبها وأدخلها غرفة الاقتراع. وأنا أمسكت بأمي أسحبها وأركض بها وراء الرجل. لكن فقدت أثرها. ولما خرجت وفي يدها الخمس ليرات نزلت دموعي وأمي تقول لي: «يا هاشم يا حبيبي، ولو الرجال ما بيبكوا يا أمي». ورأيت وطني يبكي في كل مناسبة حتى في عيد استقلاله وجيشه يستعرض ودبابته القديمة تستعرض والعنزة التي تسير بغباء تستعرض. يا حسان رأيته يبكي كل يوم كل دقيقة في دوائره الحكومية والخاصة. في فناجين القهوة والجرائد اليومية، حتى في السجون وخارجها. في الفضاء وفي الأماكن التي لا تصلها سيارة. إنه يبكي بمرارة أحياناً، كان يغمى عليه والمسافات النائية يحركها الهواء وهي تجيبه بزفرات وشهقات بكاء. فوق أسرّة المستشفيات وفي الأعراس وفيَ صمت المقابر حول أعشاب المقابر ربما كان هنا يصمت فقط. ربما كان يبارك الموت دون أن يعرف

الموت. دون أن يعرف ما هو. يا وطن، يا حسان حتى أنت كنت مواطناً من الدرجة الثانية أو الثالثة رغم شهادتك. لم يكن في وطنك مؤسسة تدخل فيها بعد تخصصك. واضطررت إلى الهجرة حيث أنت الآن اليد الثانية لحاكم ذاك البلد. وطنك بل الذين يحيطون به هرّبوك منهم خافوا من علمك وذكائك، لم تستطع أن تدخل أسوار معابدهم لأن جيوبك لم تكن منتفخة وأبوك ليس بزعيم يقولون له ما أن يلمحوا طربوشه: «يعيش يا يعيش يا.» كان كل شيء مسدوداً أمامك إلا إذا أردت وظيفة وجلست خلف طاولة كالذي يجلس إلى جانبك في الغرفة ذاتها، والذي ما دعست قدماه حتى قرب جامعة أو مدرسة. أعرف وأنت تعرف محمود، لقد أصبح مسؤولاً كبيراً عن الأمن في المطار رغم أن أخاه كان ولا يزال يوقف بقراته ومن على حماره يصيح من الخارج: «النامط هون» والرقيب يطل ضاحكاً ويقول له: «قول الضابط مش النامط». وأخ محمود يضحك ضحكته البلهاء ويضرب الحمار بقدميه الحافيتين والرقيب يردف: «أخوك محمود صار قد الدنيا، مش كيف ما كان، وأنت لازم لما تجي تزوره تلبس ثياب مرتبة، نظيفة، وتمشط شعرك، وتجي بلا حمارك وتدق عالباب مش تصرخ من برّه ولازم تقول حضرة الضابط هون؟». وأخو محمود لا يزال يضحك ضحكته البلهاء، والرقيب يضرب كفاً على كف بغيظ ويتمتم: « يا حرام الشوم». وصار محمود بين ليلة وضحاها ذا مركز مهم في المطار، بعدما تزوج ابنة أخ فلان الفلاني. آه يا وطن، يجب أن نفعل شيئاً وقد حاولنا وماذا كانت النتيجة؟ ها أنا أريد أن أجتاز الحدود، حدودك. أودّ لو يودّعني أي إنسان. إذا قرفصت وانحنيت حتى لامس وجهي التراب وانغمست جبهتي بذراته وذاقت طعمه هل

هو يودعني؟ هل يستطيع توديعي إذا عانقت الشجرة عناقاً مريراً وظن من يراني أني أحفحف أسفل جسمي بها بعدما طارت النساء. وإذا شممت رائحة خشبها هل يعني هذا أنها تودّعني؟ وتبقى الأشياء الحميمة التي يجب أن تودّعني. الكلمات، صدى الكلمات، والخطوات التي كنت أسير بها وبنطلوني القصير وتمدّدي على السطح عارياً بناء على نصيحة الطبيب. كانت الشمس يجب أن ترى جسمي كله. في الصيف كنا نذهب أنا وأمي وأختي وفاء إلى ضيعة قرب شتورة بناء على نصيحة الطبيب لأني كنت أسعل سعالاً متواصلاً. وما كنا نستطيع أن نذهب إلى الجنوب، لأن رائحة غرسات التبغ الخضراء كانت تهيج أنفي. أذكر أني كنت أخاف النوم كلما بدأ السعال. لأن نفسي كان يتوقّف. وكان الموت بالنسبة إليّ هو إغماض العينين والنوم. كيف أودع الوطن؟ هل إذا ودعت كل أبنائه فرداً، فرداً، وصافحتهم وقبلتهم وشددتهم إلى قلبي أسمي هذا وداعاً؟ وتبقى الذكريات الحميمة التي يجب أن تودّعني. عندما نهضت يوماً ووسادتي عليها بقع دم حمراء فاقعة ناديت أمي التي لما وقع نظرها على بقع الدم لم تر إلا الموت لها ولي. غير الموت، كان الجنون. ورأيتها تولول، وتندفع نحو الشرفة، وخالتي تهدئها وأمي تقول: «دخيلكم، وين أبو هاشم ابعتوا خبّروه». وكنت أسمع أمي تقول بين ولولاتها: «بدي موت ولا شوفو ببحنّس». بعدها، بعدها ربما بسنوات، عرفت ما قصدت هي بكلمة «بحنّس» عندما جاء خال أمي مهدي من الجنوب ويده على بطنه. لما كنا نسأله: ما بك كان يقول: «في بطني حية، بلعتها وأنا أشرب ماء النهر من إبريق فخار. ربما كانت هذه الحية فرخاً لأني لم أشعر بها وقتها، بس عم تكبر وتكبر وعم تلفّ

وتتحرك». كان عندما يـزورنا خـالي مهدي كـأن مجموعـة كتب نوادر تزورنا. قصصه تجعلنا لا نتوقف عن الضحك. فقد كان لا يرضى أن يدخل البيت إذا لم تكن أمي موجودة، بل يبقى على الدرج بين صرر القماش العديدة. وكان بلا أسنان لذا عندمـا نقترب منـه ونسـأله كل واحد بدوره حتى يحزر من نحن، كان يتلعثم ويحاول الإجابـة وكانت صعبة، لأن أولاد الجيران كانوا يشاركوننا عندما يزورنا خالي. وعندما يحاول الإجابة كان يفرج فمه عن ابتسامة، حـين نرى لثتـه الفارغـة تماماً من الأسنان، كنّا نضجّ بالضحك. ونضحك أكثر عندمـا يبحث عن عصاه ليضربنا بها ونكون قد خبأناها فيبدأ بشتمنا محـاولاً اللحاق بنا بعد أن نخطف صرره أيضاً وعندما ييأس كان يبصق علينا قائـلاً: «الشـوم عليكم» وكـانت حفلة السعـال تبـدأ أيضاً. كنـا نـظن أنها وصلة مفتعلة لكن خالِ أمي كان يشكـو من السلّ دون أن نعـرف. وقضى آخر أيامه في بحنس.

وتكـبر الذكـريات عنـدما تغـادر الوطن. تصبـح في الماضي، وأنـا أريـدها حيّـة دائمة، تلمـع كلمعان صـوري مع أولاد أختي: زهـرة وأحمد في شاغور حمانا. وقفنا نمد أيدينا إلى المياه البـاردة، التي طعمها على فمي حتى الآن. والممحاة التي أخـذت ثمنها مئـة مرة ولم أشـترها رغم تهـديد المعلمـة بطردي من الصف، إذا أنـا لم أجلب ممحـاة. في اليوم التالي حين رأيتها تدور بين المقاعد والـطاولات الخشبية، لتتـأكد من وجود ممحاة على كل طبقة، أوشكت أن تصل إليّ مددت يدي إلى طـاولـة من جـــواري وخـطفت الممحـــاة وعضضتهـا بـأسنـاني، ككلب يقضم عِـظمة. ثم قـطعتها قـطعتين ثم رميت بـواحدة إلى صـاحبهـا الذي فتح فمه من الدهشة والغيظ. هل أستـطيع أن أنقـل هذه معي

إلى دمشق إذا جلست مرة واستحضرتها أو استحضرت في ذهني عبد الله الحشاش الذي يحدث نفسه ويدخن الحشيشة ويتشاجر مع أمه، أمّ خير الله التي ناهزت المئة؟ وكانت عينا عبد الله تذوبان كلما رأى امرأة، يتأملها بحنان ويقول لها: «إذا رضيت بالزواج مني لح لبسّك الألاميز». وكنا نسمع أن والد عبد الله كان يملك كل بنايات باب إدريس، لكنه خسرها واحدة بعد أخرى، عندما أرسل ابنه الكبير خير الله إلى أميركا حتى يعود طبيباً. وما عاد سمع أو عرف عنه شيئاً. انقطعت أخباره ما أن ركب الباخرة وأشار بقبعته الجديدة إلى أبيه وأمه وأخيه عبد الله مودّعاً. قالوا بعدها إن الأب أخذ يقامر ويشرب الخمر ويأتي بالنساء على مرأى من أمّ خير الله، بينما هي كانت منهمكة في زيارة البصارات والبراجات وعلّام الفلك والمنجمين. ولم أتأكد من صحة هذه القصة، ولم أحاول، بل كان اهتمامي واهتمام كل الصبيان في الحي تدبير المقالب لعبد الله، والضحك على عبد الله، خاصة إذا استطعنا استفزازه لدرجة أن يمد يده إلى أعلى شاتماً ربه وكما أن عبد الله كان يضعنا في حالة ضحك وقهقهة، كان أيضاً يجعلنا نرتجف من الخوف، الخوف الكبير على حياتنا إذا ما هو أمسك بنا عن حنق، كتلك المرة عندما نقلت فراشي إلى السطح بعدما أصبح البيت كفرن حرّ ورطوبة معاً وبعدما ذهبت أمي إلى الجنوب لزيارة والدي. كان صبيان الحي يأتون إلى السطح ابتداء من بعد الظهر حتى الليل. كنا نجوع وكنت أنسى أن البيت تحت هذا السطح بل كنا نجلس جائعين ننتظر الفرج ونلاحظ المارة ونتسلّى بمراقبة عبد الله ويده تتحدّث معه ورأسه منحنٍ على صدره وصوته يرتفع. بدأنا يومها بالصهصهة، لأننا وافقنا على الخطّة

بصمت. نزلت سلّم السطح الخشبي وخطفت تنكة النفايات التي تخصّنا ثم عدت بها إلى السطح. وبدأنا شيئاً فشيئاً نرمي محتوياتها وهو لا يزال يجلس القرفصاء على عتبة بيته غير مبال. لما أخذت البندورة المهترئة تطير من حوله مع قشور الليمون نهض وأخذ ينظر حوله ثم إلى أعلى، وكأنه عرف أنه المقصود، لكنه لم ير شيئاً، لأننا تمدّدنا على الأرض. زحفت إلى الناحية الأخرى ومن خلف حبل الغسيل المنشور، رأيته وقد عاد إلى جلسته عند العتبة، أعطيت إشارة للصبيان فبدأوا يرمون محتويات تنكة النفايات بسرعة وأنا خلف الغسيل المنشور، أمد برأسي لأرى عبد الله، وقد طار صوابه، وصوته أخذ يلعلع شاتماً ربه والخليقة كلها. ما أن لامست علبة التايد وجهه حتى رأيته ينظر إلى أعلى ويعدو. أخافني غضبه، وفي الوقت نفسه لم أكن أستطيع التوقّف عن الضحك. أسرعت أتمدّد مع الصبيان في الفراش بعدما حبسنا أنفاسنا. ثم وأنا مغمض العينين شعرت بعينين تحدقان فيّ. وحبست ضحكتي وكان ذلك صعباً. وسيطرت على أنفاسي وأنا أتنفّس كالنائمين فعلاً، وأراد عبد الله الحقيقة، لم يقتنع ببراءتنا ولا تظاهرنا بالنوم وظل واقفاً. كنت أسمع لهاثه من سرعة تسلّقه السلالم. مع أني لم أسمع وقع خطواته فوق السطح. يقترب ويقرب وجهه مني كان يعرف أنني العقل المخطّط بين الصبيان. بدأت بالارتعاش وأخذ قلبي يدق ورحت أفكر في اللحظة التي ستمتدّ فيها يد عبد الله وتخنقني. وكانت أمي دائماً تنبّهني أن لا أستفزّ عبد الله لأنه مجنون. ظللت مغمض العينين إلى أن يئس عبد الله وسمعت خطواته تبتعد وفتحت عيني ولكزت الصبيان الذين جلسوا مثلي بصمت.

ترى، هل هذا الذي أذكره هو جزء من الوطن؟ فأنا أستطيع أن أنقله معي، كما أنقل يدي وجسمي. ربما الوطن هو الحاضر مع الماضي أيضاً. هو الروتين، لا تستطيع أن تحب وتتعود روتين الأيام إلا إذا كانت حقيقة وهي حقيقة فقط في وطنك، روتين البلاد الأخرى يبدو أنه لقضاء الوقت ريثما تعود إلى الوطن. كل ما تفعله في الوطن له قيمة. له وقع. لأنك أنت ابنه وهو أبوك وأنت تطلعه على ما تفعل. ويبقى جارك، ويبقى جزارك، وبقالتك، وسائق الأوتوبيس. ترى لو جمعتهم كلهم حتى الذين تصادفهم في الشارع كل يوم لا تعرف أسماءهم، ترى لو جمعتهم كلهم وأتيت بهم إلى مكان يشبه وطنك وأبتدأتم بالحياة ماذا تكون النتيجة؟ هل عدت إلى الوطن؟ أو عاد الوطن إليك؟ لا. ها نحن نجلس قرب البحر، الذي يشبه بحرنا، صوت الأمواج نفسه، وارتطامها بالصخور وبجرفها الحصى، وبتركها الرمل مبلولاً. ها نحن فوق جبل عال حيث صرصار الغابات والقرميد الأحمر، ها هي البقرات والمرأة تحلبها في السطل ذاته. ها نحن في شقق واسعة، شقق ضيقة. حتى القماش نفسه فوق المقاعد والأسرة. لا. ها نحن نجلس جميعاً ونتحدث عن تلك الأيام، نتكلّم عن هؤلاء الأشخاص مع أنهم جالسون معنا.

ها أنا أودّ أن أكون قريباً من مساكب الحبق حول خيمة والدي في الجنوب. من مجلات المصارعة ومجلات الجنس تحت وسادتي، من بلاط المطبخ ذي اللون الباهت. عندما كنت أقول لهم هذه الأشياء هي الوطن، كانوا يضحكون. لا تضحكوا يا جماعة، لا أستطيع أن أعتاد على غير وطني، حتى نكهة الفاكهة مختلفة. أنا أفكر كالبنت يا

جماعة؟ أفكر كالبنت؟ هذا رأيكم. أريد أن أفهم هل الأحاسيس الصادقة هي للبنات فقط؟ الظاهر لن نتفاهم يا جماعة.

إلى متى سأبقى في أفريقيا ألهث في فرن لا رائحة للخبز بين جدرانه السوداء، بل أشمّ رائحة رطوبة انسلت حتى في أوردة الأشجار والأحجار، حتى في خيوط العناكب والأجسام السوداء الناعسة دائماً، والنظرات الذليلة المكسورة المرعبة تحيط بي وبأفريقيا كلها. عندما ألتقي لبنانياً قد أتى لتوّه هنا، ألاحظ أن رائحة الرطوبة اختفت، وأن كل شيء يلمع ويبرق تحت الشمس. حتى أنفاس الصباح تبدو واضحة ومسموعة. لكن بعد أيام تمتدّ الرطوبة شيئاً فشيئاً إلى القادم الجديد فتغمره كله ويصبح من إفريقيا ولها. كان هذا الإحساس يكبر معي ويزداد انكماشي على نفسي كلما اجتمعت باللبنانيين أفراداً أو عائلات. أحاديثهم وحتى ملابسهم كانت تضايقني وتجعلني كالأحمق أحاول تجاهل أنفاسي المتوترة. بل كنت أذهب إلى أبعد من التجاهل أحاول أن أهدىء لساني خوفاً من أن يزل بكلمات غاضبة. أحاول تذكير نفسي أنني هنا في ظلّ ظروف أخرى، فأنا هارب وملاحق. أنا في نظر القانون متآمر وشقيّ. وهم جاؤوا لأجل اللقمة. بعد سنة هم هنا لأجل المال والتباهي. بعد سنوات هم شروش في هذه الأرض لأجل البنايات الشاهقة ولأجل شراء نصف البحر الأزرق. كانت مقاعدهم المنقوشة تثير حنقي كان أكلهم يثير حنقي وكان محطّ كلامهم كلمة فرنسية وحيدة (بون، بون) تضغط على قلبي. اهتماماتهم واحدة: جمع المال، وأكل الكبّة، ولعب الورق. حتى الرفاق المنتمون إلى الحزب هم أيضاً من صنف الـ «بون، بون» والمال وأكل الكبّة بالإضافة إلى كلمة أنا سوري قومي.

بين تحقيق آمالهم المالية لم يعيشوا ولم يكتشفوا افريقيا. قلت لهم هكذا في اجتماع للحزب. سألتهم لماذا لا يقرأون الكتب، لماذا لا يلاحقون الأحداث، أحداث الوطن وأحداث العالم. لماذا تعلموا كلمة «بون» فقط وما أضافوا إليها شيئاً؟ كان ماجد الوحيد الذي لم يسبِّب حنقي.

أخذت علاقتي به تزداد وثوقاً واكتشفت من خلال أحاديثه ما معنى الاحتياج وما هو الاغتراب، في عين المغترب الذي اختار هذا من تلقاء نفسه. الجنوب، قال ماجد لي يوماً «ذباب وغبار. كان عليّ السفر إلى إفريقيا بالذات. كنت أظن قبلاً أن إفريقيا هي الالماس المشكوك بأغصان الأشجار، المطمور تحت رمال التلال كما كنت أحلم أن السعودية ساعات ذهبّية مطروحة على الأرض». لكن اتضح له أن إفريقيا كالسعودية، كبقية بلاد العالم، عليك أن تشتغل وتكافح حتى ترى من خلال غمامات العرق والإرهاق الساعات الذهبية والألماس! حاولت بعلاقتي مع ماجد أن أقنعه بتطبيق نظرياتي بالنسبة إلى طريقة عيشه ومحاورته مع إفريقيا. لكنه كان يفكر في الزواج قبل كل شيء معللاً أنه لا يريد أن يتورّط مع زنجية. ربما كان قد سمع بعلاقتي مع الزنجيات لأنه حاول أن يبرّر قوله هذا عندما قال لي فرحاً إنه أبعد عني تهمة علاقاتي مع الزنجيات بإطلاع الآخرين على سرّ الرسائل التي تأتيني من لبنان. وأنا أتجّه صوب النافذة. فكرت. رسائل؟ رسائل مَنْ؟ آه. هذه الرسائل من ابنة أختي زهرة هي الرسائل الوحيدة التي تربطني بالوطن. وتركني ماجد ممدداً فوق الكنبة أفكر في رسائل ابنة أختي وورق الرسائل اللبناني القديم في الذاكرة. زهرة الوحيدة التي تخبرني بما يجري في لبنان وضمن العائلة كانت رسائلها جميلة رغم أنها حزينة. لا أعتقد أنها تذكرني، فأنا لا أذكرها جيّداً، ربما كانت في

العاشرة من عمرها، عندما تركت لبنان. كنت قد طلبت منها أن ترفق رسائلها بصورتها لأني كنت أود التأكد لمن أكتب لكنها لم تفعل ذلك. ولا أدري لماذا أخذت هي المبادرة بالكتابة إليّ، رغم فرق السنّ بيننا. كلما فضضت رسالة منها كنت أسأل نفسي قبل قراءتها وبعدها ترى هل تعرف زهرة أنها برسائلها تربطني بالعائلة وبالوطن؟ ماذا جرى للأهل والأصدقاء والرفاق! السنوات تمضي وما عاد هناك أيّ خوف من مراسلتي. الحكومة اللبنانية لم تأت بي من إفريقيا والسفير وكل من يعمل في السفارة على علم بوجودي. لقد كتبت للأهل وللأصدقاء الرسالة تلو الأخرى. تحمّس معظمهم في البداية لإجابتي لكن برسائل مختصرة وبعدها انقطع الجميع عن الكتابة. هل هذا التصرّف إهمال؟ عدم محبّة؟ أم انهم في استقرار نفسي يجعلهم في غنى عن كتابة وتلقي الرسائل؟ ترى هل كانوا ينهون قراءة رسائلي؟ لا أعتقد. فأنا أقصر رسالة أكتبها هي عشر صفحات. هذا معناه أني في حالة قلقة. ربما زهرة مثلي، لذلك فهي تكتب أيضاً الصفحات تلو الصفحات، عن مواضيع شتّى اجتماعية. الحزن يحتلّ جملها غير الواضحة المكتوبة بتفكير ومنطق ساذجين. لم تكتب لي يوماً عن نفسها رغم أني طلبت منها أن تصف لي حياتها، وأن تكتب لي عن كل يوم تمضيه في بيروت، حتى أستطيع أن أجمع بقبضة يدي مجرى الحياة هناك. كي أندم، لبعدي عنه ولا أندم. لكن كأنها لا تقرأ رسائلي فهي لم تجبني يوماً عما أطلب منها بل تكتب وتكتب عن المواضيع ذاتها. عدا مرة واحدة أجابتني عن سؤال كنت قد وجّهته إليها قبل سنة إذا كانت تحبّ زيارة إفريقيا، وجاءني جوابها عبارة عن جملة واحدة: «والداي رضيا بسفري إلى إفريقيا». وكنت قد لاحظت

من لهجة رسائلها القصيرة في المدة الأخيرة أنها لم تعد تكلّمني إلا عن «اليأس والموت اللذين هما أعظم راحة وسعادة يصل إليهما الإنسان» ولاحظت كم كان تعبيرها عن هذا الموضوع ساذجاً وسطحياً. حاولت أن أسألها عن سبب أحاسيسها هذه وعن مشاكلها وعندما لم أتلقّ جوابها كتبت إلى أخيها أحمد أسأله أن يعتني بأخته زهرة ولم يجبني أحمد قط على رسالتي هذه.

ما كنت أظن في بادىء الأمر أني سأتغلّب على الحر لكن ما أن أفتح باب المنزل وأراها حتى يهيمن عليّ شعور بأني وقعت في الفخّ. فالشمس التي هي غير مستديرة في إفريقيا، حولها خيوط أشعتها مختلفة الطول. هي كتلة تتشعّب منها ألسنة النار يميناً، شمالاً، نزولاً صعوداً، ما أن تصلني حتى تبخّ نارها. كنت أظنّ أني سأتغلّب على الحرّ وسأسير حتى ساحة المدينة. أنتقل من دكان إلى آخر لعلي أصبح إنساناً آخر. يفكر يقرأ ويتقن لغة. ها هي المكتبات فارغة ها هي كتلة النار لا تزال تسبح في مكانها الواحد الثابت. ها هو كل إنسان هنا يعيش لحظته وينتظر لحظة تطأ قدماه الطائرة الذاهبة إلى لبنان. ها هي البيوت غير مريحة. وها أنا أيضاً قد انتقلت إليّ العدوى وكأني في محطّة قطار بلا جوانب وبلا جدران. كتلة النار لا تزال تلسعني ثم تطفئني برطوبتها. ها هي المطاعم الثلاثة تئنّ من الوجوه ذاتها، من الطعام ذاته، ومن الحالة المؤقتة. كيف أتطّور في هذا البلد، كيف أعود إلى لبنان وأنا أعرف أن أناقش وأقنع حتى وأفرض حزبي على كل من ألقاه، كيف أصبح «هاشماً آخر» يحركه منطقه قبل عصبيته، كيف وأنا لا ألتقي إلا أصحاب كلمة «البون» وآكلي الكبّة والمال المال؟ أين الكتب أين الهواء أين الاستمرارية أين التفاصيل التي

تكونك والكتلة النارية هي التي تسمع ولا تجيب ولا أحد يمر بخاطره سوى الغد، بين أجنحة طائرة ذاهبة إلى لبنان.

حاولت أن لا أستسلم لكن هذه المدينة الإفريقية فارغة إلا من الازدحام والضجيج وأصوات ورق اللعب المرميّة على الطاولات وأصوات اللاعبين، وأصوات الطرح والجمع، تختلط بأصوات الزنوج السكارى في خيم القصب. يوم صدر أمر تعييني وأصبحت المسؤول عن الحزب هنا، تمرّدت على هذا المنصب الذي اشتهيته في الماضي. كان تحضير الاجتماع امتحاناً يبرز معرفتي وجهلي. كنت أتمنى لو أنني أستطيع أن أسيطر عليه من خلال حبّي واندفاعي للحزب. كنت أتمنّى لو أن كل شيء يشرح من خلال العاطفة لا من خلال المنطق والحجج الفلسفية لكن اكتشفت أن هذا المنصب لا يحتاج إلى التحضير، فجميع المنتمين إلى الحزب لا يهمهم الاستفهام ولا المناقشة، كان انتماؤهم إلى الحزب كانتمائهم إلى نادٍ جديد. في البداية كنت أنتظر الاجتماع الاسبوعي بفارغ صبر، ولم يكن لحظة كاجتماعاتنا في لبنان. إذ الاندفاع هنا كانت تطفئه كتلة النار برذاذها الرطب، وكان الإحساس بالحالة المؤقتة يشلّ أجسام الرفاق وعقولهم. وكان سؤالهم الدائم إذا كانت اجتماعاتنا كاجتماعات بيروت، وإذا كنا على علم بكل ما يحدث هناك. أهزّ رأسي بالإيجاب، بينما نظراتي تحوم حول بطونهم المندلقة أو المسلولة وعلى جبهاتهم اللامعة من رذاذ كتلة النار الدائمة . وكنت أستغرب أسئلتهم هذه، بينما الأخبار هي واحدة حول الحزب في لبنان كله، لا في بيروت. الضرب بكل الوسائل الحديثة والقديمة. التعذيب أيضاً والتحقيق بدقّة. فجأة تحوّل النظام المهترىء المتفكّك الذي نودّ قلبه إلى نظام متماسك جامد

في وجه كل الأعاصير. فجأة تحّول أشباه الأقزام إلى حكّام على مستوى الحكومات وكلمة السيادة المطلقة. نعم كل ما يجري في لبنان تعرفونه، وتمرّ في خيالي صورة رأيتها في الجريدة لرجل طافح الوجه في حفلة ساهرة خلف طاولة وقربها صورة رجل متكوّم على الأرض، مضمور الوجه، وكأن عافيته سحبت في حقن ثخينة. الرجل كان على الأرض ويده مكسورة أثناء إلقاء القبض عليه بتهمة التآمر. لكن عرفت فيه الرجل الطافح الوجه في السهرة. العينان؟ كلّ شيء تبدل من صورة إلى أخرى، إلا العينان الجريئتان الواعيتان والمتوسّلتان لشيء واحد: «آه متى ستفهمون؟» هما هي أخبار البلاد، كلها بحذافيرها، قصّة القبض على أسد الأشقر المتسلسلة ومحاولة هربه. وأنا بينكم وبين ركّاب البوسطة التي هربت بها إلى دمشق، وبين الأشجار التي أستطيع أن أشمّ رائحتها الآن وفي فندق دمشق والعصا، والنظارات الطبّية الزائفة وبين إعجاب الرفاق بي وتسميتي البطل بسبب الطريقة التي هربت بها. ونقمتي كانت تزداد. نقمتي على الحياة المؤقتة والرفاق المؤقتين والاجتماعات المؤقتة، وكوني هنا في هذا الجو، الذي مهما حاولت أن أضيف إليه، كان وسيبقى جوّ الجليد فوق بحيرة مياه ساخنة. طريقة هربي جعلت مكانتي في الحزب لا بأس بها. وهذه المكانة استقطبت احترام الجميع خاصة من في إفريقيا، ومع قدومي كأنه تم ظهور المهدي المنتظر. كانت الولائم والدعوات واظهار الاحترام والتقدير حتى بالكلمات تحيط بي من كل جانب وكل كلمة أنطق بها كانت تقابل بالاستحسان والإعجاب وهزّ الرأس وكلمة «بون، بون» من بعدها. هذا في البداية. لكن عصبيّتي بدأت تظهر، كذلك تسرّعي في أخذ القرارات. كوعدي مرة لرفيق

عُذِّب شقيقه الضابط حتى القتل والاختفاء، أننا في أول فرصة نعود بها إلى لبنان سنغتال هذا النفر الذي أمر بتعذيبه. وأخذت أضع على الورق طريقة الاغتيال، وكانت أولاً بإطلاق الرصاص. ثم عدت أغير رأيي بالنسبة إلى رميه بالرصاص عندما تذكرت أن أفراد الحزب سوف يلاحقون ويعذبون أكثر. لذا كان القرار الثاني وهو نسفه مع سيارته. هذا التفكير الذي عرف به معظم أفراد الحزب اتهموه بالفاشيستية. لم يصدق معظمهم أني أقصد ما أقول. ولما وقفت وقلت لهم: «ألم يعذّب الرفاق؟ ألم يجلدوا؟ من هم الفاشيستيون، نحن أم هم؟». يبدو أن تهوّري أخذ يزداد تحت وطأة الحياة هنا. وحتى المنصب العالي الذي منحني إياه الرفيق صاحب معامل القهوة، أخذ يزحزحني عنه شيئاً فشيئاً بلباقة وديبلوماسية إلى أن وجدت نفسي محاسباً بسيطاً في تلك المعامل. لكن صورتي ظلّت هاشم البطل. وبقيت هذه الهالة حولي خاصة بين صغار السن، وبقيت الدعوات الكثيرة توجه إليّ. أخذت أعتاد الحياة هنا ولم يعد إلقاء المحاضرات هو شغلي الشاغل. لم أعد ناظوراً على اللبنانيين وكيف يجب أن يعيشوا. بل انغمست في حياتهم، خصوصاً بعدما أخذت الرسائل بيني وبين الوطن تنقطع، وبعدما بلغني أن العودة إلى لبنان قبل ذهاب الشهابية هي غير معقولة. صار الجلوس حول طاولة القمار والورق أمراً عادياً. والاستماع إلى قصة فلان وفلانة مقبولاً. وأصبحت أجد لذة في الدخول في تفاصيل، لم أكن أتوقف عندها قبلاً. صرت من آكلي الكبّة. حتى أن كلمة «بون» تعوّدها لساني ولم تعد تفارقه. المال، صار ممكناً ما دمت أنا هنا بضغط الظروف. الحياة أجمل في لبنان. وكان خيالي وآمالي تلاحقان دائماً أجنحة طائرة ذاهبة

إلى لبنان كل يوم. كل ليلة. وكنت أحلم بالحب وبالزواج أيضاً كل يوم. كل ليلة.

غداً في الوطن، ولا شيء سوى الوطن. الحياة سوف تتوقّف وسأعيدها في الوطن. ذكرت مرة في رسالة إلى زهرة أسألها إذا كانت تعرف صديقة تحب المراسلة. وكالعادة لم تجبني على طلبي. عندما تأتي سأسألها، وألحّ عليها أن تعرفني على شابّة لبنانية، رغم أن الفرنسيات هنا جميلات وجذّابات لكن أريد مَنْ تفهم رنة صوت «لمن الحياة يا أبناء الحياة» ومن تفهم ضرورة «سوريا الطبيعية»، ومن تقدر صوت فيروت في أغنية «سنرجع يوماً» ودلعونة صباح، وأوف وديع الصافي. إذ الإفريقيات هنّ الشفاه والجنس فقط. ولامني الأصدقاء عندما امتدّت علاقتي بإحداهن حتى عبرت السرير والغرفة وما فهمت في بادىء الأمر سبب لومهم لي. كان اللون هو السبب، لونها يقلل من قيميتي ولن ترضى أن تتزوج بي أي لبنانية إذا عرفت بهذه العلاقة. منذ ذلك الحين أخذت علاقتي مع الزنجيّات لا تعبر السرير والغرفة. عندما تصل زهرة اليوم إلى افريقيا سيعمّني الحزن لأنها هي علاقتي الوحيدة بالوطن. الحزن سيكون هادئاً وخفيفاً لأن قطع علاقتي بالوطن سيكون لمدّة معينة. يبقى اسمي المحفور على شجرة في ضهور الشوير يستند إليها عرزال الزعيم سعادة. ولا يبقى شيء غير هذا بعد السنوات الطويلة. لا يعود الفراش فراشك. الشراشف ما عادت رائحتها رائحتك. تبقى كتب المدرسة ولا أظنّ أنهم حافظوا عليها. ربما الحديد الذي كنت أرفعه لا يزال خلف موقد الحمام حيث كان موضعه الدائم. وما تبقى جرفته معها رائحة الطبخ واستمرارية الأيام. اليوم ستصلني أخبار الوطن طازجة. أرجو أن تكون زهرة على

علمٍ بمصير كلّ الرفاق الذين سألتها عنهم في رسالتي الأخيرة، وكان طلبي الوحيد رداً على سؤالها «ماذا تريد من لبنان» وكانت تقصد «الفطائر بسبانخ» التي كانت أمها مشهورة بإعدادها، والتي كانت دائماً تحاول رشوتي بفطائر السبانخ التي كنت أحبّها، عندما كنت المحّ لها أني على علم بعلاقتها مع رجل غير زوجها إبراهيم.

ما فكرت يوماً أن عاطفتي ستصل إلى ذلك الحدّ بالنسبة إلى زهرة، كنت أحاول أن أعبر عن حالة غريبة تراودني: حالما استقبلتها وتركتها تنام في غرفتي بينما انتقلت أنا إلى الصالون وأصبح سريري الكنبة. كأني بوجودها، أصبحت أشمّ بل ألمس رائحة ارتباطاتي بالعائلة والوطن. كنت أشعر بأني أريد أن أمسك يدها ووجهها وشعرها وذيل فستانها وأن أستنشق عبر ملامحها كل حياتي هنا وفي لبنان وان أشدّها إلى قلبي بكل قوتي وأصرخ: «كيف تبدلت إفريقيا، كيف انطفأت كتلة الشمس قليلاً. كيف أصبح التفكير في الوطن متقطعاً. والكلام صار له معنى. وجهها هو وجه أمها ووجهي هي مني وها هي قطعت آلاف الأميال وحطّت في إفريقيا كفراشة تعبة حزينة. أريد أن أسمع أكثر وأكثر وأقول لها: أخبريني عن التفاصيل حتى التي تظنّين أن لا معنى لها. إنها تهمّني، كلّ شيء يهمّني. ها هي في الغرفة المجاورة، ممدّدة على فراشي وأنا أسمع أنفاسها. كيف كان البيت موحشاً يئنّ من مكيّف الهواء، ومن الغبار الذي تلتقطه آله هذا المكيّف. كيف كنت أذهب إلى الدعوات وحيداً، إلى البحر وحيداً، النوادي وحيداً. ها قد تبدّلت كل إفريقيا. سآخذها إلى كل الأمكنة. سأشتري لها ما تريد. سأشتري سواراً ذهبياً كان قد لفت نظري مرة وفكرت لو أشتريه لإنسان يخصّني. وما وجدت إنساناً يستحقه. أن يهبط عليك

شخص يبدّل حياتك ليس محض مصادفة. المطاعم الثلاثة التي تركتها تئنّ، كأنها تبدّلت وجوهها وطاولاتها. حتى السينما صارت رحبة واسعة. إنه لحدث كبير أن تدخل زهرة حياتي الفارغة المؤقتة. كنت أشعر بأني من خلالها أستطيع أن ألمس الماضي. ماضيّ، والحاضر، حاضري. حتى المستقبل، مستقبلي، أن أتوغل في إفريقيا ومعي شاهد من لحمي ودمي وحتى عظامي، شاهد يسجّل ذبذبات أنظاري وخفقات قلبي وارتعاش يدي بين الأشجار الكبيرة التي تشبه المارد والفيلة. وقد اختارت هذه الفراشة التعبة والحزينة أن تهبط عليّ، ولم تعرف أنني عصافير ولدت لتوّها ومدّت مناقيرها الصغيرة وفتحتها حتى كادت تتمزق من أجل نقطة ماء، حبّة قمح. أصبح نومي قلقاً، متردّداً. اتقلب منتظراً كتلة النار حتى تتذكر أن عليها أن تبدأ بتعذيبها لي. لكن الصباح يوشك أن يذهب وزهرة لا تزال في الغرفة المجاورة تسمعني أنفاس الطمأنينة والثبات. وإذا أيقظتها لاحظت عليها الضيق. وإذا أفضيت بعاطفتي وأحطت كتفيها بيدي تملّصت مني. وإذا استعضت عن يدي بالكلام صمتت كأبي الهول رغم زغردات المصريين وصهيل أحصنة الباشوات. وإذا حاولت ايقاظها باتكائي على سريرها جمعت نفسها بنفسها وتكوَّمت وتحوَّلت بقدرة سحرها من أفعى إلى خشبة. إذا أقنعتها بأن ترقص ورضيت بعد وقت أعطتني يداً من بلاستيك بارد. وفي السينما أيضاً أعطتني يداً من بلاستيك بارد. ولما شعرت أني لا أستطيع أن أخبىء هذه العاطفة رغم صمتها وشرودها بل أريد دلقها مهما كان السبب قالت لي بتأنيب: «ما أنت فاعله؟» ما أنا فاعله؟ أنا أنت وأنت أمك وأمك ابنة أمي دعيني أضمّك بين ذراعي وأختبىء في يدك وأدفن وجهي بين شعرك. دعيني

أمسك ذيل فستانك دعيني أنام ويدك تمسح شعري وهمسك يقول لي «لا تخف يا خالي، أنت في أمان» دعيني ألتصق بك ألتصق بك حتى لا يعود دوران الأرض يدور برأسي. والغثيان يصل حتى حلقي. خذيني بين ذراعيك، واجعلي كتلة النار تشتعل، تشتعل، بينما أشعر بالدفء فقط لا بالحرّ بين ذراعيك. ولا تتوقّفي عن الهمس بتلك الكلمات: «لا تخف يا خالي، لا تخف يا خالي» لم أحقق شيئاً منذ أن وعيت إلا أن أرسلت لك تذكرة الطائرة واستقبلتك في المطار. أريد أن أبكي وأضحك في آن، وأنت الشاهدة الوحيدة على هربي وعلى مصيري وعليّ وأنا في إفريقيا، بين كتلة النار والألوان النارية لا تلمّي نفسك وتتحوّلي إلى خشبة. لا أستطيع أن أقيم حواراً مع خشبة. لا أستطيع أن أدلق عاطفتي فالخشبة لا مسام لها لا تبلع سوى الندى. وعاطفتي شلالات انهارت جبالها، وجداول تحولت إلى مصبّ لجميع محيطات العالم. أريد الالتصاق بك، ولا أريد أي منفذ آخر لنفسي ولعاطفتي. الحزب وحده لا يكفي، رغم أني أشعر معه كما أشعر معك. لكنه مبهم حاولت الالتصاق به ولم أستطع. تركني وحيداً هنا رغم أفراده. ربّما الأحزاب تنطفىء هنا برذاذ رطوبة كتلة النار، وتظلّ شعلة خفيفة كهواء بداية الصيف. لو تتحوّلين إلى غير ابنة أختي لأتزوّجك. لا تقولي هذا لأحد لكن في عينيك حزن أحبّه وفي صمتك حزن أحبه. لا تقولي هذا لأحد. لكن أنا عصافير ولدت لتوّها وفي حاجة إلى نقطة ماء، حبّة قمح قبل أن تتمزق مناقيرها. هل تعرفين أنك الإنسانة الوحيدة التي لي علاقة بها منذ أن ولدت؟ في الطفولة كانت أحلامي هي اللعب بدواليب الكاوتشوك. في المراهقة كانت أحلامي الهرب من المدرسة إلى عتمة السينما. بعدها كان الحزب

الذي أمتصّ كل عاطفتي ونرفزتي وثوراتي وهدوئي. وصارت لي علاقة معه، لا مع أشخاصه وأفراده. وفي إفريقيا كان من الصعب أن أبني علاقة، فالجميع هنا في حالة مؤقتة. وها أنت الوحيدة التي لي معها علاقة سواء بالتفكير: «ماذا نأكل، أين نذهب، ماذا نتحدث ومتى سننام». أجلس في الصالون، بينما كيان يحتلّ سريري وغرفتي. كيان له بي علاقة. هل تفهمين، أم أن حبوب وجهك تشغلك عن كلامي؟ علاقتي بك بدأت عندما أخذت رسائلك تصلني وأنا أجيبك عليها وأنا أعرض عليك المجيء وأنت تقبلين. علاقتي بك كإنسان يربطني بالوطن وبنفسي لأنك أنت العائلة والإنسان بلا عائلة هو بلا نفس. لماذا ترتجفين، لماذا لا تدعينني ألتصق بك وأنسى الحالة المؤقتة، وأقول بمجيئك جاءت بطاقة السلام وها أنا سأعود إلى الوطن؟ هناك شعاع، امتدّ منك ودخلني وشجعني على العودة إلى الوطن. أليس هذا بحدث، أن تعيدي لي ثقتي واشتياقي الفعلي إلى الوطن. فلا أعود جالساً أفكر فيه، وأتمنى وأنا أحاول شيئاً للعودة إليه؟ أرى شفتيك تعصران بعضهما البعض. وأراك تتكّومين وتلتصقين بالحائط وتقولين «ما أنت فاعل؟» تقولين هذا بعد وقت طويل من الصمت وبعدها تصمتين وبعدها تدخلين الحمام. بعدها تبقين في الحمام. تبقين في الحمام.

٤

تزوجت زهرة دون معرفة سابقة بها. عندما علمت أنها عزباء وابنة أخت لهاشم، فكرت: هذه عروس حاضرة في افريقيا. ستوفّر عليّ الذهاب إلى لبنان والبحث عن عروس. ستوفّر الليرات وتكاليف السفر والجهاز. سمعت أن العروس هنا لا تطلب أن تتجهّز كما لو أنها في الوطن. حتى لو أرادت، فإنها لن تجد محلات شبيهة بمحلات سوق سرسق، حتى المصاغ هنا مختلف ولا يكلّف الكثير. يجب أن أتزوج وسريعاً، بما أني سأتخذ من افريقيا وطناً آخر لي. رغم أن لا مجال للمقارنة بين الحياة هنا والحياة هناك. فمياه الوطن عذبة، وسماؤه ظليلة، وجباله جميلة، الطقس في الوطن لا يعلو عليه طقس، لكن كل هذا يتلاشى، وأنت تتمشى في ساحة البرج ولا تستطيع أن تتذوّق إلا سندويش الفلافل. الطفر يمحو الدنيا الحلوة أمام عينيك حتى لا تعود ترى شيئاً، بل يعزُّ التفكير، كيف ستعود تراها وتستمتع بها وأنت تتمشّى في ساحة البرج. ولن أقول الحمراء ومنطقة البحر، فهذه لنوع آخر من البشر. أشعر أنهم غرباء عني إلى حدٍّ أخاف حتى أن أزور دور السينما هناك، حتى أن أتمشّى وأشتري ساندويتشاً. ربما خوفي ليس إلا عن معرفتي السابقة بما في جيبي من ليرات محدودة، أحياناً ليرة واحدة. كنت أخاف أن أجعل نفسي معرّضاً للتشرّد في هذه المدينة الغريبة.

المهم أني استطعت السفر إلى افريقيا بعد جهد. حالما وطئتها قدماي

أخذت أتسلّم رسائل من أصدقائي وشباب الضيعة حتى من الضيع المجاورة، يطلبون مساعدتي لهم في الهجرة إلى افريقيا، واضعين سؤالهم بهذا الشكل: «لو أنت في لبنان ما حدا بيطلّع فيك. معك قرش بتسوى قرش». وأنا أقرأ هذه الرسائل، كنت أهزّ رأسي وأحدث نفسي «ولو عم تقولولي؟» فأنا وعيت على والدي وهو يحمل على كتفيه السندان والقدوم وعلبة المسامير، وأمي تروّب اللبن والذباب يحوم حول أعين إخوتي الصغار ويحطّ فوق بثور أقدامهم.

كل ما عندي كان في الخزانة مع الصحون مجموعة طوابع كنت أجمعها حتى أجني ثروة وقصاصات جرائد وبعض كتب سلسلة جرجي زيدان، هذا كل ما عندي. فرح والدي بسفري إلى أفريقيا جعل رسائله كلها موجهة إلى الله وليست لي، فهي من أولها بعد عبارة بسم الله الرحمن الرحيم إلى آخرها شكر لله. لأني أشتغل في افريقيا «ولأني عايش كالزلمة مش مثل الدواب». ثم شكر لله مرة ثانية الذي أتاح لي هذه النعمة وهذا الحظ.

يجب أن أتزوج وأنجب عائلة حتى يصبح لي بيت كبقية البشر بل لأصبح كبقية البشر «عن حق وحقيق»: أن أبعد عني الخجل والشعور بالنقص، كما شعرت به في الماضي في شارع الحمراء، وهنا في شارع شبيه به يدعى «جادة النافورة» أكتشفت أنه يجب العمل بجد متواصل حتى أعبىء جيوبي وأغدو كسائر البشر وأسير مختالاً بكل بساطة في شارع الحمراء وفي «جادة النافورة». والذي عجل في اتخاذي قرار جمع المال بنهم حادثة معينة، بل ربما حادثتان. الأولى عندما وقفنا على عتبة الفندق الكبير الوحيد نهمّ بالدخول للاحتفال بعيد استقلال لبنان وكانت الجالية اللبنانية كلها مدعوة. وقد سمعنا عن هذه الحفلة من

أحد الزبائن الذي تلقى دعوة. ظننّا أن السفارة ربما سهت عن إرسال البطاقات لجميع أفراد جاليتها. ما أن وصلنا إلى عتبة الفندق حتى شعرت بأني وأصدقائي لا ننتمي إلى هذا الاحتفال. فاللبنانيون الأغنياء وحدهم فقط أخذوا يتوافدون في سياراتهم الكبيرة، وما أن يطأوا العتبة حتى يهرع أفراد السفارة يستقبلونهم باحترام بينما نحن واقفون ننتظر دورنا الذي أتى لكن عيونهم لم تلتق وأعيننا إلا مرة واحدة ومع ذلك لم يمدّوا أيديهم لمصافحتنا ولم يقولوا لنا «أهلاً وسهلاً شرّفتم» كما سمعناهم يقولون للآخرين. قلت إنهم لم يرونا بعد. ربما يجب أن نحيد عن العتبة حتى يرونا؟ اقتربت وأنا أقول لنفسي حتى أشجّعها على الاقتراب بأنهم ربما كانوا على تعارف سابق لذا فهم يرحبون ببعضهم البعض. ثم دخلت بعدما القيت التحية فردّوا عليّ باستغراب ودهشة وكأنهم لم يتوقعوا مشاهدة المواطنين العاديين. ودخل ورائي الأصدقاء مرتبكين أيضاً. ورأينا أنفسنا نتجمّع ونلتفّ حول بعضنا، وكأننا عنقود عنب أو كأننا مرطبان خيار كُبس بطريقة الضغط. ولم نحتفل بعيد الاستقلال. لم يقف أحدهم على الكرسي ويخطب فينا خطاباً إنما أديرت كؤوس الكحول والشراب، ولم نتجرأ على مدّ أيدينا إلى الصواني.. بريقها الفضّي جعلني أتحاشى مد يدي إلى الكأس. بدوا لي كأنهم لا يعانون الطقس والحر كأن الشمس تنحسر عند رؤيتهم. هذه الملاحظة فسرها لي أحد الواقفين بقوله إن التبريد موجود حتى في سياراتهمْ وحماماتهم. أخذ الحقد والحزن يحركان شعوري في آن ، ثم قلت لنفسي: لماذا استعظم الموضوع؟. وذكّرتها عندما توقّف رجل أشقر الشعر، مربوع القامة، أمام راديو ترانزستور يريد شراءه، وقد خاطبني بالفرنسية ولما كنت قد وصلت

إلى هذا البلد منذ أيام فقط، وكنت لا أتكلم من الفرنسية إلا بونجور بونسوار وجوفوزيم، حتى تلعثمت ونطقت تلقائياً. بقولي: «يا سيدي» وما أن سمع الرجل الأشقر المربوع القامة كلمة يا سيدي حتى سمح لنفسه بأن يتحدث العربية. وفوجئت فالرجل يبدو أجنبياً ومددت يدي أصافحه ثم مددت يدي إلى صدري كما نصافح في الضيعة وأضفت «أهلاً بابن العم أهلاً، الأخ لبناني. خي، دخلك خليني شم ريحة لبنان. أهلاً وسهلاً بابن العم». ولم ألحظ وقتها أن الأخ اللبناني لم يبادلني الشعور ذاته بل وقف بعصبية ينظر إلى الترانزستور ويمدّ يده إلى جيبه، يريد الدفع، وأنا لا أزال أسأله: «شو بتشرب قازوزة أم قهوة؟ المحل محلك وما في شي من قيمتك، أنا جيت من كم يوم. والله تعذبت حتى أخذت فيزا، استأجرت غرفة صغيرة، عند مهنّد ابن عمي. تفضل تبقى شرّفني على البيت، تعرف بيت مهند زعتر؟ وين معمل البيسي كولا هونيك». ولم ألحظ أيضاً أن الأخ اللبناني ما بادلني الشعور ذاته، بل انه وصل إلى الباب يغادره، دون يتفوه بكلمة واحدة. واقترب مني مهند قائلاً بغضب وبضحك: «شو صارلك يا ماجد، يا ابن سليمة، ولك شو حاطط فبركة حكي على زلعومك، ولك ما عرفتو هيدا وائل سلمان، وعم تعزمو على غرفتك». لكني قلت أدافع عن نفسي، في خجل وحيرة «لبناني والتقى بلبناني وبالغربة، شو بتركو بدون ما رحّب فيه وأعزمه». وعاد مهند يضحك، ويضحك على ضحكه المساعدون الزنوج. وما أجابني من هو وائل سلمان وقتها، بل ترك الأيام تجيبني عن القاضي، الذي يخص عائلة لبنانية عريقة والذي لجأ إلى افريقيا بعد تورّطه في مسألة سياسية. وعلمني الوقت أيضاً أن العالم مثل كف

اليد، كل أصابع لها طولها، وشكلها. وإذا كنت في المهجر، أو في الوطن، فاللهفة إما موجودة أو معدومة تتوقّف على طول أصبعك وشكلها. وذكّرني الوقت أنه حتى في الضيعة كانت هناك مفارقات وأني تخليت عنها فقط عندما جئت إلى أفريقيا حاسباً أن الغربة تقرب البشر، خاصة أبناء الوطن الواحد. وكنت مخطئاً، المال فقط هو الذي يمدك بالقوة، ينوّع الصداقات ، يستكمل التعادل بين أصابع الكف. لذا أريد أن أعمل من أجل أن أغطي نفسي بالنقود. وأغطي أمي سليمة بعد أن أمنعها من العمل كخادمة في منازل بيروت وننسى معاً الماضي، الذي كانت تصطحبني وتجلسني في المطبخ بين عشرات الأحذية. كانت حجتها لمخدومتها حتى تصطحبني هي أني ماسح أحذية وعندي آلة تركتها في الضيعة لأنها ثقيلة. كانت تكذب فأنا اما في المدرسة مع والدي أحمل له السندان والقدوم وعلبة المسامير ولفّة من الجلد السميك لندور معاً بين القرى المجاورة ولأسمع الكلمة الوحيدة بين العرق والحجارة «امش يا ابني امش». كنا ننادي بصوت واحد: «مصلّح لستيك، مصلّح لستيك». كانت مخدومة أمي تجلسني بين الأحذية النظيفة وكأنها تجلسني أمام أسئلة امتحانات صعبة للغاية. فأنا كنت أخاف أن أتلفها بدلاً من تحسينها. هذا الخوف كان يكبر ويكبر، لأجد نفسي أشتم أمي بصوت تسمعه ربة البيت. كنت أشتم أمي وأنا أفكر كيف أني لن آتي معها في المرة القادمة. رغم أني كنت أعرف سلفاً أنها ستجبرني.. فمجيئي معها كان يكسبها ثلاث ليرات إضافية. بعد مدّة كففت عن معارضة المجيء معها في الأسابيع التي تلت. فالمنقذ الذي كان في خيالي قد ضاع مني، بل أضاعوه مني. الحمار الذي أطلقت عليه اسم صفوان تأثرا بمسلسلة صفوان في

مجلة «السندباد» والذي ترعرعت على رؤيته بين الجلالي وفوق الحجارة بقدميه الداميتين. الحمار الذي حفظ اسمه وحفظني وأحببته وأحبني، باعوه. لا أعرف لماذا باعوه. أذكر أني ركضت خلفه عندما جاء مشتريه يقول له بصوت أجشّ قاس: «هش، حمار، دي». وجدتني أصيح به والدموع في عيني: «اسمه صفوان، مش هش دي» وركضت أحضنه وهو رغم حبه لي، سار مع مشتريه فوق الحجارة وقدماه الداميتان تعاركان الصخور. ولم يلتفت. جريت خلفه، أناديه: «صفوان! صفوان!». جريت أكثر ولحقت به حتى القرية المجاورة وهو يسير ولا يلتفت. ولم أيأس. لكن مشتريه ضاق ذرعاً ببكائي وركضي خلفه طول الطريق ثم التفت إليّ وقال: «سأخطفك إذا لحقت بنا بعد، وسأبيعك للنور». ولم أبال بتهديده وبقيت على بكائي ومناداتي صفوان وأنا ألحق به. قدماي، أصبحتا كقدمي صفوان ولم أتوقف إلا عندما توقّف الرجل وأمسك بالعصا التي كان يستعجل بها صفوان على مؤخرته. وهدّدني بها والشرر يلمع فوق أسنانه الذهبية، وحاجباه السميكان كأنهما حاجبا ابليس يكادان يطيران من وجهه. وعاد يهدّد بخطفي واعطائي للنَّوَر. لما همّ أخيراً أن يقفز عن صفوان عدت أدراجي وأنا أردد: «صفوان صفوان» الذي ما التفت وراءه وتركني أعود بجملة واحدة كنت أقولها دائماً: «أتحبني أنا أكثر أو الرز؟»، كنت أقلّد أمي وهي تدلّلني قائلة: «يا ماجد بتحبني أنا أكثر أو الرز».

في أفريقيا، خطت لنفسي زناراً من قماش البفت، كنت أخزن فيه كل نقودي وأضع الكيس خلف الثلاجة. وأصبح هوسي الأول والأخير تعبئته بالنقود، لأعود فأخيط غيره. ولما وجدت أن هذا

يستغرق عمري كله بدأت أشتغل بعد إقفال محل مهند في محل طلال. الذي يقفل محله في النهار ويفتحه بعد أن يفارق فراشه بعد الظهر. ولم يكن طلال يشبهنا بشيء لا بعاداته ولا بتفكيره. فهو يعيش ليومه، هكذا قال. أفريقيا بالنسبة إليه ليست كنزاً. إنها بلد كأي بلد آخر وهو يجب أن يستمتع بكل لحظة تمر بحياته. فهو في النوادي الليلية منذ التاسعة مساء بين النساء وبين طاولات القمار وفي النهار في الفراش أو على شاطىء البحر. وقد حاول أن يفتح محله في النهار ويسلمه إلى سواه. لكنه اكتشف أنه يخسر. عندما عرّفوه بي، اقترح عليّ وبسرعة، أن يسلمني محله في المساء وهكذا كان. كان قلما يمر ويجلس معي مع أني كنت أتمنى أن يفعل هذا دائماً، فطلال يسلّي ويشيل الهمّ عن القلب. كل قصصه تضحك وغير معقولة. كانت الطريقة التي يتكلّم بها مازجاً المزاح بالجد تجعل عينيه الضيقتين تضيقان أكثر، بل تختفيان تحت جبهته البارزة وحاجبيه الخفيفين وابتسامته التي لا تفارق وجهه أبداً بل تكبر حتى وهو منفعل أو ساكت. أغرب الأطعمة تعلمتها من مائدةطلال، الذي يحب أن يطبخ بنفسه. كان كلما سمعني أقول إني مشتاق لفراكة أمي وكبة البندورة. يجيبني «ولك خلصني من الفراكة وكبة البندورة. في أحلى من أكل السلطعون، من اللوبستر، في أطيب من الباتية من الكافيار في أطيب من الأفوكادو؟». كنت أظن في بادىء الأمر أنه يخترع هذه الأسماء خاصة أني لم أكن قد اكتشفت سر ابتسامته الدائمة، التي تلازم وجهه حتى في جدّيته. لكن عندما صحبني مرة إلى محل المأكولات، تبيّن لي أن هذه الأسماء حقيقية وكان هو يختار مقلباً بين يديه المانغا والبطيخ الأصفر الصغير، يتلو عليّ قصة ابن عمه الذي ما أن وصل إلى افريقيا من

لبنان حتى سأله أن يريه أشجار الكاوتشوك التي تحمل الدواليب ثماراً.

بدأت أحس بالتعب، من كثرة ما أهتاج وأنام وحيداً. فأنا منذ أن قدمت إلى هنا لم ألمس يد امرأة. بل منذ المرة الأخيرة التي ضاجعت فيها امرأة تفوق الأربعين، في أحد بيوت أزقة ساحة البرج. أستطيع أن أعد المرات، وأجدها نحو العشر فقط، وكلها في بيت هذه المرأة. لذلك كلما أهتاج تفوح فجأة وبسرعة رائحة الفلافل، والطرطور والخبز الساخن والكبيس. لقد كان بيتها فوق مطعم ملاصقاً للفرن. وكنت وأنا أنتظر احداهن حتى تغمز لي بعينيها وبوركها أتسلى في استنشاق رائحة الفلافل، وتراودني نفسي للنزول لحظة أخطف فيها الساندويش وألتهمه قبل أن يحين دوري. هنا كنت أشك في درجة حبّي للمضاجعة، فساندويش الفلافل كان يبدو لي الثمرة المشتهاة والبعيدة المنال. كنت أجلس وأتخيل طعمها تحت لساني. لكن ما أن يحين دوري وتغمز لي العين ثم يليه الورك حتى تتلاشى الرائحة. يتلاشى كل شيء وأصبح كلي في أسفل جسمي. ففي الضيعة كانت بيني وبينه صداقة. كنت أرّد الباب، الذي لا قفل له وآتي بالكرسي أسندها إليه من الداخل وأفتح كتاب «جين اير»، على الصفحة التي فيها صورة صغيرة لجين اير ومخدومها روشستر يقبلها فأهتاج وأبتدىء بإطفاء هذا الهيجان بسرعة وبعصبية وبعينين زائغتين، على الشباك وعلى الباب وعلى السقف وعلى الصورة. أتعجب كلما أتخيل الآن الصورة الصغيرة التي كنت أستغلها، فهي صورة لا تلهب خيال أحد. عندما بدأت بدخول عالم العادة السرّية، لم احتج لأيّ عامل خارجي. بل كان كل ما فيّ متحفّزاً. لكن بعد سنوات، لما أخذت

أشعر بأن الروتين تسلّل واستقر بيني وبين جسمي، كان عليّ أن أبحث عن شيء يثيرني وما وجدت بين كتبي سوى صورة جين اير. لكن ومع قراءتي لمجلة طبيبك ونصائح الدكتور صبري القباني للجيل الجديد بأن يكف عن العادة السرية، لأن كثرتها مضرّة بالجهاز العصبي، أخذت أخفف من ممارستها ولم اتوقف عن ممارستها فعلاً إلا يوم دخلت أمي فجأة بعدما رفست الباب وعلى رأسها طشت خبز الصاج. وقفت في وسط الغرفة والطشت الكبير المدوّر لا يزال فوق رأسها واحتارت ماذا تفعل أمام دهشتي ويدي التي لا تزال في أحرج الأوضاع. لما أنزلت الطشت شيئاً فشيئاً عن رأسها وهي تقرفص معه وتضعه على الأرض استسنحت هذه الفرصة ورفعت بنطلوني وركضت صوب الباب. حاولت أن توقفني بصوتها وأنا لا أزال أركض: «يا حيف عليك يا ماجد، كيف سرسبلك الشيطان، هالنجس، يا بني بتضمّر صحتك. وبتنسَلّ وبكره بياخدوك على بحنّس، بتنسلّ با ابني، يا روحي، وبتبطل تجيب ولاد مش حرام تبطل تجيب أولاد؟ شوف يا ابني لما ثاني مرة يسرسبلك الشيطان العنه». وكان خوفي الدائم من أن أتزوج وتكتشف زوجتي أني كنت أمارس العادة السرّية، وفي نهم، وتتركني. خاصّة عندما لا تحمل مني ويخبرها الطبيب عن السبب. لقد فكرت في الزواج وأنا في سن الثامنة عشرة من أجل الجنس. لكن ما رضي بي أحد من عائلات الضيعة. أصبح طموح كل العائلات أن تُزَوج بناتها من رجال المهجر أو رجال بيروت. أُخبرت قبيل سفري أن أفريقيا بلاد مفتوحة لكل شيء وبناتها الزنجيات يهجمن على الشاب الأبيض وكأنه عصا دبقة لاصطياد العصافير. كأن أمي قد سمعت بهذا أيضاً لأنها وهي ترتّب

لي ملابسي في الشنطة كانت تهدس بهذه الكلمات التي لن أنساها من كثرة ما رددتها: «أوعى يا ماجد، أوعى يا حبيبي كل شيء ولا العبدات. هول بيعملو ا حيلة، بيشبكوا الأبيض، ولما بيقبل معهم. بيحبلوا منه، وهون العلقة. ايه، بعلقوه فيهن، ويدوبك يخلص منهن. العبدات ما بيقبلوا التطريح، ولما بتولد، صار ابنك رضيت أم لا. ويا ريت دائماً يكون ابنك مظبوط من لحمك ودمك. ياما بكونوا نايمين مع واحد قبلك بخمس دقائق يمكن. أنت بتعرف مها بنت الدرويش. ولك بنت العبدة. كيف بيضحكوا عليها بالضيعة كلها وبقولو لها «عبدو عبيدو، وسنانو بيضو» هيدي راح مستقبلها. هيدي مين بدو يتجوزها، وهاالكباش الشعر اللي عندها. وها اللون المجنزر. هيدي راحت عليها، مسكينة، وأنت بدك أولادك ينظلموا وأنت تنظلم معهم؟».

ولم تكن هذه الكلمات هي التي وقفت بيني وبين بنات افريقيا، إنما أشكالهن. وما فكرت يوماً أن جسمي يستطيع أن يطبق فوق جسم احداهن. لا أستطيع رؤية الشفاه الغليظة، وهذا الشعر المتوحش، وهذا الجسم الأسود.

كم كنت أتمنى وأنا فوقها أن تصرخ. وتضرب صدري وتقول: «أخ. أخ. موجوعة دخيلك ما توجعني». لكنها كانت تشيح بعينيها عني. وبرأسها عني. وجسمها كان تحتي ولا يزال. ومع أن زهرة ليست جميلة كانت فرحتي بها لا توصف. ها أنا قد تزوجت وها أنا أمتلك جسماً أضاجعه عندما يحلو لي. منذ هذه اللحظة سوف يضمحل الشعور بأني محروم. وبأني في مأزق والزنجيات يحطنني من

كل جهة. لقد تزوجت ابنة أخت هاشم، وهذا ما كنت أحلم بـه مذ كنت لا أزال في الجنوب. أن أتزوج ابنة عائلة معروفة نوعاً ما. رغم أن فـترة الخطوبـة استمرت أسبـوعاً واحـداً ريثما يـردّ أهل زهـرة على الـبرقيةالتي أرسلهـا هاشم. لاحـظت أنها ليست مرحـة. إنها صامتـة معـظم الوقت. وإذا تكلمت فبتهجم. وهي خجـولـة مـا أن أحـاول أحـاطة كتفهـا بذراعي، حتى تتكـوم على نفسهـا، وبهـدوء تنحني إلى الأمام بعيدة عن ذراعي. لما قشرت لها فستقاً حلبياً وجدتها تأخذه من بـين أصـابعي ولا تـأكـل وتتـذرع بـأنها لا تحب الفستق الحلبي. لمـا أخذتها إلى المطعم وكان بصحبتنا طلال وصديقته لاحظت أنها مرتاحة وكلامها لا بأس بكميته وابتسامتها تعـدّت الواحـدة لكنها رفضت أن تـرقص معي أو ترقص مـع طلال. فـرحت لرفضها هـذا، فـأنـا لا أعرف الرقص ومـا رقصت في حياتي إلا مـرة واحدة، هنـا في أفريقيـا ومـع طلال، عنـدما كـان الشبـاب يحتفلون بعيـد رأس السنـة وأصر طـلال على تعليمي الـرقص. كم أنا فـرح لأني تزوجت. وطبـاعهـا؟ طباعها هذه لم تقف بيني وبين قراري الزواج منها. هكذا تتصرف كل الـزوجات في بـادىء الأمر. وأيقنت أنها سـوف تعتـادني مـع الـوقت وسيتبدل كل شيء.

هي الآن لا تـزال ممدّدة تشيـح بعينيها وبـرأسها عني. أشعر أنها متضايقة. لا بأس. كل البنات يتضايقن ليلة الدخلـة. الخوف والألم يختلطان معاً. أشعر بأنها في حالة قرف. لا بـأس، إنها ليلة الدخلة. ها أنا أدخل. ها هي تشيح برأسها أكثر عني، ها أنا لا أسمـع كلمـة آخ. ها أنا أضاجعها: زوج وزوجـة. ولا أشعر أني أخـترق سدوداً. لا أرى شيئـاً. الشراشف لا تزال بيضـاء. لا أرى نقطة دم واحـدة.

بسرعة، أبعدها عني، وهي لا تزال تشيح بعينيها وبرأسها. أبحث عن بحر دم. عن نقطة دم. ووجدتني أتمتم وكأني أهذي: «يا بنت الملعونة، يا بنت الملعونة». وهي لم تنبس بكلمة واحدة. كل ما فعلته أنها سحبت البطانية وتغطت. عدت أنا فسحبت البطانية عنها. أخذت أحدق في قميص نومها. ولا شيء. لا نقطة دم واحدة ولما حاولت سحب البطانية من جديد. لم أدعها، قلت لها بصراخ: «أنت متزوجة من قبل؟». اكتفت بهزّ رأسها نفياً. قلت لها: «مش معقول، أنت مرا؟». ولم تجبني بشيء وعدت إلى الموضوع في ألم وعناد: «يعني أنت تزوجت بالحرام قبل ما أتزوجك؟». لم تجبني بل وجدتني اضيق للمرة الأولى منها ومن صمتها، ومن أنها ابنة أخت هاشم. وأصرخ: «قولي الحقيقة الآن. وإلا سوف نذهب معاً إلى هاشم ونسوّي القضية». فاجأتني ببكاء حادّ ثم قالت لي إنها لا تعرف عن الموضوع شيئاً وإنها كانت عذراء قبل أن أتزوّجها الليلة. لم أطق كذبها الأبله ووجدتني أقول لها: «أوعي تفكري إني بهلول ولأنك بنت أخت هاشم لازم صدّقك، أو لازم أرضى بالواقع بلا سؤال وبلا جواب وأقنع، لا، لا، أوعي تفكري». وفاجأتني بعينين تحدقان في الشباك وبصمت مذهل استغرق ساعات. رأيت وجهها يحتقن، وعينيها لا تتحركان بل تحدقان ربما في جهة معينة من الشباك. هكذا ساعة، خلف الثانية خلف الثالثة. صامتة لا تسأل ولا تجيب. لا تأكل ولا تشرب. بل جالسة في قميص نومها كما أجلستها لأستنطقها والبطانية مطروحة إلى جانبها تماماً على الهيئة التي سحبتها عنها. كل شيء في مكانه إلا أنا. لما يئست هببت إلى الباب أفتحه وسمعت صوتها الآتي من الشباك، سمعتها تقول لي: «أرجوك أحضر الطبيب، دعه

يكشف عليّ، وهو سوف يقول لك إني كنت عذراء قبل أن تتزوّجني.» ارتحت عند سماعي منها هذا، ووجدتني أقول لها «الطبيب الذي أعرفه لا يزور البيوت إلا في حالة خطر. ارتدي ملابسك لنذهب إليه». نهضت تقفل الباب عليها، وأنا في حيرة من أمرها. خطرت لي أشياءٌ كثيرة كلها جعلت قلبي يدق ويدفع بيدي لتدقّ على الباب. لدهشتي فتحت زهرة الباب وهي في كامل ملابسها. سارت أمامي. كانت عيادة الدكتور بعيدة، كانت وهي إلى جانبي في سيارة الشحن الكبيرة تبدو شاحبة منتفخة الوجه، ذابلة العينين. ولما أوقفت السيارة وفتحت لها الباب لتنزل، لاحظت أنها لا تقوى على النزول بمفردها. أمسكتها بيدي، وأنزلتها. عندما سارت أمامي وهي تتعثر أسرعت أمسك بيدها ودعتني أفعل وما أن وصلنا إلى العيادة الغاصّة بالزنوج حتى سحبتها من يديها أبحث عن كرسيين ننزوي بهما. وكان الطبيب يفتح باباً ضيقاً يطل برأسه من خلاله كل خمس دقائق. لاحظت أنه كلما أطلّ برأسه كانت زهرة تحاول أن تقول لي شيئاً ثم تتراجع وتعود إلى شرودها. لما أطل برأسه ودخلت الزائرة الأخيرة سمعت زهرة تتكلم. سمعتها تقول إن رجلاً اغتصبها وهي آتية من عملها إلى البيت. جلست متضايقاًوأنا أزفر وأمسك العرق الذي كان يتصبّب غصباً عني. إنها تؤلف هذه القصة. ووجدتني أقول لها: «طيّب رجل نام معك بالقوة. وين البوليس وين أهلك؟». وأخذت أفكر عند ذكري لكلمة أهلها أنهم ربما يعلمون بالأمر. لقد استغفلوني. وذهبت بعيداً بظني، أخذت أقنع نفسي بأنهم أرسلوها إلى أفريقيا لتنطلي حيلتها على أي رجل. وأيقنت أن خالها هاشم يعرف الحقيقة، وأنه قد رتّب الخطة منذ البداية. وأنا

جالس في حيرة وفي ضيق ، أطل الدكتور برأسه وأومأ لنا. ربما ظنت زهرة أن بقائي جالساً وعدم مبادرتي لمغادرة المكان لحظة اعترافها لي دليل على أني غير مقتنع بقصّتها فعادت تقول بلهفة وبسرعة إنها حملت منه مرتين وأجهضت مرتين. وقفت أسير نحو الباب وهي ورائي. صعدت إلى سيارة الشحن أجلس خلف المقود. أفكر في هذا المأزق. زهرة تحاول فتح باب السيارة ولا تعرف ولم أشأ مساعدتها بل أحسست بأني أكرهها. لما فتحت لها باب السيارة من الداخل وجدتها تجلس بصعوبة. أسرعت أنهب الأرض نهباً أنظر إليها رغماً عني لأراها بوجهها المنتفخ، وعينيها الذابلتين وأكرهها أكثر. ثم أخذت أفكر في أمي وفي بيت ماريكا في أزقّة البرج. رائحة الفلافل. وكيف تحولت زهرة من فتاة صامتة، خجولة إلى امرأة داهية، قذرة. ووجدتني ما أن فكرت في أمي حتى حمدت الله على أنها بعيدة عن هذه القصة. لكن، هل ستطلب مني يوماً الشرشف الملطخ بالدماء حتى تريها لأم زهرة وللأقارب وللجيران؟ ووجدتني أحمد الله على أن أمي ليست هنا ولسانها ليس هنا. لسانها الذي كان سيصرّ على المطالبة لترى ويروا هم تلك الخرقة، لمجرد راحة البال. في الصباح الباكر الذي تلا زواج أختي من ابن خالتي كانت أمي تشرب القهوة مع أختها وتسألها لماذا لا تطلب من ابنها رؤية الخرقة. وخالتي تجيبها: «مش مهم يا أم ماجد، ولو ما نحنا اخوات». وهنا فكرت أن قصة زهرة تكبر معي فقط لأنه لا يعرف بها حتى الآن سواي. واطمأننت لهذا. لكن ماذا عنه هو، من هو هذا المجرم؟ هل فعلاً هناك بشر في مثل هذه النذالة؟ وهرعت إلى زهرة التي أقفلت باب الغرفة عليها ولم تفتحه إلا بعد مدة طويلة رغم توسّلاتي. رأيتها وقد تكوّمت على طرف

السرير وفي يديها دفتر الرسائل وقلم. وجدتني أسألها عن اسمه وماذا يشتغل وإذا كان يريد الزواج بها وكيف يمكنني مساعدتها وأن عليها أن تذكر اسمه فقط فربما سافرت إليه وأقنعته بالزواج منها. كأني بجملتي هذه قد عبثت بمركز دماغها، وأفلت كل ما يثبت جهازها العصبيّ ويجعله يتماسك. لأنها أخذت تهتّز وتبكي وتبكي وتكوم نفسها وتتقوقع ثم مدّت يدها تمسح دموعها وتجلس وكأن التي كانت تهتّز وتبكي لا تمت لها بأية صلة. وعادت إلى الشرود والتحديق. وعادت إلى عدم السؤال والردّ. وعادت لا تأكل ولا تشرب، وعدت إلى أمي أفكر فيها ووجدت أنه من المستحيل أن تعرف بهذه القصة. عدت إلى هاشم أفكر فيه بعد ان توقفت عن الشك بأنه مدبّر الخطة، فزهرة كانت طوال الوقت تهذي بأنه مهما حصل فخالها يجب أن لا يعرف شيئاً وهي تنحني حتى حذائي تستحلفني كما في القصص وفي الأحلام، تستغفرني وتردّد هذه الجملة: «دخلك ما تعرّف هاشم وأهلي طلّقني وأنا بسافر بلد ثاني وأشتغل وأنت مش مسؤول عني اقتلني، اعمل شو ما بدّك، بس ما تخبّر هاشم ولا أهلي، دخيلك». ولما جاء الليل وأنا في حالة كئيبة تارة وحالة تخبّط وغضب وحيرة تارة أخرى، وجدت أني أريد أن أنام معها. لا أعرف كيف أخذ هذا الشعور يزداد ويضغط عليّ. كونها في الغرفة المجاورة، متكوّمة فوق السرير شاردة، كونها في حالة واحدة وهي حالة الرجاء بأن أعفو عنها. ووجدتني أدخل الغرفة وأقترب من السرير وأعود فأقفل خشب الشباك وأطفىء النور وأقترب منها وأضاجعها دون أن أعرف ما إذا كانت ستشيح بوجهها عني. ساعة مرّت وهي جامدة كالخشب، تارة أرى عينيها مفتوحتين وطوراً لا أرى إلا وجهها ممسوخاً بلا تكاوين.

لم أتضايق بل قلت في نفسي إنها لا تـزال خائفـة. لكن، (كأن كلمـة لكن يجب أن تـدخـل كـل فكـرة، وكـل حـدث) لكن، لمـاذا قبلت بالزواج إذا كانت خائفة إلى هذا الحدّ من كـونها ليست عذراء؟ لمـاذا رضيت بالزواج بي؟ هل فكرت لحظة أني لم ولن أكتشف سرها. هـل أبدو للعالم بهذا الغباء؟.

بعد أيام أخذ هذا المـوضوع يتـلاشى، كأن الأمـور العظيمـة تبدو تافهة في أفريقيا. حيث لا مجتمع ولا بيئة ولا عائلة تضخمه وتطوره. هنا، كل فرد لنفسه، كأنه شجرة منتصبة، كأنه خلق بلا ماضٍ وبلا معونـة أحـد. ربمـا لأن الأمهـات لسن هنـا، والأمهـات اللواتي هنـا تـأقلمن مـع افـريقيا وأصبحن بـلا مجتمع. التقـاليد تعـوم وتطفـو من حين إلى آخـر ولا تظل ثابتة، ليس في إمكان أحد إثباتها. الطبيعة لا تساعده. لأن أمي في الضيعة، أو في بيروت تشتغل في أحد بيوتها لم يعـد هناك مـا يعكّر صفـو أيامي. ربمـا يجب أن أنسى هـذه القصّـة وأبـدأ مـع زهـرة من جـديد. مقـابل أن تنسى زهـرة أيضاً مـاضيها وأن تصبـح أكثر مـرحاً وكلاماً، وتساعدني في عملي، وتنجب لي أطفالاً ونعود إلى لبنان بعدما نصبح أثرياء أفريقيا. لكن زهرة لا تزال على مـا هي. لا تزال واجمـة شـاردة الوجـه والعينان محـدقتان في النـافذة. لا تسـأل ولا تجيب. لا تتحرك إلا عندما تذهب إلى الحمام. لا أراها تأكل ولا أراهـا تشرب. يمضي النهـار وهي على الكنبـة مع الـراديو الـترانـزستـور والشرشف. وكأنها استأجرت هذه الكنبـة، لتصبح بيتهـا وحدودهـا. ولم احذر أن حالتها بهـذا السوء. كنت أظن أنها لا تـزال خائفـة وخجلة في الوقت نفسه وتمثل الشرود ما أن تراني. إلى أن قـررت يومـاً أن أطلع هاشم على حالة ابنة أخته. ولما أخـبرته ارتبـك وتبدل وجهـه وهبّ بسيارتـه

دون انتظاري ولحقت به لأجده يدقّ على الباب. يخبط بكفه ثم يرنّ الجرس. واقتربت أفتح الباب وأنا في حالة مماثلة لحالته، حالة جنون. للحظة فكرت مثله أن زهرة انتحرت. كنت أنتظر أن أراها مشتعلة. لكن، ها هي لا تزال مستسلمة إلى النافذة والراديو الذي يبثّ أغاني عربية. ما أن رأت خالها هاشم، حتى نظرت إليّ وكأنها تسألني إذا كنت قد أخبرته. ومنعاً للالتباس، قلت لهاشم إني لا أعرف سبب حالتها هذه. ووجدت هاشم يقترب منها. ويطبق فوقها ثم يرفعها بين ذراعيه ويتجه بها نحو الباب. لم أسأله شيئاً بل تبعته. أقفل الباب ورائي وأتسلم منه مفاتيح سيارته وأفتحها وأساعده في إجلاس زهرة في المقعد الخلفي. ثم أدير محرك السيارة كما طلب مني وهو جالس في المقعد الخلفي يحيطها بذراعه. وأتجه بهما نحو المستشفى كما أمرني. كنت لا أعرف جواباً لفكرة هاشم بأخذها إلى المستشفى. هذه امرأة كاذبة وخائفة من الفضيحة وهي تمثّل الندم. لا أعرف مدى علاقة المستشفى بهذه الحقائق الثلاث. ولم أعرف أني سأتجه بسيارتي الشحن كل يوم لمدة أسبوع فوق هذه الطريق ذاتها قاصداً المستشفى لأجد زهرة في الفراش مسرّحة الشعر عريضة الابتسامة وأقترب لأمسك يدها فتعطيني إياها وتردّ على محادثتي. وأحياناً لأجدها محمرّة الوجه، على جبينها أثر كدمات. لم يخطر ببالي قط كيف يعالجونها فأنا أعرف ما بها. على كلّ حال، يجب أن لا أتدخّل ما دام خالها يدفع التكاليف. لا بأس رغم أني لم أسمع قبل الآن بأن المستشفيات هي للذين يبكون ويصمتون. المستشفيات هي لمرضى القلب وللعمليات الجراحية. على كل حال، لا بأس ما دام هو الذي يدفع التكاليف. أذكر أن هاشم أفهمني مرة أنها تعاني من صدمة خفيفة لفراقها العائلة، وأنهم

يعـالجـونها. وكنت أضحـك في سرّي مـن هـذا السبب، لـكني لم أحـاول أن أبوح لهـاشم بالسبب الفعـلي لحالتهـا هذه. ولمـا جاء يـوم مغـادرتها المستشفى كنت فـرحاً خـاصة أني لم أكن أعـرف تمامـاً مـاذا أجيب الذين يسألونني ما بها زهرة. فقد كنت أخاف الفضيحـة، كان همي الوحيد هو الحفاظ على سرّها من أجلي. أما عـاطفتي تجاهها، لم تكن تهمني ولكن همي الـوحيـد، أخـذ يتسرب مني غصبـاً عني. إن تصرفات زهرة راحت تكشف للآخرين اني في مأزق كبير، بتّ حائراً في مصيري ومصيرها. والأمل الـذي تزوجتهـا من أجله أخذ يتـلاشى فهي لا تدبر شؤوني ولا تسهر على راحتي حتى أشتغل وأجمع المال. لا يظهر أنها تستطيع تربية الأطفال وهي على هـذه الطبـاع. لقد انقلبت الآية. ها أنا أسهر عليها طوال الـوقت، بينما هي تـارة ممددة واجمـة: وتـارة كمجنونة تهـرب من جنـونها. في اليـوم التـالي لخـروجهـا من المستشفى زارنا طلال وصديقته وقد جاءا بباقة ورد. هرعت زهرة إلى بـاقة الـورد وقد اكتفت بهـزّ رأسها بـدلاً من مدّ يـدها لمصـافحتهـما. وانتشلت وردةً ووضعتهـا في فتحة سـترة طـلال. ثم انتشلت أخـرى ووضعتها على رأس صـديقته. ثم واحـدة غرستهـا في جيب قميصي. ثم أخرى وضعتها في فمها. وهنا بدأ ضحكها الـذي لم يتوقف لـربع ساعة. وحاولت أن أضحك مجاراة لها كذلك فعـل طلال وصـديقته. لكن حركاتها بقيت عصبية كذلك تعبير وجهها. ثم امسكت بمـا تبقى من الورد واقتربت به من الحائط تمر بأصبعها فوقه كأنها ترسم. وتحرك أصبعهـا كأنها تـرسم مربعـاً ثم تحاول أن تضـع الورد فـوق الجدران والورد يقع. تحاول أن تلصقه من جديد والـورد يقع. أخـذت تشتم الورد وتلعن الخالق ويحمرّ وجهها. ثم التفتت إليّ وسـألتني أن أجلب

لها بعض الصمغ. ولما سألتها في نرفزة وخجل: «لماذا؟ أجابتني: «ألا ترى أني أزيِّن صورة أمي بالورد؟». وانسحبت وأنا أتأفّف وعقلي يقول: «بنت الملعونة، شو هالعلقة يا ربي!». اقترب مني طلال وأخذني إلى المطبخ. طلب مني أن أهدأ، واعداً إياي بحلّ مشكلتي. خرجنا إلى غرفة الجلوس حيث وجدنا زهرة تشدّ بيد صديقة طلال تحاول أن تدخل في يدها السوار الذهبي الذي قدّمته لها يوم زواجنا بينما تمتنع صديقة طلال وزهرة تقول لها بالعربية: «هيدي هدية مني لك عربون الصداقة».

وقفنا أنا وطلال مشدوهين. اقتربت من زهرة أبعدها عن صديقة طلال بهدوء. وزهرة تدفع بنفسها نحوها وهي لا تزال تمسك بالسوار وتقول: «بدي أهديها هدية، وعيب ما تقبلها مني» كلما سحبتها وأمسكت بيديها عاندتني وصرخت. هنا تدخّل طلال وأمسك بيد صديقته يقودها بسرعة نحو الباب. لكن زهرة أفلتت مني وهي تصرخ بطلال الذي أغلق في وجهها الباب «ليش هربان، ليش هربان؟». وكانت ضربات يديها على الباب ترافق صراخها كالإيقاع العاصف.

٥

عندما أفتح عيني أودّ لو أغمضهما، كأنَّ مياهاً مالحة تسبح في الفضاء. عندما أغمض عينيّ لا أرى سوى ساعة والدي بين أصابعه محاولاً تعبئتها وأرى أمي وطرابيش الكوسى متناثرة فوق وجهها. ثم أرى أمي وعقيدة السكر رقعاً، رقعاً، فوق قدميها تشدّ بها بعيداً عن لحمها منتزعة الشعر. وأرى أمي تلبس الروب الأطلس وتخرج إلى شرفة المطبخ. وأرى والدي قد أعاد ساعته إلى جيبه. وأراه بين عشرات باقات الملوخية الخضراء يقسمها أربعاً. لأمي، لي، له، للجارة. وأراه أيضاً يسرع خلف أمي حتى المطبخ. وأراه يفتح محفظتها. ثم أراه يسرع خلفها حتى المطبخ ثم خلف الحمام. وأسمع صوتها وأسمع ضربات الحزام الجلدي فوق جسمها. آه أريد أن أفتح عيني. وأفتح عيني. وتعود المياه المالحة التي تسبح في الفضاء تستقرّ بأمواجها عندي. وأعاند عيني ولا أغمضهما خوفاً من أن تنبت أمي والرجل ذاته. خوفاً من أن ينبت مالك، وهو في غرفة الكاراج ينزع عني ملابسي كلها. خوفاً من أن ينبت خالي وأنا أشعر بنبضه عند جسدي. خوفاً من أن ينبت زوجي. آه ما يحدث لي عندما يقترب. أشعر برياح باردة، باردة تجرّ آلاف الحلزونات وتقترب وهي تلتصق بالأرض الموحلة. تزحف والرياح تشتدّ وهذه المرة ترافقها رائحة عفونة. تبدأ الحلزونات تتحسّس جسدي العاري. برائحتها ذاتها. تدخل كل فتحة فيّ والرياح الباردة تلسعني بسوط تلو الآخر. لا

أستطيع أن أبعد كل شيء عني. لا أستطيع أن أقاوم. أشدّ على لحمي وعظامي وأجهد كأن هذا لا يكفي إذ لا تزال الحلزونات تزحف تاركة وراءها الصقيع ولا أستطيع أن أقاوم. مقاومتي هي أن أنهي هذا الزحف. عليّ أن أفنيه بالسكاكين. أفنيه بالحرائق. أريد أن أكون لنفسي. أن يكون جسدي لي. حتى المسافة الأرضية والفضائية من حولي يجب أن تكون ملكي. وإذا رضي زوجي أن يبتعد عن جسدي لا أريده أن يتنفّس ضمن هذه المسافة. «مسافتي». لا أطيق أنفاسه. لا أطيق حتى وجوده. إلى متى يجب أن أمثّل؟ لقد حاولت مع طلال وصديقته. حاولت أن أكون المرأة المرحة. وماذا حدث؟ هجمت عليهم بورودي. هكذا قال ماجد، وهكذا قالا. وهكذا تقول الجالية اللبنانية كلّها. تلاشى عندي كل أمل أن أصبح يوماً ما فرداً منهم. فأنا حاولت أن أتبدّل في التقليد. وكان يجب أن أقلّد البنات هنا، فاذا تركت نفسي على سجيّتها، فلن أعرف ماذا أفعل بحياتي اليومية غير الصمت. ولن أعرف ماذا يجب أن ألبس وكيف أتصرّف. ابتدأت بالضحكة، وما وجدت تجاوباً. بل شدّني ماجد داخل البيت وكنا على الشرفة قائلاً: «لا أحد يضحك بهذا الشكل سوى المجانين». وأخذت المرأة اللبنانية تحدق فيّ وهي واجمة. ويظهر أني ضحكت عالياً وضحكت كثيراً. عندما شدّني ماجد فكرت أن أعض يده وأفلت منها وأعدو في أفريقيا حتى الغابات. لكني هززت رأسي وانحنيت بوجهي صوب الأرض حتى أختفت رقبتي وأخذت أتقوقع صامتة.

بعد أسابيع، دعانا طلال وصديقته لحضور حفلة غنائية لسميرة توفيق. بناءً على طلب ماجد رافقته إلى السوق لأشتري فستاناً أرتديه

الليلة. وكنت قد لازمت البيت منذ مغادرتي المستشفى. ما أن فتح باب المنزل حتى أخذ العرق يغطّيني وأخذ الضباب الحارّ يحوم حول وجهي ونظارتي حتى غطاها بطبقة بخارية. العرق يزداد عند أبطي وعند كفي وينزلق حتى فخذي. ثم أخذ الضباب الحارّ يختفي وتحل محله الشمس. وقتها أحسست بالغثيان وفهمت ما هي أفريقيا، ولماذا هي أفريقيا، ولم أر وأنا في سيارة الشحن التي تهزّني إلا السيارات الأخرى. وددت لو أنام. وكم كان النوم صعباً والسيارة تهزني بشدة. والخجل من ماجد إذا غفوت أيضاً يمنعني.

وأخذنا ننتقل من محل ألبسة إلى آخر، وماجد ينتظرني لأن أختار، وأنا لا أجرؤ على مد يدي إلى الفساتين المعلقة بل أكتفي برؤية فستان أو اثنين. ثم أجد نفسي أزم شفتي علامة على النفي. وهكذا إلى أن طفنا عشرات المحلات وأنا لا أعرف لماذا أتصرف هكذا ولا أعرف لماذا بالتالي أوافق على دخول المحلات وأنا على معرفة سابقة بأني لن أختار شيئاً لأني لن أرى شيئاً. ويظهر أن ماجد كان يعاني من العقدة ذاتها. كان يقف متردداً مثلي، حائراً لا يقوى على الاختيار حتى على محادثتي أمام البائعة. بل يكتفي بالوقوف عدا مرة عندما أومأ لي مشيراً إلى أحد الفساتين وكان لامرأة سمينة جداً. خرجنا من المحلات والضيق من الرطوبة والحر اشتد كثيراً. وصلنا إلى المحل الأخير حيث تركني ماجد عند الباب، بعدما أعطاني مالاً لم أعدّ ورقاته. وقال لي: «اشتر مثل ما بدك، وبعدين برجع لك» ولمّا تركني، وجدت أنه عليّ أن أختار أي شيء وأشتريه. رأيت تنورة فضية مع بلوزة شبيهة بتنورة صديقة طلال وبلوزتها. دون أن أتكلم أخذتني البائعة إلى غرفة صغيرة. أرتديتها ووقفت أمام المرآة وسط الغرفة. ربما بقيت واقفة

طـويلاً، لأن البـائعة دخلت ورأتني لا أزال أرتـديهـا حتى سـألتني إذا كنت أود شراءهـا. هـززت رأسي بـالإيجـاب. وجلست مـع الكيس أنتظر ماجد. عندما ارتديت ما اشتريتـه في المساء وخـرجت إلى غرفـة الجلوس حيث طـلال وصديقتـه كانـا ينتظران مـع ماجـد، حـدق بي الثلاثة غـير متأكـدين من أن الواقفـة هي أنا. بعـد لحظة شعـرت أن تحـديقهم لم يكن عـلامـة اعجـاب وجلست أحـاول أيّ حـديث فلم أستطع، لم تعد أعينهم شاخصة نحوي بل في اتجاهات أخرى. كانوا يتحاشون النظر إلي. سمعت ماجـد يتنهد تنهـدات عميقة مشحـونة. ورأيته يقف ويقول: «يللا». فجأة شعرت بكرهي لطلال ولصديقته. فماجد دائماً ينتظر أن ينال اعجاب طلال في أي شيء يخصه وأعتقد أنه كـان يخجل بي. ومـا أن أطللت عليهم في غرفـة الجلوس، حتى مـال عليّ ماجد يسألني كيف اشتريت ما أرتديه؟ وهـل نظرت إلى نفسي في المـرآة؟ وعاد يمـدّ إلى كلينكس ويقول: «امسحي تمّـك، كأنـك قـطة أكلت أولادهـا». وبعدمـا صمت عاد يحـاسبني قائـلاً: «معقول حـدا يلبس تنورة مثل تنورتك بها القصر وبها الضيق؟ شـو حضرتك جـاية من فرنسا أم من بلاد الانكليز؟». وعندما لم أجبه بكلمة عاد يحاسبني: «يـا ريت تنـورة قصـيرة وبتبـين جسمـك حلو، شـوفي الحبـوب عـلى اجريك وفخادك. وهالحمـرة وهالقلم الأسـود على حـواجبك مبينـك مثـل البربـارة». وأخذ يحـاسبني أكثر وأنـا واجمة أفكـر في أني فقـدت الأمـل. فأنـا إذا انزويت ولم أتكلم ولم أتصرف كـامرأة طبيعيـة تلبس وتضحـك انتقدني هو وانتقدني الآخرون. وفي السيارة أخـذت دموعي تنحدر وأنا أحـاول منعها. أفكـر أن الذنب ليس ذنبي. لقـد بخل الله عليّ بموهبة الشكل وبموهبة الاهتمام بهذا الشكل. ووجدت نفسي أرفع

يدي إلى وجهي وأتحسسه بل أتحسس فجوات وفتحات. قلت لماجد إني أريد العودة إلى البيت. ويظهر أنه كان ينتظر هذه البادرة منذ أن أطللت عليهم وهم في غرفة الجلوس. فسرعان ما مال إلى طلال وأسرّ في أذنه رغبتي. ولم اسمع احتجاجاً حتى ولو كاذباً. وأدار طلال مقود السيارة وعاد بنا راجعاً والسيارة تقترب من الشارع العريض. ثم تنحرف إلى اليمين حتى تصل إلى شارع غير معبد فيه رمال تختلف عن كل الرمال التي رأيتها في حياتي. على جانبيه بعض خيام من القصب هي بمثابة مقاهٍ للزنوج. ثم بيت صغير منفرد في آخر الشارع. حفظت جدرانه بين حزني وصمتي. نزلت من السيارة حاولت أن أقول شيئاً ولم أستطع. لحق بي ماجد يمسك بيدي بقوة ويسألني لماذا لم أودّع طلال وصديقته. لم أجبه، بل أسرعت أدخل الحمام وأغلقه خلفي. وأخذت أميل برأسي أهزّه. أهزّه. وأصرخ في داخلي أصرخ عالياً لكن صراخي لا يزال في حلقي. لقد فقدت صوتي. طرقات على باب الحمام. اتركني. اتركوني. أريد أن أنام وأنام وأنام. لا أريد أن يحاسبني أحد على أي شيء أقترفته أو سأقترفه. لو أستطيع النوم على أرض هذا الحمام. لو أظل وحيدة لا أسمع صوتاً. لو يفقد كل الناس أصواتهم ويتيهون بلا صوت. لو أستطيع النوم على أرض هذا الحمام إلى الأبد. في الحمام فقط لا أشعر أني في أفريقيا بل أضيع ولا أعود أعرف أين أنا فعلاً. من الأفضل أن آخذ هذا الحمام عالماً لي. فقط هذا الحمام في كل مسافات الأرض والسماء، حتى يسكت هذا الطرق المستمرّ فوق بابي. حتى يسكت هذا الصوت الذي أميِّزه بين آلاف الأصوات لأنه الوحيد في هذا البيت. هذا الصوت المفروض أنه صوت زوجي وصوت والدي وصوت أمي

تهرب منه خائفة إلى الحمام. خائفة تختبىء تحت السرير. لكن صوت والدي رغم ضخامته وارتفاعه هو حنون بالنسبة إلى صوت ماجد. لأني قد اعتدته بينما ماجد هذا الغريب عني، صار في ليلة واحدة زوجي. دون أن يعرفني أو يعرف ارتجافي وشعوري بالبرد عندما وقفت أنا وأمي خلف الباب نرتجف. كنت أشم رائحة يدها. لا يعرف كيف حفظت عن ظهر قلب خطوات والدي وتكتكة ساعته المستديرة وشاربي هتلر. لا يعرف غثياني على طريق الشام. لم يكن معي وأنا جالسة مع جدي أراه ويده المرتجفة تمسك «بالمبر» وتشك فيها وريقات التبغ الخضراء. لم يكن معي ويدي تمتدّ إلى وجهي تحفر فيه خنادق. تمتدّ إلى قدمي وفخذي تترك آثاراً مستديرة غامقة. ماجد الزوج الغريب عني: ماذا يفعل إلى جانبي في السرير؟ ماذا أفعل أنا إلى جانبه؟ ماذا يفعل فوق جسمي؟ إلى متى ستظل الحلزونات الباردة تزحف وتغطي بزحفها جسمي البارد؟ يا ابن خالتي قاسم لا أريدك أن تعكر صفاء جدي. أبعد يدك عن أسفل بطني. لا أريد أن أعكر نوم جدي. أبعد هذه اليد المثلجة التي لا تمت لي بصلة من كثرة برودها وجمودها. يا خالي كيف تنبض عند فخذي. كيف تجعلني أرتجف كالريشة، كالورقة وأعدو مختبئة منك، من نظراتك ولمسة أصابعك المقزّزة وذراعك التي امتدت واحتضنتني ذات مساء في السينما. كيف لا تجعلني أحتمي بك وأنت يدعونك البطل والذكي؟ بطل؟ وأنت يا أفريقيا هربت من لبنان إليك، فلماذا أيها الثعبان لم تنفث لعابك الدافىء وتجعلني أتكوّر ضمن حدوده؟ لماذا أعدتني إلى تلك الغرفة الحقيرة حيث كنت أرتجف كلما سمعت عجلة سيارة فوق الأرض. حيث كنت أبلع ريقي كلما سمعت بوق سيارة يضرب في فسحة

الكاراج؟ في الغرفة التي رأتني عارية ورائحة مالك، تختلط برائحة مازوت السيارات. ووالدي وخياله فوقي وأمي في فراش واحد مع الرجل الذي كان يعطيني الدمى وفخذ الدجاج والذي ينام على حضنها بينما هي تمد أصابعها السمينة البيضاء بين خصلات شعره المالسة وتغني له «أيها النائم» وتنساه فترة، وهي تحاول أن تركز على صوتها وتجعله شبيهاً بصوت أسمهان. يا مالك هل لازلت تحاضر؟ هل لا زلت تأخذ الفتيات إلى المقهى، مقهى الهاربين؟ وبعد المقهى وجبران خليل جبران، والحب العذري تمسك بيدها وتقودها إلى ممارسة هذه المحاضرة؟ أرجوكم أتركوني في هذا الحمام الذي يجعلني أضيع في الزمان والمكان والذي يقطعني عن العلاقات البشرية يسدّ ذكرياتي عن عملي في الريجي حيث العاملون هناك هم أشبه بعلب الدخان الوطني المدموغ. كلهم شخص واحد. أصواتهم واحدة. وأنا المختلفة بوجهي الزاحفة عليه المستنقعات. وبارتباكي من أن يكون مالك ينتظرني في سيارته خارج المصنع. ثم العودة إلى البيت والخوف من والدي وأن يكون قد سمع بعلاقتي ومالك. والخوف من أمي أن تكون قد درست وحفظت جيداً تصرّفات المرأة وهي تتعرّى أمام الرجل. ونومي كل فترة بعد الظهر وظهور قرينتي التي كان يتكلم عنها جدي. الجنيّة، التي تختار أن تسكن في الإنسان وتبقى في سلام وهدوء معه. ما أن يحين وقت نومي خاصة في النهار حتى يبدأ صراع قرينتي والكوابيس. أحاول أن أفتح عيني ولا أستطيع. أحاول أن أصيح وأشدّ على حلقي بكل ما عندي من قوة. لكن أوتار صوتي مقطّعة تماماً «القرينة تقف بيني وبين حلقي. بيني وبين عيني. بيني وبين أفكاري. وبين الدقّات التي أسمعها فوق البلاط. الدقّ كنت

أسمعه كل لحظة. وأعود أنتظر الدقّ الذي يليه. كان الدقّ فوق البلاط عميقاً. أحاول فتح عيني ولا أستطيع. أحاول الصراخ لكن أوتار حلقي مقطّعة. الدقات لا تزال ولا تفارق سمعي إلا لأعود أسمعها. أحاول الاستغاثة ولكني لا اقوى على ذلك. فتحت عينيّ فجأة ورأيت عمتي نجيبة تقف بقدمها العصا الخشبية وفي يديها كيس من القماش وعلى رأسها القمطة السوداء. ولما رأتني أحدِّق فيها وكأنها قد هبطت في مظلة طائرة قالت: «شو نومك ثقيل يا بنت خي. صارلي ربع ساعة وأنا دور بها البيت وأنت نايمة منيح ما كنت شي حرامي... وين أمك يا زهرة». ؟ وأنا لا أزال أهدس في قرينتي التي فكرت أنها سوف تخنقني ولن تتركني كعادتها، وأخبرت عمتي نجيبة عن القرينة. فجلست تقرأ سورة الفاتحة ولما انتهت فتحت كيس القماش وأخذت تضع على السرير الكشك وكيس الصعتر الأخضر وكيس البابونج وكيس اليانسون.

أريد أن أظل في هذا الحمام رغم الطرقات التي لا تزال تدقّ في أذني، وصوت الغريب الذي وفد على حياتي، لأني فقط تمدّدت على طاولة الدكتور العجوز وممرضته تسرّح شعرها وتضع أحمر الشفاه غيباً. لهذا فقط أنا الآن في حمام هذا الغريب عني وعن كل شيء في. غريب عن القرينة وعن عمتي نجيبة وعن غضب والدي الذي ما أن أتذكره وغضبه حتى أتذكر مقطعاً من محفوظات المدرسة: «وكأن غضب السماء قد انهمر عليه». لا أريد أن أفارق هذا الحمام. هذا صوت خالي هاشم. هذا القريب الغريب. سمعت صوتي يعلو. لكن كأن قرينتي زارتني في ساعات الصحو واليقظة. وقطعت حبال صوتي. وها أنا محاصرة في هذا الحمام. صوت خالي هاشم يطلب مني

أن أطمئنه بكلمة واحدة. هل يفكر أني انتحرت؟ هل من المعقول أن أحاول الانتحار بهذا الحمام الذي يخلو من بابور الكاز وقنينة الكاز ومن الكبريت؟ وغادرتني قرينتي. فتحت الباب ودخلت الغرفة أبحث عن الراديو الترانزستور وأتناول شرشفاً، وأسمع ماجد يخبط بكفه فوق رأسه ويقول لخالي هاشم: «خلص، لح افقع يا هاشم أول امبارح شافتها سعاد امرأة علي موسى تتمشى حوالي البيت وهي حاملة ها الراديو، وكأن صوته واصل لعند ربنا. الست زهرة حاملة الراديو وبترقص بالشارع، إيه والله، استحوا العبيد يعملوا هيك». وإزاء صمت خالي صاح ماجد بنرفزة: «ما بقى فيني احملها واحمل طبعها يا شيخ. شو عامل لربنا حتى يعترني هالتعتير، ويشحرني هالشحار. خلصني يا ابن عمي بالتي هي أحسن».

أين قرينتي. لماذا لم تعد تزورني. هل لأني لم أعد أنام في النهار؟ أم لأن نومي اتصل ليله بنهاره وما عادت تعرف متى أنا نائمة. هل صحيح أنها زارتني في وضح النهار ونادتني مرة ولما خفت منها وما أجبتها لم تعد تأتي إلي سوى في المنام. اختلطت علي الأشياء والنوم يختلط مع الكوابيس التي تحضرها وتمارسها معي. تستغفلني بعد أن تخدرني تماماً وتشلني فأتخبط بين ثقل أجفاني وجفاف حلقي ودقات قلبي المتضاربة والتي من شدة خبطها كانت تؤلم رئتي وتجعل تنفسي شديد الصعوبة. كانت عمتي نجيبة تقول إن القرينة هي الخير والشر معاً. هي تلازم كل شخص منذ صغره وتناديه دائماً دون أن تدعه يراها. وإذا شك هذا الشخص مرة في صدق وجود قرينته، كانت تجعل من يقف قربه يسمع صوتها كمن يشهد على حقيقة وجودها.

أخذتني أمي مرة إلى الجنوب عند جدّي وتركتني معه في خيمة

شكّ التبغ بينما كان رجلها ينتظرها في مكان ما بين غرسات التبغ أيضاً. أخذ الوقت يمرّ بطيئاً رغم أني كنت بصحبة جدّي، الذي كان منهمكاً في شكّ الدخان في الميابر العديدة أمامه. لم يحدثني ككل مرة ولم يمدّ يده إلى جيبه ويعطني خمسة قروش أشتري بها البذور. كان يريد أن ينتهي في دقائق، لأن جمعية أبناء الجنوب التي ينتمي إليها سوف تجتمع عند باب الحسينية لترسل وفداً إلى أحمد بك الأسعد. احترت ماذا أفعل. جرَّبت أن أشكّ التبغ وكان الأمر أصعب مما خلته. فالذي جعله صعباً هي الشمس التي كانت تحرق سقف الخيمة التنك. وكان اللهب يصعد من أرض الخيمة الباطون. بينما مياه الجرة وإبريق الفخار كانت ساخنة، ساخنة. خرجت من الخيمة إلى الأرض الحارقة، بينما امتدت بيوت النبطية الفوقا بحاراتها كأنها بيوت ليست حقيقية ولا يسكن فيها أحد وبدت تحت الشمس كقلعة تاريخية باهتة اللون بجامعها الصغير وبأدراج بيوتها وبحاراتها. ووجدتني أخلع حزامي النايلون الأسود وأجره ورائي كأنه حمار حتى دنوت من بركة كبيرة تسكن فيها الضفادع والأوساخ وعلب الكرتون الفارغة. بدا كل شيء هادئاً، ساكتاً. تلفت حولي وقلت: «يا الله أرسل لي رفيقة ألعب معها». وعدت أمدّ الحزام إلى مياه البركة وأنا أنحني به حتى لامسها. فجأة رأيت في البركة بنتاً، لم أكن أحلم، تمعنت في الصورة الظل تأكدت أنها ليست أنا. فشريطة شعري لا تظهر ويدي التي تمسك الحزام هي يد أخرى في البركة، حتى شكل الوجه كان يختلف، سمعت اسمي وكأن أحداً يهمس به. كأني رأيت شفتي بنت البركة تتحركان. أصبت بالهلع. التفتّ إلى الخيمة أركض في اتجاهها وأقع فوق الحجارة ثم أنهض وأركض مرة أخرى. وتراءت لي المسافة

بين البركة وخيمة الدخان بعيدة وفكرت: متى أصل إليها متى؟ وما أن وصلت حتى كان لهاثي قد أخذ يحدث صوتاً، رغم أنني حاولت التغلب عليه بأن أتمالكه وأحبسه وعندما لم أستطع، فكرت: «أنه ربما لهاث الفتاة القرينة التي تراءت لي للمرة الأولى وخفت منها». ثم وقفت على عتبة الخيمة وأنا أرمق البركة عن بعد ومنذ ذلك الوقت منذ أن نادتني قرينتي وخفت منها لم تعد تظهر لي بل كأني سمعتها تقول «التوبة» عندما ناديتها وأنا متكومة في حمام خالي.

«ما الحل»؟ يسأل ماجد بصوت نصفه هادىء والنصف الآخر عصبي. ووجدتني أقول «دعني أذهب إلى بيروت، ثم أعود بعد فترة». وأخذت أبكي. اقترب مني خالي مادًّاً يده يتحسَّس عنقي. عندها أخذت أبكي أكثر، لأني لا أستطيع رفع يده عن عنقي. لأني لا أستطيع إلا البكاء في هذه الحالة التي هي كمصيدة الفأر. هذه اليد الباردة فوق عنقي. لو يشلّ نبضها. كل شيء في خالي ينبض حتى كفه؟ كأني أسمع دقات نبضها. ووجدتني أرفع رأسي لأسمع جواب ماجد بل جواب خالي الذي قال إنه سيحجز لي حتى أسافر بعد غد. ووجدته يسألني إذا كنت أودّ المبيت عنده ريثما يحين وقت سفري وهززت رأسي نفياً مما أفرح ماجد الذي أردف قائلاً: «هالبيت بيت زهرة، إذا بدها أنا بطلع والله مستعدّ». وأنا أفكر في الهرب من هذا الرجل الغريب عني، عن جسدي وعن سمعي. وأنا أفكر في الهرب من خالي. أفكر في الهرب من طلال ونظرات صديقته المشفقة علي. من أفريقيا كلها. أريد الهرب من القبر الذي ردمت أسراري فيه. أريد أن أعود إلى نفسي. أن يعود جسدي لي.

وصلت إلى بيروت. وصلت إلى مطار بيروت، ورأيت وجه والدي

المتجهم سائلاً إياي عبر النافذة: «ما الخبر؟» ووجدت وجه أمي المستدير السمين الذي يكاد يفقع من كثرة امتلائه حائراً إنما بهدوء. كنت قد نسيت ما ينتظرني في بيروت. ما أن أصبحت بينهم واقتربت من أمي أقبلها ومن أبي الذي بالكاد قرب وجهه مني حتى سألني: «شوفي يا زهرة. يللا قولي ليش رجعت وأنت صار لك شهر متزوجة، شو بدنا نقول للعالم. شو بدنا نقول لأهل ماجد. إن شاء الله أحواله منيحة حتى تزوجتيه». واحترت بماذا أجيبه، ووجدتني أتلعثم وأقول: «هلق بالبيت منحكي». في سيارة الأجرة مالت أمي عليّ وهمست: «مخبيتيلنا شيء يا زهرة؟» وأجبتها دون أن أفهم: «لا يا ماما، شو بدي خبّي». كأنها عرفت أني لم أفهم ما قصدت فعادت وأسرت في أذني: شو عم تتوحّمي، إن شاء الله حبلى ومنشان هيك جيتي؟». ابتسم لها وأهز رأسي نفياً. كأني بهذا قطعت أبواب الأمل كلها. فكّرت أمي أنني حامل. وقد صدقت تفكيرها ولم تشك في عدم صحته لحظة واحدة. لذلك تجهّم وجهها هي الأخرى وسألتني بسرعة: «طيب، ليش جيتي؟ في شيء أنت وابن عمك؟» (ماجد) «تخانقتو؟ أنا كل عمري بفكر مين بدو يقبل يتزوجك وأنت مثل أبو الهول لا كلمة ولا ضحكة». تذكرت أنها لم تسألني عن أخيها. فكرت في ماجد وفي عصبيته. وفيما إذا علم مالك بزواجي وبخبر عودتي إلى لبنان. سألت أمي عن أحمد. وهنا تجهّم وجه والدي وقرب أصبعه من فمه بمعنى أن سؤالي ليس في محله الآن. وهمست في أذن أمي مرة ثانية مستفسرة عن أحمد فأجابتني: «أحمد الله يوجه له الخير شاب منزوع، بعدين بخبرك». وعادت تنظر إلي وتتأملني وفي عينيها كلام وفي فمها كلام. ومع ذلك بقيت صامتة لكن لوقت قصير: «شو

عامله بوجهك يا زهرة؟». ثم مرت بنظرها فوق قدمي ولم تر البثور. عادت تتمتم: «شو بقول جوزك لما يشوف هالحبوب بوجهك؟ الظاهر بعدك عم تتسلى بالنقر». ووجدتني أقول لنفسي أين هربت أنا. إلى أين هربت.

لم أتمكن من إقناعها بأن سبب عودتي كان شوقي إليها فقط وجدت نفسي أيأس من توقف سيل أسئلة أهلي، وأهل ماجد الذين ما أن رأيتهم، حتى كرهت ابنهم ماجد أكثر فأكثر. فلاحون، بكل معنى الكلمة. أمه التي ما توقف بكاؤها كلما ذكرت اسمه ووجهها الذي كان يسأل طوال الوقت إذا هو أرسل لها النقود، وكان الوجه ذاته يتلقى الجواب بشهقات من البكاء مع تلويح الرأس يمنة ويسرة. هنا ظهر ماجد الحقيقي حيث أفريقيا دائماً تخفي الحقيقة. وتعجبت لحقيقته التي رضيت بكل قصصي ومشاكلي وكوني لست عذراء وهو من هذه البيئة، من بطن هذه الأم النحيلة ومن صلب هذا الأب الذي بالكاد يستطيع فتح عينيه الشقراوين والمنديل الذي يتدلى من جانبي طربوشه الأحمر. هل هو فعلاً من بطن هذه الأم التي لا تستطيع حتى الكلام الطبيعي؟ واكتشفت مدى الفرق الشاسع بين بيئة أهلي وبيئة أهل ماجد. وحزرت لماذا هو تزوجني. رغم كل عللي من البثور، إلى عبوسي الدائم، إلى قلة ذوقي، بل سكوته عما اكتشفه فيّ وعما رآه من نوبات عصبية.

ووجدتني مرة، ودون أن يسألاني كالمعتاد عن سر عودتي، أخبر والدي وأمي وكنا حول مائدة المطبخ نتناول طعام العشاء، عن إصابتي بالنوبات العصبية وبقائي في المستشفى أسبوعاً. وأعتقد أنهما

كانا قد يئسا من السؤال والاستفهام، بعدما كنت أصمت الساعات كلما سألاني عن سبب عودتي. ولم أكن أفكر أني سأتورط في هذا المأزق وأنا في أفريقيا. لم أكن أعتقد أن طلبي للطلاق من ماجد سيكون صعباً إلى هذا الحد بل كان يبدو سهلاً للغاية، وأنا أخطط له على الكنبة، بين الشرشف وراديو الترانزستور. كان البعد الشاسع بين القارتين يجعلني أفكر أن كل ما سوف أطلبه من أهلي في لبنان سوف ينفذ وما علي إلا أن أغادر أفريقيا. لكن لحظة رأيت أهلي عبر زجاج غرفة الاستقبال في المطار، تغيرت الصورة وبدا الأمر صعباً. وما أن أصبحت أمامهما وجهاً لوجه حتى صار أكثر صعوبة. وعندما تحدثنا وأفواهنا قريبة أدركت استحالة المصارحة في كل شيء. وماتت الفكرة في عقلي وفي قلبي خوفاً من أن أموت إذا تفوهت بها.

وأخذت الأيام تمضي وأنا في بيروت سجينة البيت ولم أشعر يوماً أني أريد الخروج والتزاور. بل كنت أتصنع التعب، كلما أخبرتني بأن فلانة تريد تهنئتي بعودتي. يبدو أني نقلت إليها حالتي هذه لأنها أخذت ترتبك كلما دق جرس البيت. وإذ جوابها الوحيد الذي هيأته يضيع منها أحياناً كانت تخترع باستمرار جواباً من صنع خيالها عن حملي وإجهاضي والطب المتخلف في أفريقيا الذي لم يفهم طبيعة جسدي. وأخذت أتضايق من هذا السجن ساعة بعد أخرى ووالدي لا يزال يلبس اللباس نفسه منذ الصباح رغم أنه لم يعد هناك ترام في بيروت. ولا يزال يدير ساعة جيبه المستديرة ويقربها من أذنه ويتكلم معي كلماته المبتورة المعهودة. يخرج صباحاً ويأتي ظهراً محملاً بأكياس الورق ذاتها بالخبز والجبنة والبطيخ، وأمي التي لم تعد تغادر

البيت إلا نادراً، أما إذا غادرته فهي تخفي شعرها بالإيشارب وترتدي المعطف الأسود فوق فستانها. وإذا نظرت إليها في حالتها هذه لا أصدق أنها هي بعينيها الزرقاوين الراقصتين وبزنديها الأبيضين وبفستانها الحريري الأزرق تجري إلى عيادة الدكتور شوقي ثم إلى غرفة الرجل وأتسلّق معها الصخور حتى نصل إلى شجرة الجوز أنا وتمنياتي الدائمة لتضمني إلى صدرها إلى الأبد. منذ سنوات سمعت من عمتي نجيبة أن رجل أمي قد تزوج بعدما يئس من طلاقها من والدي وبعدما هددته عمتي نجيبة بالقتل. ربما لهذا كانت تلحقني ليلاً نهاراً طالبة مني العودة إلى أفريقيا. وكانت فكرة العودة بدأت تبدو لي قريبة، خاصة بعدما أرسل لي ماجد ثلاث رسائل يحثني فيها على العودة ويخبرني كم هو مشتاق لي. ويبدو أن سواه كتبها، إذ كانت لغتها جيّدة ومنمَّقة ولم أفكر مرة واحدة واستطعت أن أعرف لماذا هو يريد عودتي ولماذا كل هذا الاشتياق وعلاقتنا لم تكن علاقة رجل وامرأة. لا أذكر لحظة ما تأففت فيها، وما صمت وحلت عليّ الكآبة كلما ضاجعني بل كلما رأيته يدخل البيت. عدا أني لم أسبب له إلا كل خيبات الأمل بالزوجة التي كان يحلم بها. وهذه الرسائل أتتني وكانت الوحيدة من عالم آخر غير عالم جدران البيت ووالدي وتجهمه الدائم وأمي التي ما أن أنظر إليها حتى أستعيد أمي السابقة ولا أرى خيطاً واحداً يربطهما. فهي الآن الحاجة والأم القلقة على مستقبل ابنتها بعدما يئست من أن تبني مستقبلاً لابنها الذي حاول أن يكون بائعاً في سوق سرسق ثم انتقل ليشتغل كقاطع تذاكر سينما. ثم انتهى به الأمر سائق مرسيدس على خط البسطة والحرج.

قررت العودة إلى أفريقيا، حيث لا منفذ آخر لي سواها. أمي

لا تزال عندما تصلي صلاة الفجر تتلو صلاة خاصة تطلب من الله أن يعيدني إلى زوجي. بينما أخذ والدي يكثر من حديثه معي، إنما عن موضوع واحد يسألني كلما التقت نظراتنا السؤال ذاته: «شو يا زهرة بحجز لك عا أفريقيا بكره؟». حياتي أصبحت معهما كلها محاسبة. بل ربما تراءى لي هكذا. أصبحت أخجل من أن أمدّ يدي مرات متتالية لأتناول قطعة من الخبز أو لأضع في صحني المزيد من الطعام وإذا أردت غسل ملابسي كنت أخجل من أن أدلق الكمية التي أريدها من مسحوق الغسيل. أخذت أشعر أن عودتي إليهما فتحت هوة بيني وبينهما، وبين تنقلاتي براحة في البيت. كأن واجبهما تجاهي انتهى بعدما تزوجت بتلك الطريقة. بل إن والدي لا يزال يذكر أن سفري إلى أفريقيا كان هرباً من الزواج بصديق أحمد سمير.

أخذت أفكر وأنا أعدّ حقيبة السفر لماذا لا أبدأ حياة جديدة مع ماجد. لماذا لا أتخذه كصديق وأبدأ العمل معه وأقتنع بأفكاره وأساعده حتى ندّخر ثروة. لماذا أنسى أني قادرة على حفظ حقيقة عواطفي لنفسي خاصة أن الزواج بعد زمن يصبح اتفاقية. هكذا كان يقول مالك، وهكذا تقول الناس ولماذا لا أقول هكذا، إنما في سري؟ شحنت نفسي بهذه الأفكار السهلة. وكلما أحسست أن العودة إلى أفريقيا كابوس عدت إلى هذه الأفكار أتذكر عودتي إلى لبنان ونمط الحياة التي سوف أحياها إذا قرّرت البقاء سجينة البيت وسجينة أهلي حتى سجينة أشيائهم. غداً أعود إلى بيتي حيث أنا كل شيء رغم أني لم أمارس هذا الدور إلا مرة أو مرتين منذ زواجي.

يوم وصلت إلى أفريقيا عائدة كانت تمطر. لمحت من بعيد ماجد وخالي مستندين إلى الجدار. حينما رأياني اقتربا. ورأيتني أبعد وجهي

لحظة عنهما كأني لا أريد التعرف عليهما. لكن أعود فأراهما لا يزالان يقتربان. شعرت فجأة برغبة عنيفة في البكاء. شعرت بأني فعلاً قد علقت في المصيدة. لا أستطيع أن أنظر في وجه ماجد. لا أستطيع أن أتحدث معه، أن أراه يتكلم، أن أراه يأكل، إنه غريب عني. هذا ونحن لا نزال على أرض المطار مع خالي ومع بقية البشر كيف وأنا معه وحيدين في البيت؟ هل أنا فعلاً قد علقت بالمصيدة؟ لا أستطيع أن أعود اللحظة ولا أستطيع أن أبقى لحظة واحدة في أفريقيا. إنها تمطر وقلبي يمطر وعقلي يمطر بما شحنته قبل أن آتي ويحاول الوصول إلى المنطق. لكني سددت أمامه كل شيء ولم أجد نفسي إلا ضمن المصيدة وضمن انفجارات لبكاء لا يزال ينتظر في أعلى حلقي.

كيف عدت إلى أفريقيا وكانت السماء قد فتحت لي أبوابها وأعادتني بطائرتها إلى لبنان؟ كيف عدت بكامل إرادتي بكامل وعيي إلى هذا الفخ الذي لا ينجو منه أحد؟ حتى مدبّرو الفخ أنفسهم. سمعت خالي يقول: «الحمد لله على سلامتك يا زهرة». محيطاً ماجد بذراعه وهو يقربه مني. وما أن اقتربت منهما حتى تسمرت في مكاني ومددت يدي أصافحهما. وما أن مرت يد ماجد ولامست يدي حتى نبتت الحلزونات الباردة تغلفها طبقة رقيقة من العرق وأخذت تزحف عند أصابعي ثم عند يدي. إنها تتزايد وتتكاثر وتزحف حتى جسمي كله. لا. كفى. لا أستطيع. أنا أنتظر من ينقذني. لم أستطع إنقاذ نفسي. لم أستطع شيئاً. هل ينقذني خالي؟ يجب أن يكون هو المنقذ الوحيد. كما أنقذني في المرة الأولى. لكن الأمور الآن أخذت تسير في مجراها الطبيعي، ولم أحاول حتى أن أوقفها: كتناول حقيبتي ووضعها في السيارة، وفتح الباب لدخول السيارة ثم الوصول إلى بيتنا. لقد

وصلنا بسرعة، قبل أن يحين الوقت لأطلب من خالي إنقاذي. سمعته يقول إنه سوف يمر بنا هذا المساء. وعندما أصبحت مع ماجد زحف عليّ الكره مجدداً، وأزاح كل الأفكار التي كنت قد شحنت نفسي بها لأبدأ حياة جديدة معه. ولما اقترب مني وشعرت بأنفاسه، تقزّزت وتلفتّ حولي فما وجدت سوى المطر الذي كان لا يزال يهطل خلف النافذة، أدرت وجهي ولذت بالصمت. سألني عن أهله؛ أخذت أجيبه وأنا لا أنظر إليه، لما اقترب مني محاولاً ضمي إلى صدره. تراجعت. لا يزال يقترب، أتراجع. هو لا يزال يقترب. عندها صرخت لكنه لم يبال بصرختي، ووصل إليّ. أخذت أدفش يديه. أدفشه عني وهو مصمّم على العراك. لهاثه الذي يلحق به يجعلني أتقزّز منه وأكرهه. أصرخ صرخة عالية وأنا أنظر عبر النافذة، لعل أحداً يسمعني. لا أحد، سوى المطر الذي لا يزال ينهمر. وأخذت أبعده عني وهو مصمّم. قررت أنه لن يمسّني إلا وأنا مذبوحة، إلا وأنا بلا حياة كما حدث لجارتنا الأجنبية، صاحبة الكلب التي دافعت عن نفسها حتى الموت عندما حاول اغتصابها مزيّن الشعر. وانتهى كل شيء في لحظات ما عدا عواء الكلب الذي استمر أياماً.

لم يزل ماجد مصمّماً. ولا زلت أنا أدفعه عني، ولما خارت قواي ولم ينفع بكائي أمسكت أسناني بيده تعضّها بكل ما عندي من قوة وسمعته يصرخ وينادني «بنت الملعونة، الكلبة، الحيوانة» وكأنه فقد صوابه وأخذ يهزّ يده محاولاً سحبها من بين أسناني وأنا مصممة على إزالة كل أحاسيسه تجاهي إلى الأبد. ووجدتني فجأة أنطرح على الأرض بعدما دفعني بيده الأخرى وأخذ يرفسني بقدميه ينتشلني ثم يعود فيرميني على الكنبة ويرفسني بقدميه وأنا لا أكفّ عن الصراخ ولا

عن العويل ولا عن البكاء. رحت أصرخ «طلّقني، طلّقني». وسمعته يقول: «يللا قومي، البسي يا مجنونة، يا خوته. ليش جيتي يا بنت الملعونة، ليش انقبرتي جيتي إذا ما بدك ياني. ولك ألف بنت بتتمنى ظفر أجري، وأنت بنت خوته، مجنونه، عم تتكبّري، روحي شوفي حالك عالمرايـة، بعدين خبريني شو بتشوفي». وعاد يصرخ: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ولك تفو، قال بنت أخت هاشم، تشرفنا، وإذا هاشم رئيس الحزب هون، عليه وعلى أنطون سعادة. بنت أخت الزبال ولا بنت أخت هاشم. يا حرام عليك، وعلى شوفتك. يللا قومي البسي، تلبسي عزرائيل، إن شاء الله يلبسك الموت، قبل ما تلبسي يا بنت الملعونة. قومي البسي عم قلك، قومي البسي أحسن ما فكّ رقبتك». واقترب مني، يهزّني ويردد «قومي البسي» ثم انتبه وهو يهزني أني ما زلت في كامل ثيابي ودفعني خارج الباب. عندما فتح باب سيارة الشحن صعدت بصعوبة وجلست وأنا لا أزال أشهق. حاولت إخفاء اضطرابي ولم أنجح رغم أني كنت أشعر أن خلاصي قد اقترب وأني سأرضى بأي شيء عدا أن أعيش معه تحت سقف واحد. اقتربنا من بيت خالي هاشم ثم بدل وجهة سيره حتى قبل أن أنتبه أن سيارة خالي لم تكن واقفة كعادتها عند باب بيته، وهنا بدأ الخوف يسيطر علي كلما أقنعت نفسي بأنه رجل موزون، مالت بنا السيارة. وكانت تهتزّ من السرعة وكأنها ستنقلب بعد لحظات. التفتّ إليه ورأيت وجهاً أصفر ينتفض. كان لا بد من إمساك مقعدي بيديّ الاثنتين وهو لا يزال يسرع، كأنه يتعمد رميي خارجاً. ينهب الأرض وأنالا أعرف أين يأخذني ولا أستطيع سؤاله. مر ببالي أنه ربما يبحث عن هوّة يرميني فيها. أو ربما يأخذني هو إلى الأدغال خارج المدينة

ويتركني هناك حتى أموت من الخوف. لكنه توقف فجأة أمام بيت صغير ميزت أمام بابه سيارة طلال. وهبط من الشحن دون أن يقول شيئاً، ولكن إغلاقه الباب بشدة هو الذي قال بأشياء كثيرة. جلست أبشر نفسي رغم اضطرابي بأن النهاية تقترب. وكيف أني سأتقبلها كما ستكون. عيناي على الباب أنتظر بين لحظة وأخرى خروج ماجد وطلال. جلوسي طال في سيارة الشحن، والمطر ما زال ينهمر. بل إنه لم يتوقف لحظة منذ وصولي إلى أفريقيا كشعوري بالحر والرطوبة. أحببت هذا الانتظار وتمنيت لو يطول. أنا وحيدة مع نفسي. المطر يهطل، والحر يدخل رأسي يضربه من جهة واحدة. فكرت لماذا أنا دائماً في وضع مؤلم، متعب، حتى وأنا متمدّدة على الفراش في بيروت. دائماً هناك ما يضايقني. ترى هل يخلق الضيق مع الإنسان كشكل العينين أو كلون الشعر؟ فمنذ وعيت وأنا في حالة اضطراب دائمة. حالة خوف. وإذا خرجت عن هذه الحالة دخلت حالة أخرى وهي حالة اللا شيء. أشرد وأحملق ساعات متتالية دون الشعور بتلك الساعات. أنظر حولي ولا يعني لي أحد شيئاً كأن الأرض تنشقّ شقّين وأغدو أنا على شقّ والعالم كله فوق الشقّ الآخر. لماذا لا يخرج ماجد وطلال؟ هذا الطلال الذي شعرت بكراهيته لي منذ اللقاء الأول، إنه الوحيد الذي وضعني في مكاني. فتاة أقل من عادية في الجمال والشخصية. كل ما فيها أنها ابنة أخت هاشم. فجأة أطل ماجد وحيداً واقترب من السيارة ولا أعرف إذا كان ينظر إليّ وكيف كانت ملامح وجهه. وأخذت أتمنى طوال الوقت والسيارة تنهب الإسفلت أن يجد لي مكاناً غير بيته ريثما أعود إلى بيروت. أخذ الوقت يمضي بسرعة وأنا لا أزال أتمنى الفرج القريب. أقبض على يديّ وأتشبث

بهما رغم العرق الذي أخذ ينزّ من أصابعي المتشابكة. وقبل أن أحزر أين يأخذني وأتمنى أن لا يسلك طريق البيت التفت إليّ وسألني إذا كنت أريد الطلاق، فهززت رأسي موافقة. وسمعته يقول: «قولي هذا أمام خالك هاشم، لأنني لن أدفع قرش مؤخر». ووجدتني أرتاح وأسأله: «ومن طلب منك المؤخر؟» قال: «إذا أنت ما فكرت، أهلك بكونوا عم يفكروا ويحسبوا». أجبته بعصبية: «أنت غلطان أهلي مش هيك. أهلي ما بيسألوا عن المصاري، المهم سعادتي». التفت إليّ بكراهية وصرخ: «سعادتك؟ طيب بشو أنا عم ضايقك؟».

وكان جوابه هذا صادقاً. ولم أجبه، رغم أني فكرت أن أقول «معلهش أنا لست للزواج، وعندما يتم الطلاق لن أتكلم مع أي رجل. إني أكره الرجال». لكني لم أستطع فتح فمي، لا أستطيع التحاور مع إنسان، أريد أن أنام. أنام. واقتربت سيارة الشحن من بيت خالي هاشم وكانت سيارته واقفة قرب الباب هذه المرة. أومأ لي ماجد وهو يهمّ بالنزول. فترجّلت ووقفت بعيداً عنه، وهو يدق الجرس مرة وثانية وثالثة، قبل أن يطل خالي مندهشاً لرؤيتنا، محمر العينين، قصير القامة، رفيع الشفتين، وجمع روبه عندما رآنا، ووقف حائراً ثم انتبه أنه لا يزال يمسك بالباب، ففتحه وقال: «تفضلوا». فسأله عندها ماجد وهو يدخل إذا كنا قد أيقظناه من النوم وكان جوابه: «ولو الست زهرة هون وعم تسأل؟» وجلست على الكنبة البعيدة، وابتدأ ماجد بالحديث قائلاً: «بالإذن من زهرة، بس يمكن لازم توضيح الأمر». وأخذ يخبر خالي عن كل ما جرى منذ أن تزوجنا حتى الآن. وخالي صامت ثم تنحنح عقب سكوت ماجد وفاجأني خالي ولم يفاجئني في الوقت نفسه عندما أوضح لماجد بما معناه أن

كوني لست عذراء هي قصة تافهة ويجب أن لا تذكر أو يعلق عليها شخص متعلم أو يفهم. قاطعه ماجد: «أنت بس عم تقول هيك لياقة يا أستاذ هاشم؟». فعارضه خالي هازاً رأسه ويديه: «لا لا يا ماجد، وحياتك، أنا ما بحكي شيء لا أقصده. يمكن أنت ما بتعرفني منيح، بس اسأل عني. هيدي قصة ما حدا يبحث فيها بالقرن العشرين. نحن الشباب يجب أن نؤثر على أهلنا وعلى أصحاب العقول الصغيرة بالنسبة إلى هذا الموضوع. بس الذي ضايقني بكل القصة، مستقبل زهرة، يمكن لازم زهرة تتزوج هالشخص اللي عم تحكيلي أنت عنه، الظاهر أنه لازم نساعدها حتى تتزوجه». والتفت خالي إليّ قائلاً وقد انفرجت أسنانه: «ولو يا زهرة ليش ما بتحكي، هيك بتتزوجي، وعقلك مع حدا ثاني؟» وتنهدت وأنا أفكر كم هو بعيد عن الصورة، كم هو فعلاً في أفريقيا. بدأ باستجوابي عن اسمه عن عمله ولماذا لم نفكر في الزواج إذا كانت علاقتنا قوية إلى هذا الحد. ولبثت صامتة. أحدق في صحن الفاكهة. عاد يستجوبني، ويستنتج الأجوبة من أسئلته ويقول: «يمكن هو مسيحي ويمكن خفتِ من أهلك أو في سبب ثاني ولو ليش ما كتبت لي عنه: كل هالمكاتيب وما وردت سيرته. شو القصّة يا زهرة؟. يللا يا خالي، خلينا نحلّ الموضوع. يللا قولي يا خالي من هو الشخص حتى أساعدك أنا وترجعي تنبسطي في حياتك». تنهدت وفكرت كم هو بعيد. وكم من الأفضل أن نغلق الموضوع لأني لن أفتح فمي. ولبثت أحدق في صحن الفاكهة. إلى أن سمعت وقع أقدام والتفت فرأيت امرأة زنجية. تلبس فستاناً أوروبياً يكشف عن معظم صدرها وفي قدميها صندل ذهبي وعلى شفتيها السوداوين أحمر شفاه. تتقدم

صوب غرفة الجلوس، قادمة من غرفة خالي. تتقدم بهدوء كأنها تنتظر إشارة منه. لكنه تابع كلامه رغم أنه كان ينظر إليها. هزت رأسها محيية ثم تقدمت نحو الباب لتختفي بينما خالي لا يزال يتابع كلامه عن قصد ربما، عيناه تتفرسان في عيني ماجد المتعجبتين وكأنهما تؤكدان أن هذه المرأة زنجية وأنه كان معها في السرير منذ قليل. ثم أخذ يفقد أعصابه تدريجياً من سكوتي وتحديقي المتواصل في صحن الفاكهة. أخذ صوته يعلو وعباراته تتناثر بعصبية. أصرّ أن يعرف ما هو اسمه؟ وإذا كان في وسع أهلي الاتصال به. ثم قال إنه لربما من الأفضل أن يتصل به مباشرة هو شخصياً وهاتفياً وبرقياً بمالك. كيف أستطيع أن أبعده عن هذا التفكير؟ كيف أشرح له علاقتي بمالك، كيف أستطيع تركيبها في عبارات مبتدئة بأنه لا علاقة لي بالموضوع بل كنت شاهدة منذ البداية حتى النهاية حتى الآن وكنت أنا متفرجة ثم شاهدة على خرق عذريتي فوق السرير القذر. عندما حملت كنت شاهدة على هذا بجسمي وعلى طاولة الدكتور العجوز وممرضته التي تشبه فرانكشتين. وإذا سألتني يا خالي: لماذا هذا كله هل كنت تحبينه؟ أقول لك: لا. لم أحبه. لم أطقه. لكني كنت مخدّرة. أعتقد أنه كان يكتب لي الأحجية عند السحرة والمشعوذين. وإلاّ لماذا كنت دائماً أقبل معه وأنا لا أشعر بعاطفة نحوه؟. وكان مسلسل الرعب يسيطر علي دائماً لحظة أصل إلى البيت وأتحاشى الكلام مع أمي وأبي. لماذا كنت أدع هذا الهلع الهائل يدخلني كل دقيقة من أيامي. وأنا في المصنع كنت أفكر إذا كان مالك ينتظرني بسيارته خلف المدخل العام. وإذا رآه والدي رغم أن هذا مستحيل فهو لا يعرف حتى مكان عملي. لماذا جعلت الخوف يأكل وجهي، يأكله ويدعه ممصوصاً بلا حياة. إذا كنت أعيش

في دوامة من الاضطراب والصخب والارتعاش. وكنت أستطيع بسهولة أن أطرده من حياتي لو قلت له مرة واحدة: لا. وهل هذا ضعف؟ وما هو هذا الضعف؟ ولماذا اختارني مالك؟ هل كان مكتوباً هذا على جبيني وقرأه مالك قبل غيره وحفظته أنا عن ظهر قلب؟ ولماذا بقيت شاهدة متفرجة لا أستطيع أن أخبرك بكل هذا يا خالي؟ لست خائفة من البصقة. لست خائفة من الصراخ أو حتى من الهدوء، لكن لا أستطيع أن أخبرك. لا أريد أن أتحول إلى امرأة أخرى. أريد أن أكون المرأة التي تعرفها وأريد أن أترك أفريقيا. أترك ماجد الغريب عني. وأزحت نظراتي عن الصحن وقلت لهما «هل نجرّب مرة أخرى؟». ويظهر أن ماجد لم تعجبه هذه المفاجأة. وكانت المفاجأة كبيرة لأنه تلعثم وهو يحاول أن يشرح موقفه. لكنه عاد واختصر الأمر بقوله «ربما يجب أن نجرب مرة أخرى». أما خالي فقد علت وجهه الدهشة وتمتم: «أنت يا بنت أختي مش معقولة». وطويت صفحتي مع مالك دون أن يعرف خالي التفاصيل وقد اخترت هذا الحل حتى لا يتعرف خالي على زهرة أخرى ووعدت نفسي بل أجبرتها على التحمل كحلٍ أخير. وأنه يجب عليّ أن أعود إلى أفكاري التي اقتنعت بها وأنا في بيروت وهي أن أبدأ من جديد لأنه لا حل لي سوى العيش مع ماجد. خاصة بعدما دخلت السوسة في خالي وهي حاضرة في أية لحظة لتبدأ بالنخر. السماوات السبع يجب أن تقف بين معرفة خالي وأهلي بقصتي مع مالك. السموات السبع يجب أن تقف بيني وبين مطالبة مالك بالزواج مني. إنه سينفي حتى رؤيته لي وحيدة. وأنا لا أريده. بل إني أقرف من أنفاسه ومن جسمه. يجب أن أشحن كل قوة بي إذا كان هناك ما تبقى وأجعلها تتقبل الواقع

وتعيش مع ماجد. هكذا كتب لي.

لما عدنا إلى البيت قلت لماجد يجب أن نتزوج من جديد، أجاب حائراً كأنني ضربته على رأسه ولم يعد يفهم الكلام شو؟ نتزوج؟ ونظر إلي وكأني تلقيت ضربة داخل رأسي فتناثرت أشلاء دماغي هنا وهناك قال: «ما نحنا بعدنا متجوزين يا زهرة.. أو نسيتي؟». أجبته: «بدي نتزوج من جديد» وأخذت أفكر في من سوف ندعو ومن سيكون الشيخ الذي سيعقد قراننا. وماجد صامت ينظر إليّ مصعوقاً ثم اكتفى بقوله إنّه عليّ أن أنام بعد هذه الرحلة. ولم أصدق أني كنت صباح هذا اليوم في بيروت. يبدو أن سنين طويلة مرت وأنا في أفريقيا والسماء تمطر، ورائحة الرطوبة تنبعث من كل مكان. حتى من المنزل ومن شعري يبدو أني كبرت منذ هذا الصباح. كأني أرى شعيرات بيضاء عند آخر جبيني لم أرها من قبل. دخلت الحمام بدلت ملابسي ثم أصررت بيني وبين نفسي على ارتداء الروب فوق قميص نومي. عدت إلى الغرفة ودخلت السرير كنت أريد أن أمثل أني نائمة منذ وقت قبل أن يفد ماجد من الشرفة حيث يشرب كأساً من العرق كان قد سكبه لنفسه. لكن ماجد دخل بعدي بلحظات إلى السرير وأدار لي ظهره. بعد دقائق سمعت نفسه الذي يقهرني كلما سمعته. لكنه كان تنفس نوم عميق. عندها فقط استطعت النوم وقد ابتعدت حتى حافة السرير وأنا أضم قدمي حتى وصلت بهما إلى بطني وأحطت صدري بيديّ ونمت. قبل أن يستيقظ في الصباح وجدتني أسرع إلى الحمام أبدل ملابسي وأفكر في أن الحياة تستطيع أن تكون جميلة سهلة، إذا كانت كالبارحة، وكهذا الصباح. لا أحد يلمسني ولا أحد يستجوبني. وأخذت للمرة الأولى منذ تزوّجنا أقوم بتحضير الترويقة

والشاي. وعندما رأيت ماجد يدخل المطبخ ببيجامته، تضايقت في سري. إني أريده كصديق وأنا لا أحب رؤية الصديق مرتدياً البيجامة. جلس يتناول فطوره وهو صامت. بينما بدأت الحديث هذه المرة بكل حماس أذكره بحفلة الزواج التي سنقيمها الليلة ويبدو أن الدهشة لم تفارقه بعد، لأنه عاد وسألني إذا كنت جادة وهززت رأسي بالإيجاب. ولما أطل ذلك الليل أخذ أصحاب ماجد يتوافدون مع زوجاتهم. انتبهت إلى النظرات الغريبة على وجوه الجميع. ولم أفهم إذا كانت نظرات شفقة أم دهشة عدا خالي الذي قال لي هامساً: «عائلتنا دائماً غير شكل». النظرات التي كانت غريبة أخذت تدريجياً تظهر هويتها. إنها نظرات دهشة تليها نظرات شفقة. أحاديثهم معي كانت كالآتي: «كيفك هلّق إن شاء الله أحسن، إن شاء الله ما عدت حسيت بشي. الحمد لله». وكانت نظراتهم تتأمل كل جزء مني. وفجأة أدرك أنهم كانوا يضحكون عليّ ويتهامسون فيما بينهم على الرغم من أنني حاولت جاهدة أن أكون مثلهم في هذه الليلة. وأخذ ماجد يضع الأسطوانات ويدعوهم للرقص. ولما امتلأ الصالون بالراقصات ورجالهن وجدت نفسي الوحيدة الجالسة، أخذت أسأل نفسي أن تنهض وترقص. أن تدفع كل الخجل ابتداء من هذه اللحظة حتى تصبح واحدة منهن. إنها ليلة قراري أن أتزوّج، ولهذا كان هذا الرقص والغناء. وفجأة وجدت نفسي في وسط القاعة. أغمض عيني وأبدأ بالدوران وبتحريك يدي وبنقل قدمي ثم هزّ بطني ولا أستطيع. ثم أرجع ظهري إلى الوراء. أخذت الموسيقى تعلو وتسرع، وأنا أسرع في الدوران وفي تحريك يديّ وفي نقل قدميّ ثم في هزّ بطني ثم في إرجاع ظهري إلى الوراء. الموسيقى تتحوّل إلى موسيقى طبول

أفريقية. ربما قبيلة الخادم الزنجي عرفت بأمر عودتي وها هو قد قدم بها مع طبولها وزواميرها. الموسيقى تعلو وأنا أتمايل إلى اليمين. وإلى الشمال تماماً، كما رأيت مرة عبر شباك المطبخ في البناية المقابلة في بيروت. نساء يلتففن في الوشاح الأبيض يميناً وشمالاً مئات المرات. الموسيقى تجعلني أخبط رأسي وأجعله يتدلى حتى رقبتي وأميله إلى الجهتين. الموسيقى تبدّلت كأنها الموسيقى التي رقصت عليها راقصة المعبد، لقد مدّت قدمها من خلال بدلة الرقص هكذا ومدت يدها إلى شعرها هكذا. وأمسكت صدرها بيديها هكذا. الموسيقى تتبدّل، إنها تعود إلى قرع الطبول الأفريقية. هذا حقّ لهم، نحن نسكن أرضهم ونتمتّع بشمسهم أيضاً. الموسيقى تتبدّل. حان دورنا. ياسمين تمسك بقبعة أنور وجدي وترقص، تحية كاريوكا، دعوها باسم كاريوكا لأنها ترقص رقصة الكاريوكا، لقد رقصتها ربما في فيلم «شباب امرأة» والتي أغوت به شكري سرحان. آه من هذه الموسيقى، التي تتبدّل وتتغير، تارة طبل وتارة عود. آه إني لا أقوى على جسمي بعد الآن، يجب أن أتوقّف، يجب أن أقف، لكني دائخة. من هذا الذي يمسكني؟. من الذي يقول يكفي يا زهرة؟ وتوقّفت مستندة على ذراعه. بعد فترة استطعت أن أنظر وأرى الوجوه الواجمة وخالي يمسك ذراعي ويحاول إدخالي الغرفة. الوجوه واجمة معترضة على كل شيء أعمله بينما وجهان يضحكان ويخفيان عني ضحكتهما. صحت بهم: «انتو وحوش، عقلكم صغير. ليش عم تضحكوا! عشو عم تضحكوا! كلكم كنتو عم ترقصوا يللا روحوا! يللا قوموا من هون». وقاطعني خالي بأن مدّ يده وسحبني إلى الغرفة يمددني فوق السرير. ونمت كما لم أنم من قبل. حتى أني لم أفكر أين

سينام ماجد. ولما حاولت النهوض في الصباح شعرت أني هزيلة لا أستطيع الوقوف على قدمي. عدت إلى الفراش وأنا أفكر إذا كان خالي وماجد في البيت. إذ كأني سمعت صوت خالي. ثم دخل خالي الغرفة يساعدني على الوقوف والسير حتى الحمام يتفوه بكلمة فقط ثم ينتظرني خلف الباب وعاد وأرجعني إلى فراشي وجلس على حافته وقال: «كيفك يا زهرة». وهززت رأسي وأخذت أبكي. ثم خرج خالي ودخل ماجد قائلاً بصوت أشبه بالهمس: «كيفك اليوم يا زهرة؟» وهززت رأسي مرة ثانية، ثم مددت يدي أخفي وجهي. ثم غادر الغرفة. أخذت أتمعّن بيدي بعد أن قلبتها فوجدت الشرايين الزرقاء بارزة مائلة إلى الاخضرار. ثم تمعّنت في أصابعي فوجدتها منتفخة ذات تجاعيد هرمة. كنت أود أن أكشف عن قدمي. لأني بدأت أشعر بحاجة ملحة إلى حكّها عندما دخل خالي ومعه الطبيب الذي زارني أول مرة. أمسك بذراعي وشكها بحقنة دون أن يسألني شيئاً. ثم ابتسم شبه ابتسامة وهو يغادر الغرفة. جاء خالي هاشم يجلس على حافة سريري وسمعته يقول: «بدك تروحي على بيروت بعد يومين؟». ولم اهتم لهذا الخبر. أذهب إلى بيروت أو أظلّ هنا في الفراش أراقب النافذة التي يهطل خلفها المطر. أو التي يقف على شباكها الذباب والنحل. أذهب إلى بيروت أو أظلّ هنا. لا فرق عندي. أريد فقط أن يتوقّف كل شيء في وأغدو كهذه النافذة أو كأية نافذة أخرى، تطل الرؤوس منها. يتحرك كل شيء عبرها. وهي ساكتة في مكانها، تستقبل وتودّع. أودّ أن أنام الآن رغم أني أسمع ماجد يخبر خالي في غرفة الجلوس كيف أنه ما عاد يتحملني، لأن المسألة لم تعد بيننا فقط بل تشعبت وانتشرت إلى الحيّ المجاور

والأصحاب وكل الجالية اللبنانية تقريباً ويخبره بقصة هربي ذات مرة إلى البيوت المجاورة دون سابق معرفة بأصحابها لأنه انتقدني على شيء تافه. تذكرت كيف ركضت بسرعة والعرق والحرّ يسيران معي. أسير فوق الطريق المحفّرة برملها وحجارتها أنظر إلى الوراء وأراه يعدو خلفي. وعندها بدأت بالركض وأنا أشتمه شتائم ما كنت أجرؤ حتى على سماعها. أشتمه بصوت عال خاصة عندما رأيت أحدهم يفتح شباكه مستطلعاً الأمر، وكان سكان الشارع جميعهم من اللبنانيين الذين يعيشون في بيوت أشبه بالمساكن الشعبية خشبية ومتصلة بعضها ببعض، تفوح منها رائحة المأكولات ورائحة مطبخ أمي: البصل المقلي والكزبرة مع الثوم. وأسمع بين حين وآخر دقّ الكبّة وآخر مرة أكلت بها الكبّة عندما هربت من البيت، يوم طلب مني ماجد أمام جارتي، وكنت أجلس معها على شرفة المطبخ الصغيرة، أن أخفض صوت الراديو. ولم أستجب له أمام جارتي التي تزورني للمرة الأولى. لكنه اقترب من الراديو يخفض صوته. وجنّ جنوني، أسرعت أمسك الراديو وأرفع صوته عالياً، فأطلّت من نوافذ البيوت الخشبية وجوه عديدة. واقترب ماجد يستأذن الجارة التي وقفت بدورها وأمسك يدي بعصبية محاولاً إدخالي المطبخ، لما رفضت، أخذ الموقف الحرج يظهر على وجه جارتي. واقترب مني ماجد محاولاً التحدّث معي، فصرخت راكضة تاركة البيت إلى البيوت الأخرى. رأيت امرأة مسنّة تمسك بذيل فستانها الطويل تعصره من الماء، وتنظر إلى طشت الغسيل أمامها. وسألتني عندما توقّفت إلى جانبها إذا كنت من الجنوب. وجلست على حجر بقرب طشت غسيلها أمسك رأسي وأبكي. واقتربت مني تسألني هل سبب بكائي اشتياقي لأهلي. وهززت رأسي

بـالإيجاب فقـالت لي بلهجة حنـون: «قومي يـا بنتي قومي فـوتي حتى شرّبك ماء زهر». ووجدتني أنصاع وأسير وراءهـا. ولما دخلت بيتهـا رأيت ثلاثة أطفال يجلسون عـلى الأرض ويأكلون فـراكة الكبّـة النية. قالت وهي تمشي ببطء صوب المطبخ: «هول أولاد بنتي بصحاهم لأن بنتي بتشتغل مع زوجهـا بالمحـل». وعادت وفي يـدها فـراكة الكبـة، أخذتها من يدها بلهفة. وأنا أهم بأكلها سمعت طرقات عـلى الباب. واتجهت المرأة المسنة تسأل: «مين، نعم شـو بتريـد؟». قبل أن تفتـح الباب. وعندما فتحته سمعتها تقول: «مين زهرة، مـا فيش زهرة، لا يا روحي، هون بيت بنتي اسعـاف وجوزهـا وجيه الفقيـه» ثم عادت تقول: «هلّق فاتت، إيه هدِّي شوي». وأنا أسمع صوت وقع قدميها تقترب وقفت أتجه إلى الباب. أمسك ماجد بيدي وشد عليها. لم أقل شيئاً بل ودّعت المرأة الجنوبية وفراكة الكبة لا تزال في يدي. وسمعت ماجد يقول: «بتروحي بتهربي وكمان بتاكلي عند الناس. شو هالعلقـة يا ربي».

القسم الثاني

صوت شريف الأخوي يعود بلهجته الشعبية يقول: «مجدداً نحن معكم». مع لفظه هذه الجملة، تمتدّ يدي من غير وعي إلى وجهي وتبدأ بالحفر وبالتنقيب. أعرف كيف سيتقرر يومي هذا وغدي: الجلوس ومساعدة أمي في المطبخ وفي تناول الطعام أيضاً. لقد زاد وزني حتى بدوت إنساناً آخر لا يمتّ إلى الأول إلا بصلة البثور. كانوا يقولون لي إن ازدياد وزني يعود لأنني تركت أفريقيا. والصريحون كانوا يقولون إليّ إن عافيتي قد عادت إليّ بعدما تركت زوجي الذي - في رأيهم - عذّبني عذاب الجن. حرام ماجد وحقيقته الضائعة. لو أقول لهم إن الطعام، الطعام هو الذي نفخني. منه أستمد قدرتي على الاستمرار. على سماع دويّ القنابل والرصاص الذي ينخر كل شيء. الخشب والحجر والهواء واللحم. على رؤية أمي تتدحرج كألية خروف، تتأكد من إقفال شبابيك الخشب. ثم تنتقل بألية الخروف ذاتها من زاوية إلى أخرى وعلى لسانها جملة واحدة: «دخيلكم دخيلكم». ووالدي يشعل السيكارة تلو الأخرى، يمجّها حتى يتعالى دخانها متأففاً ومسموماً. يقترب من المذياع يبدل محطاته عله يلتقط موجة تبشر بوقف إطلاق النار. يجلس ببجامته المخططة ساعة تلو الأخرى. ولا شيء يزيد على هذه اللوحة الموقعة سوى الطعام الذي نأكله وصوت الصواريخ التي بدأت تحدث صفيراً قبل أن تنفجر. ولم أفكر أنه ربما سينفجر أحدها لحظة ما في هذا البيت. لا أحد يفكر في

هذا. دائماً الأشياء التاعسة والكوارث والمآسي تحدث للغير.

ها أنا أجلس عند حافة سريري في الغرفة التي كان يشاركني فيها أخي أحمد. أحاول أن أقرأ قصة «شجرة اللبلاب» بينما أرى والدي وقد جاء بالترانزستور وألصقه بأذنه وأخذ يسير به. خطواته بطيئة مائلة إلى جهة أذنه والترانزستور كأنه قد قام لتوّه من إجراء عملية الزائدة. يبدل موجاته بعصبية. لا أزال جالسة، أقرأ وأسمع في الوقت نفسه شريف الأخوي يقول بل يأمر: «لا تتحركوا من منازلكم، طريق الشياح. برج البراجنة مش سالكة». تدخل أمي وتقول لي: «بعد عندنا كيس طحين وفينا نظل شهر ولا نعوز شيء». شهر، شهران، لا فرق. كنت أفكر، سنة سنتان، لا فرق وماذا في الخارج، خارج هذا البيت غير الضياع والقلق والقهر حتى المرض؟ ها أنا في حالة استرخاء تام لا أرى أحداً ولا أتكلم سوى الكلمات الضرورية مع أمي عن الأكل والطبخ. وما أن يأتي الليل، حتى أنام نوماً عميقاً لذا كنت أتعجب لسماع أمي عند الصباح تقول إن عينيها ما أغمضتا لحظة من جراء سماعها أصوات المعارك.

في بادىء الأمر كنا قد تعودنا على وقف إطلاق النار بعد أيام قليلة من اشتباك الأطراف. رغم أننا لن نجرؤ على التفكير بأن وقف إطلاق النار معناه هدنة وأن اشتباك الأطراف معناه الحرب. وكنا لا نعرف التفكير أو القول بأن الجبهة هذه مشتعلة. هذه الكلمات تعني الحرب ونحن لسنا في حرب. ربما لم نكن نود أن ندمغ ذاك الواقع لأن درجات التمني وعدم خيبة الظن والرجاء كانت كلها كبيرة. لذا، عندما كنا نسمع بيان وقف إطلاق النار كانت الزغاريد وطلقات النيران تتصاعد، بينما يسرع الصغار والكبار حفاة إلى الشارع. منهم

يعود مع أكياس وصناديق ومنهم مع أرغفة. حتى أنا كنت أنزل إلى الشارع مع جارتنا مريم وأكتفي بشراء كريم حب الشباب لوجهي وأنا أفكر أن ثمة شيئاً غير طبيعي في حالة الهدوء هذه. وكان هذا الشعور حقيقة، لأن وقف إطلاق النار سرعان ما كان يخرق وصوت شريف الأخوي يعود ملعلعاً ملغوماً بالقهر قائلاً: «أولاد الحلال رجعوا علقوا، كل الطرق غير سالكة وغير آمنة». بعد مدة أخذ يقول: «المعارك ضارية، الجبهات كلها مشتعلة». عندها كنت ألاحظ أني أرتاح ولا أعود ضائعة لأتساءل ما سيحل بي، بل أعرف تماماً أين أنا في البيت، البيت الذي يختبىء فيه كل البشر من مختلف الطبقات والعقليات. حتى الجميلات اللواتي كنا نراهن في صفحات المجتمع وضعهن الآن كوضعي، مختبئات في إحدى زوايا منازلهن الجميلة حتى أنهن يسمعن ما أسمعه، يفكرن في ما أفكر. أرتاح عند سماعي أن المعارك ضارية والجبهات كلها مشتعلة. معناه أن حدودي تقررت ضمن هذه الجدران. وكل ما تتمناه لي أمي كالزواج مرة أخرى دُفن مع رعد هذه الصواريخ وبرقها. ها أنا في راحة مع نفسي وفي اطمئنان، هذا الجو جعلني مطمئنة. هذا المنطق مريض، كنت أقول لنفسي. نومي عميقاً هو مرض، تناولي لهذه الكمية الهائلة من الأطعمة هو مرض. ازدياد وزني واكتفائي بارتداء الروب لمدة شهرين هو مرض. البثور التي تكاثرت حتى انتشرت في كل أنحاء وجهي ورقبتي وأعلى كتفي وعدم مكافحتها جدياً هو المرض. صمتي هو المرض. صراخ أمي كلما لمحتني بهذا الروب طوال هذين الشهرين وأنا صامتة صمتاً قوياً هو المرض. وسلوكي المحايد أمام نرفزتها خاصةً عندما تحاول استدراجي إلى السبب الحقيقي لطلاقي من ماجد

هو المرض. وكنت أجيبها دائماً أن هذا الموضوع مات وانتهى بالنسبة إليّ. ولم تكن تقتنع بما أقوله لها. بل كانت تعبر عن غضبها ومضايقتها بتوجيه كلمات قاسية ومعيبة تتناول بثوري وجنوني وأنا صامتة أمامها وأمام موضوع ماجد الذي أطلقت عليه بالملاوعي كلمة أفريقيا. وكنت أتساءل من الذي أخذ بي إلى تلك البلاد النائية؟ وعندما أحاول أن أبعد الموضوع أجدني فأعود إلى صميم نفسي وأذكّرها أنني لولا أفريقيا وزواجي وطلاقي من ماجد لكنت الآن جثة هامدة تحت قدمي والدي وتحت نظراته القاسية وشارب هتلر الذي يتوعد ويده في جيبه تخرج الساعة يدنيها من أذنه ليعرف كم مضى من الوقت وهو واقف فوق جثتي.

لقد كانت أفريقيا بئراً عميقة لرمي سرّي المهترىء. لكنني عدت منها مهترئة ونصف إنسانة. فالنوبات العصبية ازدادت هناك، ولم تفارقني تماماً بعد عودتي، إلا بعدما جرفت مني الكثير. منذ ذلك الحين رحت أحس أني إنسان من الصعب التحاور معه. صرت كأني في داخل مادة جامدة، لا أتقلص ولا أتمدد ضمنها. لم أعد أسمح لأي إنسان بأن يطل من الثغرة التي أطل أنا عبرها إلى العالم الخارجي. بل سددت الأبواب أمام كل من حاولت أن تتحاور معي وتقيم علاقة عادية، كالجارة وجارتها. والقريبة وقريبتها. أصبحت وحيدة مع البثور والروب الذي لا أخلعه أبداً. وربما حالتي هذه جعلت الاهتمام بي لا يتوقف عندي لحظة.

أتشتت وصوت الصواريخ يضعف شيئاً فشيئاً. الهدنة معناها أني لن أجلس في سريري ساعات متواصلة، وفي المطبخ ساعات متواصلة، أستمع إلى الراديو. الهدنة معناها الخروج من البيت، أن

أخرج عبر هذا الباب، وأرى الناس، وهم يرونني وقد تدهورت إلى هذا الحد. وأنا أراهم قد أصبحوا بلا معنى. لما كان صوت أمي يرتفع: «ولك يا بنت اشلحي هالروب. وروحي شوفي العالم، روحي شوفي وجه الله». كنت لا أجيبها إلا في نفسي: «لماذا؟ لم يعد أي إنسان يعني لي شيئاً. أنا أرقى من العالم كله. ماذا سأرى غير الكذب والنفاق؟».

كنت أحقد على كل البشر بمن فيهم أقاربي الذين ما عدت أستطيع إجراء حوارٍ معهم ولو بعبارة: أهلاً كيفك، منيحة؟ كنت أشعر أنهم يهزأون بي بسبب تلك البثور وتلك السمنة. لم يحاول أحدهم الدخول في صميمي ليفتش عن معدني بل كان اهتمامهم ينحصر بالمظهر. وها أنا أتدهور بشكلي وهندامي.

كانت أمي تقول والدموع في عينيها: «رأفة بشبابك، وفيّ، احكي مع خالتك، ردي على ابنة عمك، الله يخليك، قومي سلمي على زينب بنت الجيران» وأنا صامتة في سريري أو على الكرسي في غرفتي أرفض الخروج رفضاً باتاً. كانت أمي تفتح الباب عليّ بهدوء وتعيد العبارة ذاتها وكل مرة في لهجة مختلفة، حتى أنفر وأشتمها، وأصرخ في وجهها: «فلانة جاءت لتتأكد من جنوني، إنها هنا للفرجة لا محبة بي». كان صوتي دائماً يرتفع عالياً إلى درجة أن الزائرة في غرفة الجلوس كانت تسمعه فيحمّر وجهها وتنهض معتذرة من أمي وتخرج. شيئاً فشيئاً، لم يعد أحد يجرؤ على زيارتي أو التحدث معي. وإن صادف وكنت في غرفة الجلوس، عند زيارة الجيران أو أقارب أمي كانوا يتلفتون إلى بعضهم البعض غير مصدقين أني طبيعية، أستطيع أن أفتح فمي بكلمات طبيعية.

يوماً بعد يوم. ليلة بعد ليلة. بيتنا في النهار كأنه غير بيتنا في الليل. كان بيتنا في النهار تدب فيه الحياة البشرية اليومية: حيث أسرّة النوم وغرفة الطعام والمقاعد والصور على الجدران والطناجر مرصوصة في المطبخ وتنكات الحبق وقرون الفلفل الأحمر مرصوصة أيضاً عند شباك المطبخ ورائحة الطعام تنفذ من المطبخ إلى غرفتي وغرفة الجلوس هي رائحة الطبخ نفسها وسطل الغسيل البلاستيك وفوطة مسح الأرض. كلها ذاتها. أما في الليل فبيتنا كان بيتاً آخر، أشبه بقلعة جنّ حيث أصوات المدافع ترتطم بجدرانها وصدى الصواريخ يدخل عنوة إلى الآذان وإلى أعمق الأعماق ويصبح البيت الآمن، بيتاً فيه الشك والخوف والرصاص. يوماً عن آخر، ليلاً عن آخر، أخذت كل الأصوات يزداد وقوعها. يزداد توقيتها. ولم يعد الفراش محطة الراحة والأمان. فالريبة من المجهول تحوم. يزداد خوفنا من الأصوات في الخارج خاصة في الليل إلى درجة أني أصبحت أكره سريري، ولم أعد أنام النوم العميق، ولم تعد جنون النيران تطمئنني كما من قبل. وإذا سهت عيناي من التعب ومن إقناعي لنفسي بأن كل ما يحدث عبر هذه الجدران سيمحوه بزوغ الشمس ككل مرة. كنت أنهض في الصباح التالي وكل عظام جسمي مرضوضة وكأني قضيت الليل الماضي ممددة على الفراش، بينما انحنى عليّ رجلان بسوطيهما يجلدانني بتواصل. أنهض وجسمي كله قد تكسّر. لا أستطيع حتى التحرك خوفاً من أن يتفكك، بينما تبرز عروق زرقاء تحت عيني، تبرز لدرجة أنها كانت تبدو ككدمات بنفسجية.

أسير في البيت الذي كان كابوساً مرعباً ليلة البارحة، ولا أصدق أن كل شيء لا يزال على حاله. وأن كل شيء كان هنا في الليل

أيضاً. الاحساس بهول ما يجري والشعور بالخوف والرجاء معاً بأن تتوقف الحرب كانا يقربانني من أمي ووالدي اللذين شعرا للمرة الأولى بأني لم أعد جنيّة، خاصة أني عدت إلى قراءة الجرائد بلهفة وبعصبية كما كانا يفعلان من قبل عندما كنت مطمئنة ساهية مكتفية بأن أيام الذعر قد قررت مجرى حياتي.

أخذت أتتبع من جديد الحرب التي تسيّرها قراءة الجرائد، والبحث عن الحقيقة من خلال سطورها. كان ذلك يجرني إلى حالة تفكير متواصل، ثم خوف ويأس وعدم تصديق. هل هذه الأرقام. أرقام الموتى مضبوطة؟ هل هناك فعلاً خطف؟ هل هم فعلاً يتناولون هوية النفوس وعلى أثرها يقتل الشخص أو ينجو؟ هل الشباب في حالة حرب يتلقّون أوامر قاداتهم ويرتدون لباس الميدان؟ هل حريق سينما الريفولي حقيقي؟ وحريق سوق سرسق حقيقي. وسوق الطويلة حقيقي. هل القناص أيضاً قناص؟ هل جورج الحلاق جارنا قد انقلب ضدي، وهل انقلبت ضده. لا أصدق. لا أصدق. لكني أسمع أمي تقول «الله يقطعهم المسيحية»، وأسمع والدي يسكتها قائلاً «يالله عقلك شو صغير يا مرا، كل عمره عقلك صغير. هيدي لعبة دولية، الحرب مش بين مسيحي ومسلم يا مره». هل هذا يحدث فعلاً خارج هذه الجدران حيث لا تزال الحياة ذاتها قبل الحرب؟ وهل هذا يحدث حقيقة في لبنان وما أن يتوقف إطلاق النار حتى ينهال الناس إلى مقاهي الحمراء، ويمتلىء كورنيش المنارة بباعة الكعك بسمسم، وطريق صيدا بباعة الخس والفجل الأحمر. فتأخذ الجرائد صور الحياة في الهدنة وتعلّق جريدة (النهار) تحتها قائلة: «إذا كان الازدحام يعني شيئاً».

كيف ينسى العالم من ليلة إلى أخرى كابوس البارحة؟ أراهم

يـركضون عـبر أبوابهم والضحكـات تغـطي وجـوههم. وكـأن مـوت البارحة كان في بلاد أخرى. وكنت أنتفض عند هـذا الحد وأفكـر أنه يجب أن تنهـار الحياة اليـوميـة التي لا نـزال نحيـاهـا. إذن لن أمسـح الأرض ولن أشم رائحـة الطبـخ ذاتها ولن أسـوي الأسرة ولن أسقي التنكـات. سـأدع النبتـات تمـوت ببطء وعـلى والـدي أن يكفـا عن الاستمرار في الأكل وفي الحياة، لماذا علي أن أفعل شيئاً داخل البيت؟ بينـما كـل شيء ينهـار خـارجـه، يجب أن ينهـار هـذا البيت حتى تعمّ الحرب كل لبنان.

لكن كـل شيء حقيقي... كل شيء حقيقي... أخـذت أصرخ وأنـا أشدّ يـد أخي أحمد، الـذي أطل علينـا بعد قـطيعة سنـة بلباس الميدان وببندقية الحرب وبلحيـة الحرب يقـول إن موقعـه في الشياح. هجمت عليه وأخذت أهزّه وأشده من كتفيه وأصرخ به غـير مصدقـة أن الذي أمامي هو أحمد. أحمد الذي كان يسرق قطعة الشوكـولا من يـدي والذي كـان يضربني ويعضّني ويعود فيقبّلني والـذي كان يخيفني كلما حـاولت أن أذهب إلى الحمام. الـذي كان يقـول لي إن وراء كـل صورة معلقة شيـطاناً سـوف يهبط عليّ وليلتهـا كنت لا أنام. الـذي أعطاني أول كتاب لأقرأه وكان لدراكولا مصّاص الدماء. أحمد الـذي كان يدافع عني، أحمد الذي وقف بجانبي ومدّ يده إلى شلّال شاغـور حمانا عندما أخذت صورتنا. والذي كان يحضر التمثيليات ويسنـد إليّ دور الخادمة دائماً. الذي كان يختبىء معي تحت السرير عنـدما تنـدلق المحبرة منا عفـواً على السجـادة. والذي كـان يقشر البرتقـالة بـطريقة سحرية ويعود فيضع مكان حزوزها ورقة كلينكس. الذي كان يخيفني بريش الدجـاج وبفرو الثعلب. أحمـد الذي سمعتـه يتلو نكت الفيل

والنملة. الذي أعطاني عشر ليرات لأذهب إلى طبيب الجلد من أجل بثور وجهي.

أحمد يقف أمامنا الآن وقد ارتدى بذلة الميدان وحمل كلاشنكوف الحرب وأطال لحية الحرب لماذا؟ من أجل ماذا؟ لا أصدق. وانهلت عليه أصرخ وأشدّ به وأهزّه وهو مشدوه يحاول أن يفكر إذا كانت أخته فعلاً مجنونة كما يقال.. وما عدت أعي إلا أني أنهار ويزوغ بصري وأغمض عيني وأنهار وأرى نفسي بعد وقت لا أعرفه في السرير وأمي تبكي بصوت منخفض تمسك بيدي وأبي يجلس بعيداً إنما في الغرفة ذاتها وقد زاغت عيناه هو الآخر. حتى شعرت بالحاجة لدخول الحمام. وعاونتني أمي على النهوض. مررت بطاولة المطبخ ورأيت على سطحها مئتي ليرة واستغربت وجودها على الطاولة. فأنا لم أعتد على رؤية حتى ليرة واحدة ملقاة بلا مبالاة على الطاولة... وفكرت: لمن هاتان المئتان؟ لكني كنت أضعف من أن أفكّر ثانية في الموضوع. عدت إلى فراشي وعادت أمي تجلس على حافة السرير تمسك بيدي قائلة: «إن شاء الله صرتي أحسن يا ماما؟» وأهزّ رأسي بالإيجاب بينما والدي لا يزال مطأطأ الرأس زائغ النظرات. سألتها إذا كانت على علم سابق بما يفعله أحمد وهزّت رأسها بين النفي والإيجاب وسمعتني أسألها: «ليش يا ماما، ليش؟». وهي تجيبني بدموعها ثم بكلمة واحدة: «أخ يا بنتي أخ». فكرت أنه كان علي أن أضبط أعصابي حتى أتفاهم معه وأسأله عن سبب دخوله الحرب التي لا أفهمها. ثم سألت أمي إذا كان أحمد سيزورنا مرة أخرى رغم تصرفي هذا. فابتسمت نصف ابتسامة وقالت لي تطمئنني «ولو يا زهرة، مش انتو إخوة، معقول يزعل منك؟ ما هو عارفك عصبية»

وعدت أسألها متى سيأتي فأجابت: «قال إنه بعد هالدورة في هدنة، وقتها بيجي ويرتاح يا ناري عليه». وهنا أدار والدي إبراهيم وجهه وقال ساخراً: «يا ناري عليه، هالأزعر، دايـر وحامل هالكلاشنكوف، ومين عم يحارب؟ أخوه وصاحبه وجاره. نحن اللبنانية يا مرا، كلنا قرايب من جبّ واحد، لبنان صغير، وكلنا قرايب. يا حرام الشوم على عقله وعقلهم كلهم. لو بس العيب والحيا لكنت زعبته ورميته بالشارع». وعاد يقول بسخرية: «دخلك شو فكّر هو فرحت بها الورقتين والله ما أنا ماسكهم! هيدا مال حرام! مال شهداء وأيتام، الحق عليك قبلتيهم».

الحرب لا تزال حرباً والتشنج ما زال يرفرف فوق الأحياء والموتى سواء. وصوت شريف الأخوي لم نعد نسمعه، فقد اختلطت كل الأصوات وتفرقت مرة واحدة: إذاعات عدة، محطات تلفزيونية عدة وكل هذه تحسب نفسها رسمية.

شارعنا الذي لا يزال تسيطر عليه روح الحياة فإن الموت يسيطر من منتصفه حتى آخره. كان هذا التناقض غير طبيعي فمنتصفه الذي هو على مفترق طرق، يقيم فيه أحد القنّاصين على رأس البنايات الآمنة. أنا ما زلت في هذا البيت أمسك رأسي بين يدي خوفاً عليه من الانفجار. أحياناً أتركه وأخبىء عيني بكفيّ أيضاً خوفاً عليهما من الانفجار إذ كل شيء ينفجر في الخارج، وينفجر في الداخل أيضاً. رغم أن الداخل لا يزال له روتينه منذ سنين طويلة.. لكن العدوى كانت تتسرب إليه من سماع زخّات الرصاص المختلطة برائحة البارود والغيم الأسود.

لم أعد أنا زهرة. هذا باختصار، تساؤلاتي واستفهاماتي لا تتوقّف. لماذا منتصف هذا الشارع حتى آخره، لا يكف عن الأنين وعن التوتّر والدماء بينما أوله هادىء الأولاد يلعبون على إسفلته وباعة الخضر ينتشرون بين مداخل بناياته وبائع الجرائد وكنزته الزرقاء ذاتها ودراجته النارية يوزع الجرائد كل يوم؟.

لماذا يسيطر الموت من منتصف هذا الشارع حتى آخره فيتهاوى الطفل ويتهاوي الرجل وتتهاوى المرأة كلّهم رصاصة في الرأس. كلّهم كانوا أحياء يتحرّكون للحظة في منظار القنّاص يضحكون أو يبكون لماذا ليست الحرب منصفة؟ لماذا لا تعمّ كل زاوية؟ لماذا مطعم أبو جميل لا يزال قبالة بيتنا تفوح منه رائحة الفول والحمص رغم أن الذين يدخلون إليه محمّلون بالرصاص؟.

كنت أراهم من خلف الزجاج بوضوح. إنهم بشر. يأكلون بشراهة ويشربون من إبريق الزجاج وهم ينظرون إلى السقف بينما ينساب خيط الماء إلى أفواههم. ترى ألا ينسون الحاجز وطلقات النار والعدوّ في الطرف الآخر؟ لكن ها هم يمضغون العلكة ويربّتون على كتف أبو جميل وهو يبتسم لهم ويغادرون السلام إلى مواقعهم. لماذ لا يتشبث أبو جميل بأيديهم صائحاً باكياً قائلاً: «أرجوكم، ابقوا عندي، أنسوا المتراس، وابقوا عندي؟». ها هم يغادرون مطعم أبو جميل. وها أنا أصبحت كلبوة جُرحت جروحاً طفيفة في كل أنحاء جسمها. ثم لبوة جُرحت جروحاً عميقة في قلبها.

وأنا أقرأ الجرائد وأخبار الجثث عند المنعطفات وعند الجسور وعند قمامة الزبالة: هذا الملقى على الأرض، كان طفلاً وكان شاباً وصار رجلاً في عقله مئات الذكريات ومئات الخلجات، فجأة هو لا شيء كفردة الحذاء المطروحة بجانبه. ربما كان الحليب يسبب له مغصاً وهو ما يزال طفلاً، كان يبكي والعائلة تتكوّم حوله تحاول أن تخفف ألمه وصراخه بماء الزهر. وها هو الآن أصفر، مطروحاً على الأرض وحيداً مع الموت. هذه الجرائد التي تلد الكلمات لتغطّي كل الجثث وكل

الدمار ومع ذلك لا يزال بين صفحاتها الإعلانات عن سيكارة كذا وصابون كذا لماذا لا تغطّي كلماتها بالسواد، وتكتفي بالصياح فقط، بأحرف تخترعها للحرب. أحرف لا تقرأها العينان وتعبرانها. بل أحرف تلدغ الدماغ بنار حارقة فتنشّل اليد ولا تعود تقوى أن تضغط على الزناد ولا على حشو المؤونة في أفواه المدافع. أحرف تجعل الأسلحة كلها مهجورة تحت المطر وتحت الشمس وتترك كل حامليها يعدون إلى الشواطىء الممتدّة وعند سفوح الجبال وسط الرائحة البرية.

أنا لم أعد زهرة. أخذت أمسك رأسي بدل بثور وجهي. ها قد دخلت الحرب بيتنا وما عدت مطمئنّة أغمض عيني وعقلي على رنين الرصاص والصواريخ. الثغرة التي أخذت تفتح الجدران فتحت فوهة بركان في أعلى رأسي لذا أنا أمسك هذا الرأس ليلاً نهاراً. بينما جروحي لا تزال تضغط على ألمي وألمي يضغط عليها وأعضّ أصابع يدي حتى أرى الندم يختلط بازرقاق لحمي. كيف كنت جاحدة لتلك السماء الزرقاء ولذلك البحر الأزرق ولتلك الأشجار؟ كيف تركت كلّ هذه وفكرت يوماً واحداً أني سأستوطن إفريقيا. لكني الآن بعيدة عن كل هذا، وكأني لم أكن في أفريقيا يوماً. تجربتها بعيدة، كذلك أشخاصها ماتوا جميعاً وما تركوا حتى الذكرى. الحرب أماتتهم كما أيقظتني. كما جعلتني أحيا. خالي هاشم ويده المقزّزة الباردة، وعيناه الحمراوان، وأنفاسه المتلاحقة. كل هذه ماتت، كيف أقمت في منزل ماجد وعيناي تحملقان عبر النافذة، بينما لم يكن داخل بيته وخارجه سوى وطء الحر واللاشيء؟.

متى يكفّ هذا الونين؟ وهذا الأنين وذلك الانفجار؟ هل أكتب

إلى المقاتلين على كل الجبهات تحت إمضاء «لبوة مجروحة»؟ لكنني بعد مدة أكتشف كم كنت مغفّلة في تفكيري. المقاتلون من هم غير الزعماء؟ فعند قرار وقف إطلاق النار كان يتوقف المقاتلون إذن هل أكتب رسائل إلى كلٍ من بيار الجميل وكمال جنبلاط وياسر عرفات. هل كل شيء هو لغز أم أني ساذجة إلى حدّ الحيرة؟.

ولم أكن وحيدة في هذه السذاجة. كانت أفكار الجميع تختلط وتتعارض ولكنها كانت تتفق في حسن نيّتها وسذاجتها. كنا نفكر ونقول بل الجميع يفكر ويقول: «عندما يتسلّم كرامي رئاسة الوزراء سوف تنتهي الحرب. عندما يتراجع كمال جنبلاط عن طلبه تأديب الكتائب ستنتهي الحرب. عندما يتنازل رئيس الجمهورية عن منصبه سوف تنتهي الحرب». حتى أننا اعتقدنا أن الحرب قد توقّفت عندما عاد ابن كمال جنبلاط المخطوف خاصة وأن الذي أعاده كان ابن كميل شمعون. وأنا أصدّق وأمّي تصدّق وأبي كذلك وكل من نراه يصدّق. هل أكتب لهم قائلة إني مشتاقة لأرى نجوم الليل التي ما شعرت بحاجة لرؤيتها قبل الحرب؟ أم أكتفي بكلمتين، بل بثلاث كلمات: «أرجوكم أنهوا الحرب».

الحرب لم تعد في الهواء والضجيج وفي المجهول. الحرب قتلت عدداً من أصدقاء أحمد وشوّهت طفلة الجيران قبالتنا وصحافياً كنت قد قرأت ما كتبه يوماً عن الحرب وعن الرصاص الذي اخترق حتى بطّيخته. الحرب جعلتني أرى عبر زجاج النافذة عشرات الشباب والرجال المعصوبي العينين يسيرون أمام فوهات الكلاشينكوف التي كانت تلكمهم والتي كان يحملها شباب الحرب والذين قبل الحرب كانوا في مدارسهم وأعمالهم وعلى كراسي المقهى والمطعم الوحيد في

الحيّ. أدخلوهم ذات صباح مرآب البناية قبالتنا. عدوت أخبر أمي وأنا أرتجف ما كنا نقرأه في الجرائد يحدث في شارعنا وأخذت أصيح بأمي «ماذا نفعل»؟ وأسرعت أبحث عن حذائي الذي نسيت لونه وشكله بعد هجري له أشهراً متتالية. لكن أمي وقفت أمامي تشلّ حركتي قائلة : «بلشنا نجن» ودفعتها هاجمة إلى زجاج النافذة أرى المدخل وقد خلا إلاّ من شابين مسلحين يرتشفان القهوة. المسلحان كانا تلميذين في صفّي في المدرسة الثانوية في الحيّ. غمرتني السعادة، سيسمعان مني، وينقذان من في الداخل! ورأيتني أهرع إلى الباب لكن أمي كانت تستند عليه وتهددني بفجور بأنها سوف تنادي والدي من الحمام وتركتها مسرعة إلى النافذة أفتحها وأصرخ باسميهما. والتفتا إليّ ولم يتذكّراني رغم مصادقتي لهما في الحيّ. هتفت لهما باسمي ويظهر أنهما نسياه أيضاً. اقترب أحدهما تاركاً باب البناية، اقترب حتى وصل إلى نافذتي، أساريره انفرجت وهو يقول «أهلاً» قلت له «مين اللي فوّتوهم»؟.

ـ يللي بالك منهم.

ـ شو عملو؟.

ـ ولا شيء، وقّفناهم على حاجز، بدنا نبادل فيهم.

ـ الله يخلّيك. خلّيهم يروحوا على بيوتهم.

ـ نعم؟.

ـ «الله يخلّيك خلّيهم يروحوا على بيوتهم. الله يخلّيك خلّيهم يروحوا على بيوتهم. مش حرام؟ شو عملوا؟ الله يخلّيك خلّيهم يروحوا على بيوتهم».

ولم أجد نفسي إلا وأبعدت عن النافذة بينما يد والدتي قد شدّت على فمي وأنفاسي بينما يدا والدي تدفعانني إلى الوراء. سمعت صوتيهما معاً وصراخهما معاً ربما للمرة الأولى يشتركان معاً في أمر. «ولك يا مجنونة، بدّك يقوّصوك؟ يا ريت يريحونا منك ومن فضائحك، يا مجنونة لح يأخذوا الأمر من شواربك». وجلست أبكي بعدما وجدت أني لا أستطيع أن أفعل شيئاً. جلست أمسك رأسي بكلتا يدي وأبكي وأفكر برجاء حتى لا أسمع طلقة رصاص وأبتهل لله بأن لا يسمعني أية حركة يكون مصدرها المرآب. ولما مضى وقت ولم أسمع شيئاً أخذت أفكر في الجالسين في ظلمة المرآب وخوفهم من سماعهم للطلقات نفسها. ترى بماذا يفكرون الآن؟ لو تدعني أمي أنزل إليهم. وجلست متسمّرة خلف الزجاج أنتظر خروجهم وكل ما رأيته لم يكن سوى تبديل الحارسين ولا صوت يصدر من الداخل. جلست أعاقب نفسي على المضايقة التي كنت أحسبها ضيقاً قبل بدء الحرب. والتعاسة التي كنت أعدّها تعاسة، الألم الذي كنت أحسبه ألماً. كل هذه كانت أوهاماً أو خدوشاً طفيفة. ربما لأنها كانت بلا ألم جماعيّ. لكن عندما أتذكّر تلك الرعشات التي كانت تصيبني وذاك الانكماش والزوغان وانسداد أذنيّ وصمتي المتواصل والحاجة الملحّة إلى النوم والتقوقع، أشعر كم كانت حقيقة، وليست وهماً، ربما كل الأحاسيس في وقتها حقيقية. لكن إذا قست آلامي في إفريقيا وقارنتها بألم الحرب فالمقارنة نفسها لا تجوز. آلام الحرب تنساب دونما توقّف. إنها آلام ملموسة، دلائلها مادّية. أدلّتها جثث وتشويه وحرائق وخراب.

وأنا اللبوة السجينة. لا أستطيع أن أفعل شيئاً سوى الذهاب إلى

المستشفى والتطوّع. كان عليّ أن أسير ملاصقة للجدار مع ابنة جيراننا خوفاً من القنّاص اللاطي في رأس إحدى البنايات. كنت دائمة الخوف من أن يطرحني أرضاً رغم أنه كان يقنّص «الجهة الثانية». ذهبت إلى المستشفى لمدة ثلاثة أيام ثم توقفت. لم أستطع إسعاف أحد ولا تقدمة المساعدة لأحد. فأنا ما كففت عن الارتجاف. وكان أنين الجرحى يصل إليّ وكأنه معبأ بمصل يمتدّ حتى شراييني كلّها ورائحة الدماء تختلط برائحة نتنة وسلال المهملات يحوم حولها البرغش بحجم العصفور، وأنين الأقارب والأهالي أيضاً يصل إليّ وكأنه معبأ بمصل يمتدّ حتى شراييني كلّها. هؤلاء الذين يتحدّثون عن الحروب ويقولون: «يا لطيف» لم يروا الحرب. والذين رأوا الحرب والمستشفيات في الأفلام السينمائية رأوا الحرب الحقيقية والكارثة عظيمة. ترى هل يزور زعماء الحرب هذه المستشفيات؟ وهل إذا زاروها ساعة ثم غادروها استطاعوا أن يحيوا بقية يومهم، يندمجون بعملٍ شيء آخر غير التفكير في القدم المقطوعة والعين التي أصبحت سائلاً واليد التي خارت أصابعها وبقيت يداً وحيدة مستسلمة؟ لماذا لم يقف زعيم ما عند سماعه للأنين يقسم بأن يوقف الحرب ويصرخ بعفوية «الحرب انتهت، سأنهي الحرب، لا قضية سنفوز بها إذا ما أكملت الحرب حربها، أيّ قضية لن تكون أهمّ من قضية الإنسان وروحه وسلامته؟ سأنهي الحرب ابتداء من هذه اللحظة. وأرجو أن تسامحني أيها الصراخ، أيها الألم ويا أيها الأنين».

أخذت أيامي تمضي وأنا أفكر كيف سأصل إلى رؤساء الدول الذين يقال عنهم ان الحرب والسلام في حوزة أمرٍ واحدٍ يلفظونه. كم أتمنّى لو أني ابنة رئيس دولة. أو ابنة أمير أو جنّية ربّما وقتها سمعوا

صراخي. وهنا أتذكر داهش. أين هو حتى يسيطر على أفكار زعماء الحرب ويسيّرهم وهم نائمون إلى طاولة مستديرة يوقعون اتفاق إنهاء الحرب؟.

الصمت في البيت. الصمت أينما كان، عندما دنت فكرة السلام ظننت أن السلام سيأتي يوماً مخترقاً الجثث والأوراق التي سجّلت عليها عدد الموتى وسواد الأبنية، رافساً صناديق البنوك الفارغة، مبعداً عنه المشوهين السائرين ببجاماتهم على عكازات خشبية، مبعداً عنه أوراقاً تاريخية أصبحت رماداً، قافزاً فوق أبنية تحوّلت إلى أعشاش بوم وسراديب للجرذان فوق أسرّة الأطفال.

السلام سيأتي، لكن بعد أن يولع كل شيء ويطفىء كل شيء سيأتي لكن كيف؟ على حجارة وحرائق.

لماذا ينام الزعماء في الليل رغم سماعهم البارود والرصاص والصواريخ؟ وأنا لا أنام. أنتظر الرجال ليظهروا وهم خارجون من باب المرآب المفتوح المظلم. لا أجيب على صراخ والدي. يأمرني بالابتعاد عن النافذة وإغلاق الخشب قبل أن يطلقوا عليّ الرصاص. لم أسمع حتى الآن طلقة نار قريبة منبعثة من المرآب. إذن لا يزالون أحياء وسيبادلونهم بمخطوفين. ها أنا أسمع طلقة. لا أسمع طلقة أخرى. لا أسمع. لا أسمع هذه الطلقات القريبة. طلقة ثالثة إنها من المرآب. أم أني متوهّمة؟ باب المرآب لا يزال كما هو، عند بابه الحارسان المسلحان لم يهزّهما أزيز الرصاص، لم يهزّ أحداً وما هزّ أحمد عندما جاء بعد ظهر يوم كنت قد استسلمت إلى الموت استسلاماً منطقياً وعاطفياً.

فليلة البـارحـة دفعت قلبي المختبىء بـين أضلعي حتى صـار في أسفل بطني. عندما شعـرت بفراغ هـائل في صـدري. وهذا الفـراغ كبس على رئتي حتى تعذّر عليّ التنفّس. إذ الهواء في ذلك الفراغ كـان طـافحاً لـدرجة أني لم أستـطع استنشاقـه. لا أعرف كم من الـوقت. لبثت بلا قلب. لكني استرخيت مستسلمـة للموت استسـلاماً مؤلماً. انهمرت الصواريـخ ككرات الثلج وكـان ونينها يمـرّ فوق رأسي ورأس أمي. وللحظة أيقنّا أن أحدها سينفجـر فوق هـذا السقف، سيخترق هذا الحائط وسيرمينا جميعنا على البلاط. كما الصور في الجرائد: عائلة بكاملها تلعب الورق لا تزال تمسك بالـورق وشظايـا القذيفـة مختلطة بشظايا أجسام أفرادها. بينما في بيوتهم كان كل شيء طبيعياً: مـلابس داخلية لطفلٍ معلّقة على حبل غسيل في داخل الغرفة.

أنا وأمي نصرخ صرخة واحدة كأننا عدنـا البرتقـالة وصرّتهـا. كما وقفنـا نـرتجف خلف البـاب في المـاضي. نعـدو الآن من زاويـة إلى أخـرى، عنـدمـا أصبحت الغـرف شفـافـة مكشـوفـة تحت أضـواء الانفجارات، زحفنا إلى الرواق ونحن نتنفس بصعوبة، وجاء الـطنين القـريب حتى كـأنـه ولـد في أذني نفسهـا. وقبـل أن أصرخ انفجـر الانفجار وهبط قلبي حتى صار بين قدميّ. وأصبحت فارغة تمـاماً إلا من حبـالي الصوتيـة التي تشـابكت ومـا عـدت أعـرف كيف أسيـطر عليهـا. رفعـت رأسي لأرى أمي وقـد خبـأت رأسهـا بـين يـديهـا، كالأطفال الصغار. رفعت رأسي. بدا لي شبّاك الرواق، ثم عاد الضوء يكشف مـوقعنا. ويكشف كـوننا لا زلنـا أحياء. فكّـرت: «هل بيتنـا مراقب ويقصدون إبادتنا؟» لكن هـذه القذائف والصـواريخ تـأتي من الجهة الثانية من المدينة أيضاً وبيتنا لم يكن هدفاً لها ولا بيت الجوار بل

كل المنطقة، كل أبنية بيروت، كلّ من يتحرك في هذه الأبنية وعاد الطنين، وهنا لم أستطع أن أتدارك أيّ شيء وصرخت ثم نهضت مستسلمة أريد أن أخرج إلى الموت. أسرعت أمّي تشدّني من قدمي وأنا واقفة أصرخ، أصرخ، أصرخ، ولما أخذت يداها تؤلمان قدمي رفستها فلم تبال بهذه الرفسة بل عادت تلحقني زحفاً وتؤلم قدمي حتى أنصاع وأهبط على الأرض. أختبىء بين الحيطان الخائنة والأضواء الخائنة والفضاء الخائن.

وكما كنت أفكر قبلاً والحرب بعيدة عنا في الشوارع الأخرى وكأنها لن تحدث لنا، كنت أفكر لماذا لا ترفض الطبيعة هذه الحرب فترعد السماء ويهطل المطر وتجرف الانهيارات والمعدات ويعطب الرصاص. ولما جاء الطنين الآخر ما عدت أتمالك زحفي ولا وقوفي، عدوت أفتح الباب أريد الهرب. لما وصلت إلى الردهة بين المصعد وشقتنا تنفّست. الضوء هنا خفيف كذلك الطنين، والانفجارات تبدو بعيدة. جلست على أول بلاطة من الدرج الحنون الذي كنت قد نسيت شكل مربّعاته. ولما لحقت بي أمي ورأتني جحظت عيناها فهي لم تصدق أنها ستراني مرة أخرى أخفق. لقد ظنّت لوهلة أني جُننت وأني همت على وجهي في الشوارع. جلست إلى جانبي ووجدتني أرتمي عليها أبكي بحنان وخوف أحاطتني بذراعيها الممتلئتين وهي تقول «بكرة منروح على الضيعة، ما تبكيش يا روحي» ثم سمعنا خطوات ثقيلة تقترب منا ليظهر والدي. قائلاً «والله هالمطرح أحسن مطرح» صعد يستفقدنا بعدما كان مختبئاً طوال هذا الوقت عند البواب في الطابق الأول. ولما طلبت منه أمي أن نذهب إلى الضيعة هزّ رأسه وأشاح بوجهه هنيهة وعاد إلينا. تحت لمعان الضوء الخافت لاحظت كم أن

والـدي قد تبـدّل وما عـاد ذاك الغول السمـين ذا الشعـر الأسـود في الصـدر وأعلى الكتفـين كالصراصـير السوداء وكيف أن جسمـه قـد هزل. ولاحظت أيضاً أنه يهزّ رأسه طوال الوقت كالعجوز الـذي كان قرب مدرستنا يبيع الترمس الأصفر. هـل لاحظ هذا الاهتـزاز الدائم أحـد غيري؟ هـل لاحظت أمي أن والـدي يتغيّر، أنـه يشيخ؟ وعـاد بـوجهـه إلينـا يهـزّه هـزاً خفيفـاً وهـو يقـول: «وأحمـد؟ كيف سنـترك هالأزعر؟» فكرت كيف سنقنع أحمد بأن يرمي سلاحه ويأتي معنا؟.

لكن عندما أتى أحمد لم أتجرأ عـلى فتح فمي، فهـو قد هـزل هزالاً شديداً، ومـا أن رآنا حتى أجهش بـالبكاء وأخـذ يضمّ كل واحـد منّا غير مصدِّق، عدا والدي الذي ابتعد عنه وكأنه جرثومة قـاتلة. وخار أحمـد على أول كـرسي رآه وأخذ يتمعن في حـذائه المـوحـل. وقـال: «كنت تحت تـأثير الجمـوع الهاجمـة. أن تكون وحـدك غـير أن تكـون ضمن جمـع هائـل. أن تكون وحـدك، لا يعود هنـاك حـرب. قتلك ورصـاصك جنـون وإجرام. أن تكـون فـرداً من مجمـوعـة فـأنت في حرب، وأنت لا تكون القاتل. وبندقيتك ليست بندقية. هـذا المنطق يجرفك تلقائياً. والجموع تجرفك أيضاً دون أن تـدري أن الجموع هي أنت وأنت وهـو وهو. أمـا عند بـاب الحـظيرة، وفي الهـواء الـطلق، فالطلقات هي طلقات مـاء. والدم النـافر من جثّـة الرجـل هو مـاء. وصراخ المرأة وطفلها هو ماء. لأن الجموع وراء عمل كهـذا. أخذت أبكي في هستيريا وأقول لأحمد: «لِمَ تخبرنا لِمَ تخبرنا» ورفعت يـدي إليه وصدمت.

أحمد لا يزال أحمد رغم بذلته المرقطة ولحيته وعينيه المخدَّرتـين. إنه أحمد الذي وإن غادر بيتنا وحـارب فهو لا يـزال أحمد ومـا أن يدخـل

هذا البيت حتى أصبح جزءاً من هذه الدار. أحمد الذي دفعني فوق بلاط الغرفة وكسر لي طرف سني الأمامي. وأحمد الذي كان يضع في جيبه نصف ليرة ويطلب من صديقة لي أن تمدّ يدها وتأخذها حتى تلمس يدها فخذه. أحمد وزيّه الكشفي ورقصة الدولاب الهولا هوب ومعرفته كم أنا منطوية على نفسي ومحاولته مساعدتي، أحمد الداخل علينا الآن هو أحمد الماضي. لو أمحو بذلته، ولحيته وتعبه في لمحة بصر، يعود أحمد الماضي. لكن هو في هذه اللحظة أحمد الماضي. في هذا البيت بيت الطفولة والماضي. لكن ما أن يفارق بقدميه هذا الباب حتى يعود ذاك المحارب. واختفت أمي في المطبخ لتأتي له بالطعام على صينية، حتى الآن اللحم الكثير لأحمد رغم أننا في حرب رغم أنه قاتل، لا يزال أحمد الصبيّ. والتفتّ إلى والدي الذي لم أره في هذا الضعف، فقد بدا وكأن لا صوت له ولا قوّة. لا يزال يهزّ رأسه وهو يحاول أن يقنع أحمد بترك كل شيء والذهاب معنا إلى الضيعة ولدهشتي هزّ أحمد رأسه موافقاً ووجدتني أنسى للحظة أنني أمام أحمد آخر وأرفع عني أغلال الخجل وأنا أسرع نحوه فرحة.

ولم يترك أحمد فيما بعد الحرب ولم يذهب معنا إلى الضيعة. فالحرب سوسة تسلّلت إلى كيس طحين أبيض واستوطنت هناك. حتى أنا ما بقيت في الضيعة، نزلت إلى بيروت في أول فرصة سنحت لي لتدخلني تلك السوسة ولأعود إلى كنف الحرب. فالضيعة وأهلها كانوا يعيشون في اندهاش تام لما يجري في بيروت وطرابلس. عندما كانوا يتحدثون عن الحرب كأنهم يتحدثون عن مدن لا تخصّهم. كانت الحياة الرتيبة هناك الخالية إلاّ من سدّ الحاجات اليومية تجعلهم ينسون الحرب الواقعة على بضعة كيلومترات منهم. بينما لم يعد لأهل

يتمازحون وكأنهم غير الرجال الذين مشوا خلف نعشه بخشوع.

يجب أن أترك هذه الضيعة وأعود إلى بيروت. فأنا لا أشعر أني أحتمي بالضيعة وأنا بعيدة عن أحمد ولا أحب الشعور بأن الحرب تخصّ جهة واحدة من الوطن. بينما أصدقاء جدّي من القرى الأمامية المجاورة قد اعتنوا بهندامهم هذا الصباح وبدت الكوفية والعقال الهابطان حتى أكتافهم، كالنهر الأبيض، اختلط برفّ بجع وبجانبهم أكياس التبغ ذات الرائحة الجنوبية وقفوا بالعشرات ينتظرون اختراق الحدود وبيع محصولهم في إسرائيل. كأن هذا الذي يجري صباح اليوم في غاية السهولة وكأن الذي سوف يحدث بعد قليل ما هو إلا روتين يومي، لا علامة استفهام حوله من أحد، خاصة من الشباب في بيروت.

آه لو تسمع عمتي خديجة، لو تسمع أن الحدود قد فتحت بين صهيون والضيعة. هكذا كانت تسمي الأراضي المحتلة. كانت ابنتها فضيلة قد تزوّجت قبل حرب ١٩٤٨ في فلسطين ولما ضاعت فلسطين ضاعت فضيلة. ولبثت عمتي خديجة تنتظرها كل يوم وفي كل انتظار كانت حفنة من عقل عمتي تتلاشى ورغم هدوء حياة الضيعة أخذت القصص تنتشر هنا وهناك وتقول إن فضيلة قد ظهرت في كفر تبنيت وتارة في عيتا الفخار وعمتي خديجة تهرول حافية فوق الحصى وبين الأشواك تلحق بسراب فضيلة وما أن تراه سراباً حتى تدق رأسها بالصخور. وتلطم مؤنّبة نفسها. وكان السراب يسرق أيضاً حفنة من عقل عمتي فقد اختلطت الحقيقة عليها وأصبحت قصة فضيلة مشكوكاً فيها عند الجيل الجديد في الضيعة حتى أخذوا يقصدونها ويعرّفونها على فضيلة مزيّفة. وكانت عمتي تحتضن فضيلة المزيّفة

بيروت وطرابلس حياة رتيبة. صار سدّ الحاجات اليومية مختصراً إلى حد بعيد. فلا الطعام أصبح يتوقّف عنده أحد ولا تنظيف المنزل ولا الاستحمام ولا المسحوق ليبدو الغسيل أنصع بياضاً. ذابت كل هذه التفاصيل في حرارة رائحة البارود والقذائف. بينما كل فرد في الضيعة لا يزال يكافح منذ بزوغ الفجر إلى نوم القمر. ولم أشعر بعاطفة ما وأنا أرى بيوت الضيعة وأرى الناس هناك والصديقات اللاتي نضجن وسمعن عني العجائب والغرائب. فقط عندما رأيت خيمة شك التبغ التي لا زالت كما هي على مصطبة حارقة، والبنات تغطيهن مئات أوراق التبغ الأخضر يضحكن ويشتغلن بصهصنة وشيطنة والريح الساخنة ذاتها والمنظر عند باب الخيمة ذاته. كل شيء ذاته. هنا فقط شعرت أني لم أترك الضيعة ولم أترك هذه الخيمة، إلا أن حزناً خفياً سيطر عليّ لما دخلتها ورأيت كرسي جدّي. وقد تفكّك شبك خيزرانه. والبركة إلى جانب الخيمة التي نادتني منها قرينتي ذات مرة. وخفت حيث أرتني نفسها وهربت منها. ولم أسر نحوها. بل سرت نحو بقعة الأرض الجرداء القاحلة وكأني أسير في صحراء لا تزال على حالها قديمة بين حشيشها اليابس وغرسات الشجر اليابسة والشمس. بدت لي من بعيد، مقابر بيضاء قليلة العدد، تفصلني عنها طريق عمومية.

بين هذه المقابر، قبر جدي الذي لم أره منذ أن مدّدوه في حديقة بيت علي ماضي، على طاولة خشب وتركوه عارياً إلا من منشفة غطّت أسفل بطنه. كان مستسلماً والأشجار القليلة تظلّله ينتظر الغسّال. وما بكيت من قبل مثلما بكيت عندما رأيته على تلك الطاولة بينما جلس الرجال بعيدين عنه يتحدّثون ويحتسون القهوة حتى أنهم كانوا

وتغني بملء صوتها بيت عتابا تشكو بها هجرها لها. أخذ اسم عمتي يضيع بين لحاقها بسراب ابنتها وبين ضرب رأسها بالصخور وبين دعابات أهل الضيعة حتى أصبح اسمها «الناطرة». ولما أخذت تخبىء كل ما لديها من مال في كيس من الخام تلفّه حول وسطها وهي تجوب القرية والقرى المجاورة تمدّ يدها تستعطي الخمسة قروش وتحشوه في هذا الكيس حتى أطلقوا عليها اسم «المحشيّة». آه لو تسمع عمتي أن الرجال يذهبون كل يوم إلى الشقّ الآخر والنساء يلدن هناك والغنمات أخذت تضيع في الشق الآخر والكلب ما عاد ينبح خائفاً عليها من التوغّل. لكن عمتي تحت القبر الأبيض المتواضع قبالتي.

أريد العودة إلى بيروت في أول فرصة. أريدالعودة، فعقلي لا يتحمل أن في الأسلاك الشائكة ثغرة كبيرة بيننا وبين إسرائيل. عقلي المحدود كان قد علّمني أن وراء هذه الأسلاك الشائكة تعجّ الغيلان ولا أستطيع التصوّر أنه قد حلّ محلّ الغيلان غزلان رشيقة. أريد العودة إلى بيروت فعقلي المحدود لا يتّسع ولا يستوعب ما يجري هنا لا يستوعب أن أصحاب الكوفيّات البيضاء المتطايرة كرفّ بجع في نهر أبيض قد استوعبوا هذه العلاقة ومشوا معها عبر الأسلاك في بساطة. ولا يستوعب ما يقوله أحمد ورفاقه عن حربهم ولا يستوعب أيضاً الحياة ما قبل اندلاع هذه الفتيلة.

ولم أستطع الاقتناع بأيّ وجهة نظر تخصّ الحرب بالنسبة إلى الكتائب والأحرار وبالنسبة إلى الطرف الآخر. فأحمد ورفاقه يقولون إنهم يحاربون الاستغلالية، يريدون لفت النظر إلى مطالب الشيعة المغبونة. يريدون قتل الإمبريالية والنظام المهترىء والقوى الانعزالية.

كلام جميل. لكن ما قتلوا الامبريالية. وهم خلف المتاريس وأمامهم البنايات الشاهقة والمتواضعة ولافتات السير والدكاكين وأمامهم بعيداً المتراس المضادّ والرصاص الذي يتساقط والقذائف التي تحدث ثغرة في البيوت والدخان المتصاعد والأجسام النازفة هذه كلها لم تمسّ النظام المهترىء.

لم أكن أؤمن بأن هذه الشوارع التي حفظتها عن ظهر قلب تتحوّل رغماً عنها إلى ساحة حرب. هذه الشوارع الهادئة المحايدة مشحونة فجأة بروح الثأر والتوتّر. لم أكن أفهم كيف بإمكان المقاتلين أنفسهم من الجهتين تسديد النار إلى هذه الشوارع. حتى إلى فضاء هذه المدينة. هل هم مخدّرون كما كان أحمد ورفاقه، يأتون وعيونهم زائغة، لينسوا كيف كانوا يسيرون فوق هذه الدروب المحفورة بالذاكرة في زمن السلم والمطر والصحو. اليوم يقتلونها في وضح النهار وعتمة الليل. كانوا يصلون إلى منزلنا وهم شبه مخدّرين، فأجسامهم كانت تبدو كغرسة طريّة ليّنة في حاجة لأن تتمدّد في حقل تراب رطب. وكنت لا أجرؤ على سؤالهم واستفهامهم. كانوا في عالم آخر غير عالمي، عالم الذين لم يرفعوا البندقية فوق أكتافهم، لكن ولدهشتي كانوا يضحكون، ويمزحون كتلامذة مدرسة داخلية. لم أكن أفهم منطقهم هذا. منطق الحرب والحياة معاً الملتصقين اللذين لا مجال للتفرقة بينهما رغم التناقض الكبير. وما كنت أسألهم هل أصبحت الحرب عادة ومن الروتين اليومي؟ ألا تنتقلون في المدينة الفارغة في الليل وترون الحرائق والخراب والسرقات؟ ألا تعرفون أن في مرآب البناية مقابل بيتنا سيارات شحن تتوقّف وتفرغ منها المسروقات. وكان الصمت واحداً والإجابة واحدة: «لا يستطيع أحد ضبط كل الأفراد

المنتمين إلى الثورة». وعندما أراهم ممددين باسترخاء وأراهم يضحكون وهم يلقون النكات وأراهم ينهضون بسرعة ويختفون فجأة حتى أقتنع أنه ليس في قدرتي وضع يدي على ما يفكرون، ولماذا هم في هذه الحرب.

ولما كانت قد انقطعت أخبار أهلي في الضيعة، أيقنت أن أخباري وأخبار أحمد قد انقطعت عنهما أيضاً ولهذا فإن عذري الآن هو استمرار الحرب وخطورة الطرقات في عدم العودة إليهما. كما وعدتهما وأخذت ألمح تبديلاً في شخصيتي من معاملة أصدقاء أحمد لي. فقد اعتبروني كشقيقة لهم. يتحدّثون ويتحاورون. رغم أن عصبيتي كانت بادية على وجهي وكلامي ومع ذلك كانوا يواجهونني بالدعابات والابتسامات.

صحوت مرة على ضجيج وأصوات غريبة مختلطة ببكاء أطفال، ركضت إلى الشباك لأرى عشرات النساء وعلى ظهورهن الأكياس والأطفال والفُرُش. كان صياحهنّ عالياً يختلط وفساتينهن الطويلة حتى الكاحل والمزمومة عند الخصر، بينما بطونهن المكوّرة تحمل صدورهن المتدلّية حتى لو غمرها ورفعها القماش. بدا كل شيء غير مألوف ربما لأني جرّبت أن أنهض وما استطعت، فقرينتي عادت تعذّبني وأنا نائمة. كنت أسمع هذه الأصوات نفسها ولا أستطيع فتح عيني. كانت قرينتي في زاوية الغرفة تراقبني وقد جاءت بصحبة رجل لم أتبينّ شكله. لكن ثقل جسمه كان يبعد عني الشكّ بأنني في حلم. كان ثقل جسده اللاصق بجسدي يمنحني قشعريرة خفيفة وكأنه مدّ بريشة طاووس وأخذ بعينيها الزرقاء والخضراء يدغدغني في كل جسمي حتى وصل إلى أسفل بطني. ولم أعد أعي إلا أني أترنّح وأنتفض من اللذة

وعيني على قرينتي التي لا تـزال تراقبني في زاويـة الغرفـة. كلما وددت أن أكمل انتفاضتي ولذتي أربكني وجودهـا وانتشائي أمـامها. وعنـدها شعرت بثقل جسـده فوق صـدري فقط. بينما ريشـة الطاووس فـوق أسفـل بـطني. تعـالت هـذه الأصـوات وظننت أنها أصـوات اخـترعتهـا قرينتي حتى أنهض. الأصوات لا تتوقف إنما تزداد وتتغيّر، تارة عاليـة وطـوراً أعـلى مختلطة بصراخ أطفـال. حـاولت أن أفتـح عيني ولم أستطع، إنهما ثقيلتان والجفـن مطبق على الجفن الآخـر وبينهما صمـغ أبـدي. حـاولت أن أنهض، لكن جسـد الـرجـل عـاد يـطبق عـلى صدري، وكل جسمي ما عدا أسفل بطني، والـريشة نفسهـا تداعبـه وأنا ألهث راكضة خلف وقع أقدام هـذه الريشـة أحثّها أن لا تفارقني. وعندما أحسست أني أريـد التحرك، التحـرك أكثر فـأكثر والانتشـاء، انتبهت إلى قـرينتي التي لا تـزال خلف البـاب وإلى الأصـوات التي أخـذت تتخابط وزمـامير السيـارات وفجأة وجـدت نفسي أتفـرّس في الجـدار وأرى البيت سـاكنـاً والشمس قـد دخلت وسـطه ولا وجـود لا لقـرينتي ولا للرجل. بينـما ريشـة الـطاووس في مـروحـة كلّهـا من ريش الطاووس معلّقة على الحائط، تنبّهت إلى الأصوات التي لا تزال تتردّد وركضت إلى الشبـاك ورأيت النسوة وقاماتهن تختلط بقـامات شبـاب الحي. كان الجميع في معركة كلامية عند باب المـرآب، مرآب القتـل والسرقـة، رأيت نفسي أقفل البـاب بعدمـا ارتديت فستـاني وهبـطت السلالم وثقل جسـد الرجـل فوق جسمي. نـور الشمس أزاغ عيني. للمرة الأولى منذ شهور؟ منذ سنـة؟ منذ سنـوات أجد نفسي منـدفعة هذا الاندفاع بين عشرات الأشخاص غير مبـالية أو رافضـة للزحام. أخذت أدفع عن أذني الصراخ والصياح حتى العويل لأسمع ولأعـرف

أن هؤلاء قد جئن من الكرنتينا بعد معركة بين رجالهن وبين الكتائب. وبأن مصير الرجال لا يزال مجهولاً بينما النساء والأطفال ملأوا البوسطات التي جاءت بهن إلى المنطقة الغربية. وكان نصيب شارعنا بوسطة أفرغت حمولتها هذا الصباح. كان المسؤول عن حركة الشباب في الحي يحاول التفاهم معهن ولا فائدة. يصرخ الأطفال جاهلين ما يحدث. عاد المسؤول يحاول أن يهدىء الجميع، خاصة أن معظم أهالي الحي التفّ حول المهجرين. وازدادت الفوضى وازداد حنق رئيس الحركة الذي وقف فوق سيارة ثم مدّ يده إلى جيب بنطلونه ساحباً مسدسه وأطلق رصاصة في الهواء. عندها أخذت الأصوات تخفّ. لكن رئيس الحركة كان من مبدأ «قل كلمتك وامش» لأنه قال بسرعة: «جاءنا خبر بأن كل البوسطات ستذهب إلى بيوت البحر. يعني الكبائن. كل واحدة تجمع أولادها وأغراضها وتقف بلا صوت. فاهمين؟ بدون صوت ويللي بدو يطلع صوتها ما راح ناخذها معنا». وقفز من السيارة ولدهشتي لم أفكر أن هؤلاء أصبحوا بلا منازل وبلا ماض بل مع ذكريات حادّة لن ينسينها ولن ينساها الصغار. ولم أفكر أن أهلي في الضيعة وأنا وحيدة في البيت أستطيع استضافة عائلة حتى أني لم أفكر أن أتقدم بأية مساعدة مهما كان نوعها، ربما لأن تعابير وجوههن كانت لا تخلو من القسوة جعلتني أشعر أنهن لسن بحاجة إلى شيء ولهذا فإن بكاؤهنّ لم يؤثر فيَّ.

بعد أيام فكرت ماذا يجب أن يحدث أمام الإنسان حتى يكون ألمه كألم سواه. وأخذت أتساءل لماذا وقفت متفرجة وسائحة وكأن كل ما يجري، إنما يجري للآخرين ولشعوب بعيدة. هل هذا ما يحدث لأحمد ولأصدقائه عندما يفرغ رصاصهم وتنتهي ذخائرهم وصواريخهم،

وعندما يحين وقت الراحة لا يعود لهم علاقة بشيء؟ بل إنهم يتركون الموقف معلقاً حتى الساعات التالية، بينما لا يعرف من في المنازل أن المقاتلين في راحة فيبقون في ردهات المنازل وفي الملاجىء بين الصراصير والجرذان والرعب.

كان التناقض يحاول أن يفنيني. وإلا ماذا أسمي علاقتي بقنّاص البناية التي على مفترق شارعنا، عندما أخذت أصعد الدرج إليه، وبصعودي الدرج أخذت أعود إلى الحياة بعدما أمسكت بكيس النايلون الأصفر، وقلت لجارتي الفضولية إني ذاهبة لأشتري بعض الخضر ووجدت نفسي أسير في موازاة الطريق، أسير بلا قلب لأن قلبي هبط حتى قدمي. أسير وكأني منوّمة تنويماً مغناطيسياً أفكر في شيء واحد: سماع رصاصة وبعدها أرتمي على الأرض كجثث القتلى التي رماها القنّاص، لكن في الجهة الثانية. اعترضني حاجز طالباً أن لا أتجاوز مفترق الطريق، وهززت رأسي وأنا نائمة تنويماً مغناطيسياً. ما جعلني أشعر بأني موجودة وبأن ما يحدث لي هو حقيقة كانت كمية العرق الهائلة التي أخذت تتساقط مني كلي حتى حاجبي وتتركز عند قدمي حتى قلبي. ولما وصلت إلى مفترق الطرق وأخذت أتّجه نزولاً تراءت لي البناية الآمنة بنوافذها وبستائرها المعدنية المغلقة وبشجرة البلح الصغيرة الواقفة عند مدخلها. وهنا كان قلبي قد فارق قدميّ وغدوت بلا قلب وبلا أنفاس بل كأني متّ لأني ما عدت أشعر بأيّ نبض، بأية قطرة عرق، بأي إحساس، بأي تفكير. عندما دقت اللحظة الحاسمة فكرت: «ها أنا سأفقد نفسي بعد قليل»، هل سأسمع الطلقة وبعدها أهوي؟ أم أني سأهوي بلا سماعي الطلقة؟ لكني ما أزال واقفة. ولا أتنفس. وعندما أنظر إلى أعلى البناية ولا

أرى شيئاً وأنظر إلى خلفي وأرى صفيحة التنك المغروزة في الأرض، والمكتوب عليها «إحذر، قنّاص» أعود أنظر إلى أعلى. حتى الفضاء بدا فارغاً كالشارع من الناس ومن الحياة. كما قلت أخذت أعود إلى الحياة بين طابق وآخر من المبنى. كانت العتمة الخفيفة تجعل أبواب الشقق وكأن غبار السنين قد نام عليها وما نهض بعد وقدماي المجرورتان الواقعتان فوق بلاط الدرج كأنهما وقع بصمات خفيفة. كلما اقتربت إلى أعلى ورفعت رأسي ولم أره كنت أفكر: إذا كان رآني عبر منظار سلاحه لماذا لا يزال مختبئاً أم أنه يناظر الجهة الأخرى فقط؟ ربما تميّزني من فستاني الكحليّ الذي رآني فيه منذ أسبوع ولم أخلعه بعد ومن الكيس الأصفر الذي دائماً هو في يدي، ترى هل عرفني من وجهي الذي تصوّره خائفاً وحائراً في منظاره أم أنه الآن يبول في زاوية من زوايا السطح؟ هل ما أفعله هو طبيعي، أن أقفل الباب على بيت الأمان وأغدو فجأة هدفاً سهلاً للقتل؟ أين ذهب الخوف الذي كان يلفّني وأنا صغيرة وأنا أتكوّم على بعضي حتى لا تعود أنفاسي تتسلّل بل تبقى سجينة التفافي الذي لا منفذ له والخوف من أن أذهب إلى المطبخ في الليل حيث وراء نافذة المطبخ جنيتان اثنتان تراقبانني صعدتا على قرميد معلّق في الهواء؟ وأمي التي لم أزل أسمع صراخها في أذني وفي قلبي. كان الخوف يشلّني كما يشلّها، كنت أشمّ خوفها رغم صغر سني وكأنني إسفنجة جافة تركتها أمواج البحر مدة طويلة دون أن تعود إليها، أشمّ خوفها وأمتصّه ونحن مع ذاك الرجل، بل وبعد أن نفارق ذاك الرجل. أنا لا أزال أصعد هذه الدرجات التي يظهر أنها لن تنتهي، فجأة سمّرني خوفي وأنا أسمع خطوات وتوقّف قلبي. فهذه الخطوات في بحر هذا الهدوء بل في زوايا الموت

الذي يسيطر على هذه البناية وعلى الشارع والبيوت الخالية الشرفات المغلقة شبابيكها الخشبيّة. هذه الخطوات التي ينبض فوقها جسم لا يعرف إلاّ الموت، إلاّ الصمت، وأنا وحدي فقط مع خوفي الذي لم أعد أفهمه جيداً، إذا كان خوف الجنون أم جنون الخوف، وإذا كان المجنون يرتجف هذا الارتجاف ويصعق من سماعه لهذه الخطوات، وكأنني انتظرت الانفجارات والزلازل ولم أنتظر هذه الخطوات الخفيفة التي سمّرتني مكاني.

نظرت إلى أعلى بعدما كنت أتلفّت فقط إلى جانبي. رغم العتمة تبيّنت وجهه. إنه ذاته وسمعت صوته: «هل رآك أحد تأتين هنا؟» ولم أجبه بل تسمّرت مكاني والخوف قد انقشع عنّي لسماعي صوته. إذاً هو بشر يفكّر ويستفسر. إنه لبنانيّ يعرف متى نضج عنقود العنب وموقف السرفيس يعرف صخرة الروشة ويستطيع تصوّرها. لبثت متسمّرة في مكاني. هبط الدرجات القليلة ورأيته الآن بوضوح. وأخذت أحفر في الكيس الأصفر الذي قاربته حتى لاصق فستاني وفخذي. سمعت صوت القنّاص يقترب مني وجسم القنّاص يقترب مني وشممت رائحة عرق قويّة وهو يمدّ يده ويضع كفّه فوق صدري. وانتشل يده وأنا لا أزال أتفرّس في العتمة وجدار السقف ويظهر أنه أخذ يفكّ أزرار بنطلونه وعاد بيديه يدير كتفي حتى أغدو قبالته. وهجم عليّ وطرحني فوق الدرجات وهو يمدّ يده رافعاً فستاني حتى الخصر. يتمدّد فوقي محاولاً أخذي دون أن ينزع سروالي. كانت الدرجات قد آلمت ظهري وجانبي فتململت، ولم يبال وشعرت بانتفاضة للحظة واحدة ثم نهض وهو يمسح ما حول فتحة بنطلونه بطرف كمّه ويقفل أزراره. كنت قد لملمت نفسي في هذا الوقت

ونهضت والألم عند ظهري وعند صدري. مددت يدي أتحسّس العظام التي أخذت تؤلمني، لبثت واقفة للحظة ثم استدرت أهمّ بالنزول لأسمعه يقول: «بكره بعد هالوقت بروح لعندكم عالبيت» وهززت رأسي نفياً وأخذت أنزل الدرجات وسمعت خطواته تلحق بي قائلاً «أحسن عندكم بالبيت». وقلت له: «وأخي أحمد دائماً يأتي إلى بيت عمتي» وقال وأنفاسه لا تزال لاهثة: «أقصد بيتكم مقابل مطعم أبو جميل» وهممت بالنزول دون أن أجيبه. وسمعت خطواته تصعد الدرج وتختفي. وتحسّست الكيس الأصفر وقرّبته من فستاني وأخذت أشعر بالبلل الذي تركه فوق فخذي وعند حافة سروالي. وأنا أتمنّى أن يتوقف زحف هذا البلل البطيء خوفاً من أن يفضحني. وقبل أن أغادر باب البناية توقّفت حتى أستجمع قوتي وخرجت إلى وضح النهار، إلى بحر الهدوء والموت، وكان الشارع كالعادة ساكناً لدرجة أني إذا رميت إبرة سمعت رنينها الخافت. وما أن قطعت مفترق الشارع، ولافتة «إحذر، قنّاص» حتى أخذت الحياة تتسلّل إلى بقيته حتى بيتنا وأخذت أستعجل خطواتي والكيس الأصفر الفارغ لا يزال ملتصقاً بفستاني وفخذي وبلل القناص لا يزال يزحف زحفه البطيء عند أعلى فخذي وأحياناً يلتصق بتنورتي الداخلية. ولما وصلت إلى مدخل بنايتنا تنفست بعد أن كنت قد قبضت على نَفَسي ولم أفتح له أي منفذ وركضت فوق السلالم أفتح باب البيت في ارتياح تامّ وكأني سمعت لتوّي نبأ انتهاء الحرب. ولما كان البيت فارغاً ينتظرني أحسست بارتياح أكبر وحتى بخيط من الفرح. ودخلت الحمّام أقف أمام وعاء الماء الوحيد وأرفع تنورتي أنزعها عني وأبلّ طرف المنشفة وأمسح بها أسفل بطني. وأفكر بوالدي وأمي وغيابهما الذي سهّل عليّ

كل حركة أقوم بها. وتذكّرت الجارة واستفسارها الدائم وقلقها على والديّ بينما لم أفكر فيهما مطلقاً رغم أن أخبارهما انقطعت عني منذ شهر ونصف. كان عذري قوياً وعذرهما أيضاً، وأعذار كل من في لبنان وخارجه. الحرب قطعت جسر العلاقات حتى جسر الكتابة.

أستطيع القول إن في حياتي شيئاً واحداً، ربما شيئين: البحث عن الماء وتوقّف قلبي المؤقت عندما أفارق درجات بيتنا إلى الموت والهدوء وعدم التفكير إلا في سماع طلقة لأرتمي بعدها على الأرض. لكن، ما أن أصل إلى البناية ذاتها حتى يعود قلبي يخفق، يعود فيتوقف من شدة لهاثه ونبضه، حينما أمرّ على درجات هذه البناية الصامتة، تبدو لي أبواب الشقق كل مرّة مهجورة، كأنها تتنصت إلى وقع خطواتي التي تكاد لا تلامس البلاط الوسخ. لم أصادف أحداً طيلة تسلّقي هذه الدرجات حتى هذا اليوم، رغم أني كنت ألمح أعيناً، فقط أعيناً تؤنّبني في الظلام لم أكن أطيل التحديق في هذه الأعين. فالوقت كالرصاص يجب أن أطير به خوفاً من أن أقع على الأرض. كان سامي ينتظرني في ساعة معيّنة، كأنّه لا يعود يعي سوى لحظة قدومي وما أن أرفع نظري إلى أعلى حتى أراه يطلّ مبتسماً وقبل أن أخطو الدرجة الأخيرة يكون قد مدّدني وارتمى فوقي. كنت كعادتي لا أشعر إلا بأنه يخترقني ويخبط على جدار داخلي. عدا هذا لم أكن أشعر باللذة بل كنت أشيح بنظري عنه وأكتفي بهذه الحركة. لم أكن أجرؤ على فتح فمي والتحدّث معه وهو لا يزال فوقي. ولم أكن أريده أن ينهض عني فبعد أسبوع من قدومي أخذت تنتابني لذّة خاصة تتملكني لحظة يطرحني على الأرض. وكان هذا الشعور بالاطمئنان وحتى الارتخاء يزداد يوماً بعد يوم، رغم أن حديثنا كان لا يتعدى سؤاله لي إذا كنت

في حاجة إلى مال وإذا كنت أنتبه جيداً وأنا في طريقي إليه. مرة سحب من جيبه مئة ليرة محاولاً أن يضعها داخل حمالتي، وقتها ارتجفت ذقني وأجهشت بالبكاء ومددت يدي أبحث عنها حتى أعيدها، مدّ يده يأخذها بسرعة مبتهلاً: «دخيلك ببوس إجريك بس ما تبكي، هلق بيسمعك حدا، أنا عارف إنك بنت عيلة وما بتاخذي مصاري، بس الدنيا حرب» وقفت لأعود ككل يوم أزحف إليه كخيط العنكبوت غير الواضح. فلم أكن أفكر إلا في قلبي وتوقّفه وأنا لا أزال أزحف بقدمي فوق بلاط الدرج والبلل لا يزال عند أعلى فخذي. مددت رأسي بعد جسدي وخرجت إلى النور والموت والحرب وأخذت أتلطّى بسيري وأحتمي بالبنايات رغم أن سامي هو إلّه الحرب الوحيد والخطر الوحيد في هذه البقعة. إلّا أنّي كنت أخاف من إلّه حرب آخر قد ينبت فجأة عندما كنت أرى الحاجز كنت أتنفس وأفكر بيني وبين نفسي بأنه قد كتب لي عمر جديد وبأن نجاتي وبيتي وحياتي بعد هذا الحاجز. لكن كأن قلبي لا يزال في مرحلة توقّفه مع زيادة حشرجة في صوت خفقاته، فشباب الحاجز لا يكفّون عن سؤالي وأحياناً الصراخ بي: «شو عم تعملي يا بنت جاية من هونيك ما بتعرفي في قنّاص؟» ولم أكن أجيبهم بشيء بل كنت أسرع الخطى ورأسي عند قلبي حتى أصل إلى البيت وأدير المفتاح في ثقب الباب وأرتمي فوق الفراش. النهار في الحرب طويل وأنا يومي في الحرب قصير أفكر طيلة الصباح في بعد الظهر وفي السطح وفي سامي أفكر طيلة الليل في دفء جسمه الذي ما أن يمدده فوقي حتى تعروني موجة اطمئنان وارتخاء وأخذت موجة من الارتعاش لم أعرفها من قبل تهب عليّ بعدما نهضت مرة أنزل من تنورتي المرفوعة ورأيته يمد يده

ويناولني ورق كلينكس ولم أتجرأ على مسح فخذي أمامه رغم أنه أدار ظهره لي وبقيت ورقات الكلينكس معصورة في كفي لما عاد بوجهه قبالتي مدّ أصابعه إلى جيب قميصه وطال بحثه وعاد ينظر إليَّ وأصابعه تكمش خاتماً يلمع. أخذ يتأمله وهو يسألني إذا كان هذا الخاتم جميلاً. رأيتني أهزّ رأسي بالإيجاب. ثم مدّ يده يفتح كفّي وورق الكلينكس لا يزال معصوراً، وعاد إلى كفي الأخرى يفردها ويضع الخاتم فيها ثم يطبقها وبقيت كفي معصورة على الخاتم والأخرى على ورقات الكلينكس. وسمعته ينادي اسمي والتفتّ مستغربة، فأنا قد أعطيته جسمي وأعطيته حياتي وموتي ولم أعطه اسمي. لم أستفسر منه كيف حزر اسمي. بل نبت أمامي والدي، لكن نبت هذه المرة هزيلاً، بلا شعر فوق صدره. وبلا شاربي هتلر، وبلا ساعة في بنطلونه. لم أعد أراه فوق أمي يضربها وصوته لم يعد صوت الرعد المهدّد. يقربني سامي منه وأنا مستسلمة. يعود فيمدّدني عند الفسحة الوحيدة قبل باب السطح، ويرفع تنّورتي بيد واحدة بينما أصابع يده الأخرى تتسلّل إلى أسفل بطني. خجلت عندما تحسّس الدبق الذي لا يزال يحيط تلك المساحة مني. شعرت بأني لا أودّه أن يرفع يده، ولأول مرة أفرد ذراعي وأشد بها ظهره حتى يلتصق بي أكثر. تمنيّت وقتئذ لو تأتي أثقال العالم كله فوقي بينما يده لا تزال عندي. ووجدتني أغمض عيني وأشدّه بذراعي حتى يزيد من ثقله فوقي. ويده لا تزال عندي ما إن تهمّ بمغادرتي حتى أنتفض وأدخلها إلى السجن بشدّ فخذيّ عليها. أدرك سامي ما أريده وأخذت يده تتحسّسني بهدوء، ولما أردت المزيد أعطاني، وأردت المزيد، فأعطاني حتى صرخت.

صرختي امتدّت كبركان يقذف حمماً وأتربة نارية يفجّر كّل داخله بالرماد الخطر المنهمر وبالغبار الخانق فوق كلّ أيامي الماضية. يمحو باب عيادة الدكتور شوقي وغرزة الإبرة في فخذي. الباب الذي وقفنا خلفه تختبىء وهي تعصرني بخوفها والوجه السمين الذي امدّ في الظلمة يرانا ولا يرانا كسر أغصان شجرة الجوز حيث أمي والرجل إياه ممدّد فوق حجرها وأنا أشعر بالبرد رغم أشعة الشمس ورغم سخونة الأحجار البنّية النظيفة.

في الغرفة وراء الباب الذي وقفنا ترتجف خلفه، على سرير تلك الغرفة كانت الظلمة لا تريني أمي ولم أكن أجرؤ على مناداتها، كان الرجل قد أقفل الباب بالمفتاح وأقفل الشبّاك الخشبيّ الأخضر الذي كان يطلّ على الجنينة وهمست أمي بأذني بأن الدكتور شوقي يريد أن يفحصها، أكان الرجل غير الدكتور شوقي أم ترى هو الدكتور شوقي والبشر تتبدّل أشكالهم من وقت لآخر؟ لما كنت رغم العتمة أرى أمي وهي تخلع جواربها وتتكلم مع الرجل، رأيته يفتح الشباك بهدوء بينما أمسكتني أمي من يدي وقالت «خلّيك تحت الشباك، أوعي تروحي تلعبي بالجنينة، وما تخلّي حدا يشوفك، أنا ما بتأخّر» قبل أن أتمنع وأقول لها إني خائفة. رفعني الرجل وأنزلني على المصطبة المطلّة على الحديقة وقبل أن ألتفت لأرى أمي، كان الشبّاك قد أغلق بسرعة لأجد نفسي أقف وحيدة أرتعش. كنت خائفة من أن يأتي أحد ويسألني ماذا أفعل هنا. لا أعرف كم من الوقت مضى قبل أن أجمد في مكاني وأنا أرى في آخر الحديقة امرأة في ثوب قصير تنشر غسيلها فوق الحبال، تتناول الملقط من فمها وتشبكه في الحبل وتعود فتنحني حتى الأرض تتناول بضعة ملاقط وتضعها في فمها. ألتصق بنفسي

وبحائط الشباك أكثر فأكثر. لكنها رأتني وهي تدير رأسها إلى الجهة الثانية لتعدل من الشرشف ووقفت تحملق بي لفترة ثم تبتعد وتختفي. ما إن أخذ خوفي يتنفس باختفائها حتى فتح الشباك وتناولني الرجل من إبطي وأنا أرى المرأة ذاتها ومعها امرأة أخرى تشير إليّ.

هذا الرجل ماذا حلّ به؟ أين هو الآن؟ هل يعرف أنه في الأيام التي تلت، ربما في السنين التي تلت، رأيته عارياً عندما نهضت من نومي فجأة من جراء لسعة بعوضة في خدي. كان هو بلا بنطلون إنما في جاكتة البيجامة وكان النور في الغرفة كنور غياب الشمس الأحمر الذي كان يحطّ على زجاج بيوت الجبل، وكنا نراه حتى ونحن في الساحل. الخوف شلّ ألم اللسعة وعدت أدير ظهري حتى كاد وجهي يلامس الحائط. كنت أتصنّع النوم. سمعتهما يتهامسان ثم سمعت جلبة خفيفة تصدر عنهما. لم أفهم ولم أعِ ما يحدث خلف ظهري. ألصقت وجهي بالكنبة والحائط وأنا كمن على قمة جبل أنظر إلى سفحه المنخفض خائفة إذا تحركت، ولو شعرة، من أن أضيع موقع قدمي، وأتدحرج حتى سفحه. لذا كان عليّ أن أجمد وأجمد معي كل الانفعالات المتحركة إلى أن سمعت خطوات أمي تقترب وتناديني باسمي وتتحسّس ضفيرتي بيدها وتقول باسمة: «صح النوم» ولم أستطع النظر إليها بل نهضت وسرت فوق الحصى الأبيض بينما رائحة كريهة تنبعث من البحر ومن الشاطىء. لحقت هي بي تمسكني من يدي. وتمنيت لو أعضّ هذه اليد لكني عدت أضمّها إلى صدري وأشدّ على بياضها إلى الأبد.

في ذاك الحمام، في إفريقيا، حيث كان الطنين يتكسّر خلف جدرانه، كان مخلصي، وكان هو فعلاً مرفأ الأمان الوحيد بين تلك

الأدغال ومدينة الوجوه السوداء. هل كان انتفاض خالي اللاصق بي عبر قميص نومي هو ما جعل ذبذبات عقلي تتوتر ولا تعود تسير بنظامها. تجعلني أشعر أن نهاية حياتي هي في ذاك الحمام في إفريقيا حيث الدفء والأمان. هل جسم ماجد كان فعلاً حلزوناً يزحف، وبزحفه فوق لحمي كان يترك دودة تحمل في زحفها سمّ العقارب وتغرز مسلّة كبيرة في مسامي قبل أن تعبئها بالسمّ الحارق وقبل أن تضع جسمي تحت مكنة خياطة الأجسام وتبتدىء بغرزاتها فوقي حتى أصبح وسادة؟ هل مضاجعة ماجد لي كان يجب أن تجعلني أتقيأ وأتمدد اليوم بعد الآخر، الليل تلو الآخر، كالعشب الأخضر المنزوع من الحقل والمطروح فوق صينية قش في مكان مهمل حتى يجفّ ويتكسر؟ وضجيج السيارات في الكاراج حيث أنا ممدّدة وفوقي مالك أم أنه ما كان فوقي لحظة، وكل هذا من نسج خيالي. هل كان فعلاً يستطيع أن يفشي لوالدي بسر لقائي ونومي معه؟.

كانت صرختي تحمل ألم الأيام التي كنت أتقوقع فيها، في زاوية ما، دائماً في الزوايا أو في الحمام أشدّ على جسمي ونفسي أودّ أن أعود كجنين في رحم أمّه. كان هذا التقوقع متعباً لأني كنت أشعر بأني لم أعد أملك أي جزء من جسمي فذراعاي المشدودتان جفّتا كعودي حطب وركبتاي كرة حديدية وفخذاي منشاران ينشران بعضهما البعض. هكذا ساعات وأياماً حتى أرى نفسي أنتفض انتفاضات متتالية وأرى مريول الدكتور الأبيض يفارق الغرفة. وكنت أبقى على صمتي، إنما هو صمت آخر فيه راحة ونعس وتمدد من جراء هذه الانتفاضات إثر الجلسات الكهربائية.

صرختي كان فيها جنون الماضي عندما كنت أشعر أني أريد المزيد

من كل شيء، من الطعام والكلام والضحك. لكن والدي والجيران حتى الجدران كانوا يخففون من حدة طلبي لهذا المزيد. أمي تلكزني بيدها إذا كنت قريبة منها أو تغمزني بعينها طالبة مني أن أكفّ عن الضحك الذي كانت تدعوه بقهقهة العاهرات. أحمد يرمقني بحذر وكانت أنفاسه تضيق بي كلما سمعني أضحك في السينما ويهمس «ضحكتك غير شكل».

ماذا حدث لي أنا الصارخة على بلاط وسخ في بناية مهجورة أنفاسها أنفاس الرعب والحزن، وملكها إلّه الموت؟ لقد ارتعش جسمي لأول مرة منذ ثلاثين سنة وها هو قد هزّته اللذة وبات كأنه ينظر إليّ. هل سامي فعلاً هو قنّاص، هذا الذي يقف (وكان قد خلع بنطلونه لأول مرة منذ أن ابتدأت أفد إليه من شارع الحرب) ـ لماذا سامي هو قنّاص ومن أوحى له أو من أصدر له الأوامر حتى يقنص المارّة المجهولين؟ هل أعدّ أنا شريكة القناص لأني أصبحت شريكة جسده، رغم أن همي كان عندما رأيته أول مرة وهرعت أطير إلى البيت وأنا أرتجف وأصعد السلالم كل ثلاث درجات، في قفزة واحدة، وأقول للجارة إنه يجب الاتصال بشريف الأخوي أو جريدة النهار حتى نخبرهم عن القنّاص الملاصق للسطح الذي تسكن في غرفته عمّتي صفية. وكيف فاجأتني هي صارخة: «يا ويلك تفتحي هالسيرة قدّام حدا وإلا بيجوا يقوّصونا. بس على كل حال هيدا القنّاص أكيد عم يقنص من جهة الأشرفية». وأجبتها صارخة: «بس هيدا عم يقتل عن أبو جنب».

مضى اليوم الذي نقلوا به عمتي صفية إلى الضيعة وكانت تعيش في بيروت وتشتغل في معمل للحلويات بينما أخذ القنّاص يعيش

معي. صورته وهو محنيّ الظهر ينتقل كالهدهد من إحدى زوايا السطح إلى أخرى. بينما كان مقرّ قيادته قرب خزّان المياه. فهناك إبريق ماء من الفخار، وعليه غطاء من صفيح. رغم القبعة التي خبّأ بها كل شعره ورغم أني لمحت وجهه فقط إلا أن شكله لا يزال مرسوماً أمامي. أخذ تفكيري ووحدتي وتوتّري كلها تنصبّ على تلك اللحظة، التي رأيت فيها القنّاص. وعن ذلك الرعب الذي امتصّ كل ذرّة بي. هل كان رعباً فقط أم أن الصدفة بغتتني وبعدها أيقنت أن عليّ تصديق أسطورة القناص، بعد أن كانت وهماً؟ وقتئذ تسمّرت مكاني وأنا أنشر الغسيل على الحبل المتشابك بأغصان دالية العنب عند عمّتي صفيّة وأنا أرى على سطح البناية الملاصقة رجلاً في يده بندقيّة يخبىء شعره بقبعة ذكرتني بعمّال الأفران في الشتاء. كان يقرفص وهو ينتقل من زاوية إلى أخرى. لأول وهلة أيقنت أنه مقاتل، ولوهلة تلت عرفت أنه قنّاص فتسمّرت مكاني وكانت حبّة العنب التي لا تزال حصرماً قد علقت في حلقي ولم أستطع مضغها أو بلعها خوفاً من أن أثير انتباهه ويرميني جثة هامدة. رأيت نفسي أنخفض وأقرفص مثله وأحبو حتى أصل إلى باب المطبخ وأسرع أتناول حقيبة يدي. ما إن سمعت عمتي صفيّة تقول وهي لا تزال ممدّدة على الفراش فوق الحصيرة: «الله يعطيك العافية، يا زهرة، إن شاء الله بنشر لك ثياب أولادك» حتى قلت لها بعصبية: «يللا يا عمتي، لازم بكرة تروحي عالضيعة شو هالقعدة وحدك بها العلية وبأودة هالسطح! صار وركك أحسن، وهيك هيك بدك تظلّي نائمة، نامي بالضيعة، بالقليلة هناك في أمان». وهمّت أن تقول لي شيئاً لكني

تابعت: «برّه في رصاص طاير ما قدرت أنشر الغسيل، حطيتهم هون على الكراسي».

ودّعتها وأنا أغلق الباب ورائي وأنا أفكّر بالقنّاص وبعمتي. ارتحت نوعاً ما عندما أيقنت أنها لا تستطيع السير ولا الخروج إلى السطح. كانت هي تريد أن تنتقم من والديّ لأن أمي رفضت استضافتها عقب وقوعها وكسر وركها اليمنى. وفضلت عمتي البقاء وحيدة في غرفة السطح تستدرّ الشفقة من الآخرين وليعيّب الناس على أخيها وزوجته.

كان هذا التفكير المتواصل في القّناص وأنا ألهث فوق الجريدة، أتتبّع أخبار قنّاصي المحلّات المتعدّدة. لما كنت أصل إلى محلتنا وأقرأ عدد الذين ارتموا قنصاً في الجهة الأخرى كانت تبرز في مخيلتي صورته وهو منحني الظهر، والمنظار المتدلي حول ركبته، ينتقل كالهدهد من زاوية السطح إلى الأخرى كأنه يبحث عن القمح والقنبز. أعود فأبعد الصورة وأنا لا أزال ألهث وراء ماذا يجب أن أفعل، هل أرمي عليه قنبلة؟ هل أتعلم استعمال المسدّس وأرمي رصاصة في قلبه؟ لكن كأن هوسي به صار متواصلاً كذلك هوسي وأنا أجمع أرقام الذين قنصوا برصاصه وأحدث نفسي قائلة بأني السبب. ما انقطع لحظة تفكيري بالاتصال بشريف الأخوي أو بجريدة النهار. لكن كيف أتصل بهما ولا هاتف عندنا؟ لذا وأنا جالسة اتسلّى بمراقبة زبائن مطعم أبو جميل، رأيته. هل أنا أهدس؟ هذا وجه القنّاص؟ كان شعره هذه المرّة مالساً تكاد خصلاته تحطّ على كل وجهه. وشهقت. لقد حفظت وجهه لأني رأيته مرات عديدة في هذا المطعم

قبل أن أراه كالهدهد فوق السطح. ويجلس كما يجلس كل البشر. ويرفع شعره عن وجهه طوال الوقت. نهضت كالكلب المسعور أدور في الغرفة والعرق يدور معي وأخاطب نفسي بصوت مسموع. ماذا أفعل، ماذ أفعل، لو يأتي الآن أحمد! لو أن عندي مسدساً لكن من سوف يصدق قصتي؟ من سيصدّق أن هذا الرجل المبعد عن وجهه شعره الأملس والذي يأكل كبقية الجالسين ويلتذّ بصحن الفول والحمّص، هو القنّاص؟ وأخذت أدمن الجلوس خلف النافذة وكلما رأيت القنّاص كانت أفكاري تتخابط إلى أن لمعت فكرة غريبة وأنا أسأل نفسي ما هو يا ترى الشيء والحدث الذي يلهي القنّاص عند تصويب البندقية بل يجعله يفتح فمه من الدهشة؟ ربما ظهور فرقة من الزنوج ترقص على أنغام الطبول غير مبالية بالرصاص وبالحرب؟ أم نوري وسعدانه؟ أم مرور امرأة عارية؟ لربما عندما يرى مشهداً من هذه سيتوقّف برهة ليسأل نفسه ماذا يجري؟ ماذا يحدث؟ هل جنَّ هؤلاء، والحرب لا تزال؟ هل جنّ هو بقنصه للأبرياء؟

في اليوم التالي، لما رأيته عند مطعم أبو جميل أسرعت آخذ مفتاح غرفة عمّتي صفيّة واتجهت إلى بنايتها لأول مرة منذ أشهر أسير بعد منتصف شارع الحياة حيث شارع الموت والدمار. كانت بناية القنّاص اللاصقة ببناية عمتي من جهة واحدة بينما الجهة الأخرى كانت تطلّ على الجهة الشرقية، «والقنص هو على الجهة الشرقية لا على جهتنا». هكذا كنت أفكر وأقنع نفسي طوال سيري إلى أن دخلت بناية عمتي وأخذت أعدو إلى السطح حيث غرفتها. ولما فتحتها فحَّت الرائحة التي تنبعث دائماً من المنازل المقفلة. ربما كانت رائحة الهجر

والوحدة. ووجدتني أفتح باب السطح بكل هدوء، عندما لا أجده أسرع الى داخل الغرفة فأتمدد على السرير بارتياح. بارتياح؟؟ كأن معرفتي الحقيقة ـ رغم هول ما اكتشفت ـ مدتني بالراحة. أتمدد على السرير ساعة ريثما يعود من مطعم أبو جميل. نهضت مرة ثانية أفتح باب السطح وكأني نملة. أحبو على ركبتي ويدي، خفت أن يكون فتحي للباب قد أحدث جلبة. عندما مرّت دقائق وكل شيء عندي وعنده ساكت، مددت عيني فقط ورأيته يجلس مستنداً على جدران خزان الماء، مادًّا قدميه، والإبريق ذاته لا يزال على مقربة منه مع علبة التنك. المنظار حول رقبته، بينما يداه مبسوطتان فوق البندقية النائمة على فخذيه. إنه نائم. عدت إلى الغرفة وأنا أتساءل، لماذا اختار هو هذه البناية رغم وجود غرفة عمّتي على السطح المجاور؟ هل ظن أن هذه الغرفة الصغيرة خزّان ماء أم غرفة مؤونة؟ ووجدتني أخلع ملابسي وألفّ منشفة حول وسطي ومنشفة حول رأسي. وأمسك بمنشفة ثالثة وقبل أن أمدّ بنفسي للموت، عدت بقدمي إلى داخل الغرفة. هل حيلتي هذه مقبولة يا ترى وكنت بحاجة لأن أستجمع شجاعتي ولأحّمس نفسي ولأخطّط أكثر. وجدت نفسي أتسرع كعادتي وأخرج إلى الموت والنور أدير له ظهري وأنا أدندن بأغنية لأسمهان وأخذت أشبك المنشفة على حبل الغسيل. كأن شبكي لها قد أخذ هنيهة إذ احترت بما عليّ أن أفعله بعدها ولم «أر سوى العنب الذي هرّت معظم حباته ويبست من كثرة ما رأت وهج القذائف. لما لم أستطع قطف العنقود وكلما شددت اهتزّت الدالية كلها وأحدثت صوتاً، أيقنت أنه يعبيء رصاصه غير مبال بمنظاره وأن رصاصته هذه سوف تندفع وتخترق ظهري العاري. فجأة قلت مقلّدة

أمي «ليش يـا بنت الحرام مش عم تنقطفي؟» ثم التفت نحو البـاب وكأني أودّ أن أدخـل حتى آتي بسكّـين أو مقص فـرأيتـه وقـد نهض وأخفى المنظار والبندقية والإبريق وغطاء التنك ووقف وحيداً بدون قلنسوته. وحيـداً ملتصقاً بجـدار خزان المـاء. أخذ قلبي يـدقّ بعنف وأخـذت أتقوقع وأشدّ المنشفة من على الحبل وأخبيء نفسي تحتها بينما أصـابعي أخذت تعبث في وجهي. ولم أعرف مـاذا يجب أن أفعل. حـاولت أن أسرع إلى الداخل لكن ولذهشتي سمعته يقول بصوت هـاديء: «شو عم تعمـل المدمـوزيل هـون؟» أجبته بصـوت مرتجف: «هيـدي أودة عمتي، وأنا بجي أتحمّم هون لأنو الميّ مقطوعة في بيتنا»! وجوابي كان أشبه بالاعتذار وكأني خائفة منـه. أسرعت أمضي إلى الداخـل أتنفّس بلا قلب. قلبي قد أصبـح عند قـدمي. دخلت الحمّام ألبس مـلابسي وأنـا أرتجف وألوم نفسي عـلى جنونها. وانتبهت أنـه قد خبـأ كل شيء وبـدا كـأنـه ابن الجـيران الخجـول. فجـأة سمعت بخبط عـلى أرض السـطح. هـذه الخبـطة جعلتني لا أعـرف كيف أنتهي من ارتـداء مـلابسي وأتعثر وأنـا ألبس حذائي. ثم سمعت شيئـاً آخر يخبط عـلى أرض السطح وخفت في المرة الثـالثة أن أسمـع رصاصـة وهرعت إلى الخارج وحانت مني نظرة إلى أرض السطح فـرأيت حصاتـين ونظرت إلى القنّاص أو إلى ابن الجيران الخجول فرأيته لا يزال ملتصقـاً بخزان الماء. قال بصوت هادىء: «وين بيتكم»؟ فـأجبته «قبـال مطعم أبـو جميل» قـال: «مجوتـك خطرة كثـير»! وهززت رأسي مـوافقة وصـوتي لا يزال يخرج من فمي وكأنـه برفقـة شلّال ميـاه، وكأنـه هرب من مصيـدة.

وطال صمتنا وكان نظري قـد سرح بعيداً عني وعنـه ووجدتني ألتفت إليه وأقول: «يللا بخـاطرك» وأجـابني: «مع السـلامة». هـرعت إلى

السلالم وأنا ألعن خوفي وارتباكي ووجدتني أسير في موازاة البنايات وكل لحظة أفكر أن رصاصته سوف تقتل سرّه في موتي. أعود أدافع عن موتي مذكّرة نفسي أنه ما اشتبه بي وبدا لي ابن الجيران الخجول ـ أو في أسوأ الحالات ـ لصّ حرب. وعادت فكرة الرصاصة التي سوف ترميني على اسفلت الشارع الذي أصبح حفرات صغيرة وكبيرة من كل الأنواع والألوان والأشكال، فهو ربما لم يصدق قصتي، ربما لهذا سألني أين أقيم؟ ربما ليحزر من أية جهة أنا.

لاح بيتنا لي موحشاً من بعد، ووجدتني أكره الدخول إليه. لا أفكار سوف تتسلل حول القناص بعد اليوم. ها هو قد رآني نصف عارية وسمعني أدندن وعرف أنني وحيدة في غرفة السطح. ها هو قد طردني بطريقة ما وها هو إذاً مرّ من أمام منظاره فرقة من الزنوج تقرع الطبول، أو نوري وسعدانه، سيبقى الأمر سيان بالنسبة له ولمنظاره ورصاصه. ماذا أفعل؟ وقد أضعت معجزة لا يحلم بها إلا الأنبياء. ها قد التقيت لوقت قصير قد مضى قناصاً يهابه الناس والشارع والطبيعة مجرداً من سلاحه بل رآني هو كما يرى الرجل المرأة في حالة السلم وتحدّثنا ومع ذلك طردني. كان يجب أن أسأله أن يترك السلاح. كان يجب... ويبدو أنه لم يبق لي إلا أن أجلس عند النافذة أراقب مطعم أبو جميل وروّاده.

صرختي نبتت في جسمي وقبل أن تنمو كنت قد زعقت بها حتى يسمعني الخارج ويأتي ويراني ممدّدة تحت قدمي القناص الذي وقف الآن يعدل من بنطلونه ويقول لي بلهجة المنتصر: «شو الهيئة انبسطت»!! ولم أجبه بل أخذت أحدّق به. لأول مرة منذ علاقتي به أسأل نفسي ماذا أفعل هنا ممدَّدة فوق الغبار والوسخ؟ ماذا أفعل هنا

ممددة وقبل أن أفد إليه كان يراقب رأس الضحية وبعد أن أغادره سيراقب رأس الضحية؟ لماذا أزحف بين شارع الموت والحرب وآتي إلى هنا كل يوم. أعرف أني لم أستطع إنقاذ أحد سوى في الفترة القصيرة التي ألاقيه فيها لكن لا أستطيع اعتبارها انقاذاً، فهو يأخذ قيلولة وزيارتي له بمثابة قيلولة. إني لم أحاول حتى فتح الموضوع والتحاور معه. حتى أني لم أعد أفتح الجرائد بهوس وأقرأ وأعدّ الجثث التي رماها. هل أنا طائر بوم قد تحوّل إلى انسان أم أن الشيطان نفسه قد تحوَّل الى انسان بي، عندما نادتني قرينتي ذات ظهر حارق؟

لماذا عدت مرتاحة في هذه الحرب؟ إن لأيامي بداية ونهاية الآن. لذلك فأنا في حالة اطمئنان. عاد صوت القذائف كما كان في السابق يهدهدني ويجعلني أنام والحرب تجعلني أعيش في سور نجاة أبدي، بينما تتكاسر فوق جدرانه السهام والقلوب والدماء. لماذا لم أشعر باللذة من قبل وأنا على أسرّة طبيعية ولم أتشبَّث بظهر رجل بينما أتشبّت بظهر القنّاص؟ ولماذا هو الذي جعلني أضحك في سري على خوفي من والدي. اذ أخذت أسأل نفسي ولأول مرة إذا كنت حقيقة قد سافرت إلى إفريقيا لأتخلّص من قصّة عذريتي.

ها أنا ممدّدة أضحك في سرّي عن اليد المرتجفة، يد الطبيب الذي قتل جنيني أكثر من مرة واحدة والممرضة التي كانت تقول: «يللا يا بنت، يللا قبل ما يستعوقك أحد»! لقد كانت تضع المكياج دون مرآة: وها وجهي لا يزال بلا أصباغ. بل إن بثور الحرب قد محت البثور ومع ذلك فأنا لا زلت غير جذابة. ربما الحرب وانقطاع القنّاص عن الحياة وعن المرأة جعلني مصبّ تعبه، مصبّ ضميره ومصبّ رصاصاته التي ما تفجّرت بي بعد. كنت أصرخ، أصرخ دون

أن أدعه يسمع: يا أيها القنّاص المتربِّع فوقي كجبل شاهق لا وزن له والذي يحفر في جسمي أخاديد عميقة، ألا تستطيع أن تحفر أعمق فأعمق حتى تفتح فوهة أخرى بي وتفلت منها تلك اللحظات الطويلة الخائفة واللوحات التي انغرزت بألوانها وأشكالها ووقع ريشها في داخلي، ولم تعد تتزحزح لذا فمن الصعب دعوتها بالذكريات بأيام مضت لأنها موجودة كلما حفرت في جسمي وتنهدت أنت وانتظرت أنا. انتظرت أنا لا باستسلام، بل كنت ألحق بانتظار سريع حفرك بي حتى أصرخ وأرتعش وتتسلل إليّ اللذة بدفعات متتالية، بينما جسمي تستحلفها أن تكفّ، ومع ذلك فإنها تنتظر بسرعة متلاحقة. يا أيها القنّاص، أجل، كما تريد أن تحفرني أنا موافقة، بالمنجل وبالرفش، إنما أريد أن تستخرج مني تلك التي لا أستطيع تسميتها بالذكريات أو بالأيام الماضية لأنها لا تزال هنا مغروزة في جذوري وكأنها شجرة ميتة، ميتة الأغصان والأوراق والجذوع. النحل والحشرات أخذت منها قلعة مهجورة، فخشبها متآكل ومع ذلك فجذورها لا تزال تمتدّ تحت التراب ولا تزال تمنع جذور الأشجار الأخرى من الاقتراب.

احفر بي حتى أصرخ، وصرختي تسترجع الخوف الذي كان يخيفني ويطير عقلي وأرميه كلّه فوق كتفي والدي اللتين كانتا كتفي جبار، لا إنس ولا جن، إنما جبار بشعيرات كتفيه وصدره الناغلة كبلاط تنبع منه صراصير من كل الأجناس وبنظراته التي لا تولّد سوى الشك والبغض وآثار حادثة اصطدام ترامه لا تزال فوق زنده الجبروتي ونظراته وشعيرات أنفه البارزة برؤوسها وكأنها أشواك تتربّص بأقدام أطفال الضيعة. كان يسير في البيت وكنت أشعر أني أودّ أن أخفي جميع آثار اللقاءات بين أمي وذاك الرجل. كنت أخاف أن تقع عينا

والدي على أي شيء في البيت، عليّ وعلى أمي، كأن كل شيء كان له علاقة بمشوار أمي مع ذلك الرجل. كنت أخاف أن يتردّد ذلك الخوف وذلك الجنون الذي كان يحدث لي عندما أراه يمسك بحزامه الجلديّ ويجلدها أينما كان فوق ظهرها فوق صدرها فوق وجهها. كان الحزام يبدو لي كثعبان يلسع جسم أمي غير آبه بصراخها ولا بتلوّيها. بينما كنت أقف بعيدة وقريبة أجهش بالبكاء وأصرخ وأنصت عندما كانت نظراته تنصبّ عليّ تأمرني بالسكوت. وأمي وذاك الرجل يتحدثان باللغة العصفورية، يزيدان حرف الثاء وكأن ضرب والدي لها ما عكّر صفاء عينيها الزرقاوين بل عكّر نقطة توازني وارتكازي، وتركني أهتزّ وأرتعش ولا أفكر إلا في كيفية الدخول إلى البيت وإذا كان والدي ينتظرنا على عتبة الباب حتى لا يضيع دقيقة من حفلته، حتى ولو ابتدأها وأعين وآذان الجيران منفتحة ومنصتة عبر الشبابيك. بينما بلقائها مع ذلك الرجل، كانت هي تضحك وتغمز بعينيها وتتحدث بالعصفوري. ولم أعد أتمنى أن أكون وأمي البرتقالة وصرّتها. كنت أوّد أن لا أرى والدي يفسخ البرتقالة نفسها. لما أخذ الخوف من والدي يخفّ شيئاً، ولم أعد أرى القرآن في يده يحاول أن يجعلها تقسم. ولم تعد أمي تصحبني معها، بل قلما خرجت من البيت. أخذت تزداد سمنة ولما ذهبت إلى الحجّ لقضاء الفريضة عادت أكثر سمنة وبدّلت من موضة وألوان فساتينها وأخذوا يدعونها بالحاجة منذ أن زيّنوا لها مدخل البيت بسعف النخل الطويلة وبلافتة (حج مبرور وسعي مشكور) إلا أن والدي كان لا يزال كما هو. كان قد انتقل من أمي التي كفّت عن اغضابه وبدأت أنظاره تحوم حول حياتي. لم يفارقني الخوف منه بل سيطر عليّ لدرجة اني كنت أفكر أن

في رأسه أكثر من عينين أينما أدور تدور معي، تتبعني وتراني وأنا ممدّدة في غرفة الكاراج وأنا في المقهى أسمع المحاضرات عن الحبّ العذري. لكنه لا يشدّني إلى المطبخ ولا ينهال عليّ بحزامه الجلدي. إنه يكاد يكلمني ومع ذلك كان الخوف والارتعاد منه كلما دخل البيت أو كلما ناداني باسمي، يكبر حتى تمنيت لو أنه يعرف بعلاقتي وبفقدان عذريتي وأن يقطعني إرباً إرباً أو يبلعني وكفى.

أريد أن يزحف عني ذاك الخوف وذاك الارتجاف المتواصل وكأنه قطار أبديّ الطول. مع أني كنت أسمعه يثني على أخلاقي أمام أفراد العائلة إلا أني كنت خائفة حتى من ثنائه عليّ وكنت أظن أنه يلم بعلاقتي وأنه يدبّر لي حفرة عميقة يرميني فيها كحفرة جهنم تماماً. دعني أصرخ أيها القنّاص من اللذة حتى يسمع صراخي والدي ويأتي ويراني ممدّدة وجسدي قد التحم بقذارة أرض بناية الموت. دعه يراني مفرودة الفخذين مستسلمة. كل ما بي مستسلم. أسفل بطني وشعيراته الهادئة. صدري بحلمتيه النائمتين ويداي لا تقويان إلا على الارتخاء. فقط عيناي هما المتكلمتان اليقظتان. هذا إلّه الحرب قد أتى وأطاح بعذريّتي المفقودة مرة وثانية حتى المئة. حتى أشعر بأنه لا يزال فيّ. الحرب قد ألغت العذريّة. لا يراني أحد الآن سوى جدران بناية الموت والقناص الذي أنا دائمة الشكر له فهو رضي بي رغم قباحتي. انه انسان واقعي. أسمع الآن رصاصاً متقطعاً قريباً، ومع ذلك فإن الخوف بعيد. الحرب جعلت فوارق الجمال والمال والخوف والتقاليد تنزوي مع الجثث المنزوية. وأتساءل، هل كان على الحرب أن تطلّ بكل وطأتها، بكل مآسيها بكل خرابها، حتى تعيدني انسانة طبيعية لا أتقوقع ولا أنزوي بالحمّام ساعات وأياماً ولا أجلس رابضة

كالساحرة التي سحرها ملك السحر بعد جلسات الكهرباء. فأعود بعد أيام لأضحك، لكن ضحكة غير طبيعية، كما كانوا يقولون؟ وما أن يحاسبوني عليها حتى يعاودني التقوقع. ولم يعد من حل سوى هذه الحرب التي أتت وقلبت روتينهم وقلبت روتين الأرض والحياة بأجمعها وبتّ أنا كصفحة قلبتها صفحات كثيرة ملأى. لماذا كان عليّ أن أكون مثلهم، فقط مثلهم حتى يضموني إلى الحظيرة؟ لماذا لم يكونوا هم مثلي؟ لقد جاءت الحرب، والدي أتسمع؟ وها أنا ممدّدة لا أستطيع حتى أن أدير رأسي. اللذّة تتدفق عليّ مرة وثانية وثالثة حتى المئة. الحرب التي جعلتني أتوقّع حدوث أيّ شيء جديد بين لحظة وأخرى لا بأس بهذا الشيء الجديد. دعوه يأتي ودعونا نرى ونلم بهذا الشيء المجهول رغم ما يحمل من كوارث وأحياناً مفاجآت. كان لا بد من هذه الحرب حتى تطيح بالهدوء وبالفراغ الذي كان يغلفه الروتين أيضاً. الآن وبعد الصمت دقيقة هناك الضحك. بعد الصخب هناك الصمت. بعد الصمت هناك العنف. هذه الحرب جعلتني أترقّب وأتوثّب وأهدأ. كلّ الصفات المحسوبة على الانسان والتي لم تعانقه إلا في وصف الكتب، ترافقه الآن حقيقة.

ظهري يؤلمني من هذا التمدّد. أريد أن أنهض، لكن القنّاص لا يشبع مني، ها هو يهبط عليّ كخفّاش ارتطم بحائط الدكتور شوقي ولم يعرف طريقه. هبوطه المرتطم يحدث ثقلاً وهذا الثقل أحبّه. هذا الثقل أتشبّث بظهره حتى لا يعود ثقلاً. فثقله المرتمي على جسمي قد رميته على البلاط وبات القّناص بلا جسم. إنما يحفر بي ويحفر ويخرج من صرخاتي الخوف الموجود والذي أستطيع تسميته الآن بخوف الماضي. اذ الخوف الآن هو أن لا أعود أخطو كل يوم فوق هذه

الدرجات في سعادة مختلطة بخيبة الأمل من أن لا أجده. لأنه هل من المعقول أن يبقى سريرنا سلالم بناية الموت؟ وإلى متى؟ هل اذا سألته أجابني؟ لماذا لا يتكلم معي أكثر، فصوته حنون وهادىء وخائف أيضاً، يظهر أني نقلت إليه خوفي، فهو ما أن يسمع خطواتي حتى يطلّ ليتأكد مني. أنا الوحيدة الزاحفة في شارع الحرب. وما أن أصل إليه حتى يكون القلق قد تطاير ولكن لا تزال آثاره في شفتيه المرتجفتين ويديه الرطبتين وعينيه الزائغتين تنتقلان ببؤبئهما بيني وبين سماعه للرصاص في الخارج. لم يحدثني مرة لماذا هو قنّاص. بل ربما ظن أني لا أقرأ ولا أكتب وإلا لما كنت هنا أتعاطى لغة الجسد فقط بلا سابق تبرير أو تفسير. هكذا حدث: جئت إليه وكنت أعتقد أني أريد إيقافه عن القنص واعتقد هو أني امرأة والحالة هي حالة حرب. وأنا بحاجة إلى رجل، أيّ رجل، وبالمصادفة كان هو وبالمصادفة كان هو قناصاً. هذا هو التفسير الوحيد لأني لم أفتح فمي بما يتعلق بقنصه مرة واحدة عندما قلت له إن في الجو رائحة صلح، وربما تتوقف الحرب، اكتفى بهزّ رأسه.

كأن الحرب قد توقّفت عندي قبل أن تتوقّف فعلاً. ففي البيت عدت أسقي الغرسات التي تركتها تجفّ فترة، عدت ألمع المرايا بالجريدة التي توقفت عن قراءتها وأغسل وأكوي بيوت الكنبات وأفرد الملابس الشتوية فوق الكراسي حتى تطير عنها رائحة النفتالين حتى أني اشتريت القثاء وأخذت أكبسها مؤونة، تماماً كما كانت تفعل أمي. كان أحمد لا يزال بمواعيده غير الثابتة يأتي بحذائه الوسخ وعينيه المستسلمتين لدوار الحشيشة في رأسه، ينام فوق الكنبة أو على الأرض فوق الحصيرة، أينما كان. بندقيته ملقاة وكأنها منذ أن صنعت وهي في

حالة سلام دائم، متّكئة على زجاج الطاولة، ينام نوماً عميقاً وينهض باحثاً عن أي شيء يمضغه. نجلس نشرب القهوة. أحدثه سائلة إياه دائماً هل ستتوقّف الحرب فعلاً أم أن هذه أقوال الناس والجرائد.

كان يزفر زفرة طويلة وحادّة في آن. ولم أكن أستطيع تفسير هذه الزفرة إذا كانت تمنياً أم ضيقاً، لكن وهو يلف سيكارة الحشيشة تلو الأخرى كنت أشك أنه يسمعني وإذا وصلت إليه كلماتي كانت عبر سحابة، أطلب منه أن يكفّ عن هذا الأفيون الذي يكاد يصبح إدماناً. وكان يجيب «كل بيروت صارت لنا، نحن: المقاتلين في المنطقة الغربية وهم: المقاتلين في الشرقية. نحن حكامَ البنايات والشارع نسيطر على أي شيء متحرك أو ثابت. نحن القوة ونحن البطش. ونحن كل شيء، أريد أن أقوم بتصرف لا تمنعه الحكومة والقوانين بل ينبذه البشر. أريد أن أقوم بعمل لم يعد مباحاً وليس هناك سوى المخدرات... واشكري ربك أني لست كغيري أشمّ الهيروين أو أستخدم الحقن. كان وجهه الأصفر المتآكل وشفتاه الزرقاوان تجعلني أنكمش على نفسي خائفة منه، خائفة عليه وأسأله: «وبعد؟» وكان يهز رأسه ويزفر الزفرة ذاتها، الزفرة الطويلة الحادّة التي لا أعرف إذا كانت تمنياً أم ضيقاً وكنت أحدثه بلا صوت، بينما هو ينفث في سيكارته، ويتأمل نفسه. كان يغيب عني وعن جوّ البيت بل ربما كنت أختفي من مكاني كسحابة دخانه ولا يعود لي أي وجود، وأنا آتي بمزيد من القهوة وأنظر إلى الفناجين خوفاً عليها من الاندلاق. رأيته يداعب نفسه، فأسرعت إلى غرفتي وقد راعني المنظر، وأخذت أبكي، لا أعرف لماذا كانت ردّة فعلي البكاء. أسأل نفسي لماذا قد تبدّل كلّ شيء في هذه الحرب حتى أصبح أحمد يداعب نفسه غير عابىء بوجودي وكأنه وحيد مع نفسه ولم

تبق لـه إلا نفسه. آه يـا حرب! لـماذا أسعفتني ونبذت أحمـد أم تـرى يظن أحمد أن الحرب قد أسعفتـه ونبذت أختـه كما نبـذتها قبـلاً حالـة السلم؟ أحمـد، ماذا حـلَّ بنـا؟ أين طفـولتنـا؟ أين صـورتنـا ويـدانـا ممدودتان لتتلامسا عبر الشلّال؟ أين قشور ليمون الأفنـدي الذي كنّـا نعصره في أعيننـا حتى نرى الاحمـرار يزحف مغـطياً البيـاض ولا نعود نستطيع رؤية قوس قزح بوضوح؟ أحمد، هل تذكـر متابعتنـا لمسلسل «ضبع الليل» المصري في غرفـة الجلوس وكيف كنا نتسمّـر في أماكننـا حول المذياع عندما كانت تنتهي الحلقة. ونسمع صـوت المذيـع يقول بصوت غليظ في هدوء الليـل: «انتهت الحلقة العـاشرة من «مسلسل ضبع الليل»! تنهض قبلي وأنت طليق من الخوف، هل نسيت سرقتك للسجـادة العجمية الصغـيرة، وبيعها بليرات قليلة بينـما شك والـدي بكـل الشحّاذين والمسحّرين وكان يتـربّص لهم ويستنطقهم، خـاصـة الضرير الأرمني الذي اتهمه والدي بسرقة السجادة العجمية.

أحمد، أنت في الغرفة المجاورة تداعب نفسك بينـما تلفظ أنفاسـك دخـان الحشيشة وتعـود تستنشق هـذا الـدخـان وتعـود تلفـظه وتعـود تستنشقه وتدخنه وتداعب نفسـك وتصبح قـريباً منهـا، بعد أن قتلت وسرقـت وركضت وتبـاطأت وحقـدت. هل أمسكت فعـلاً بالسـلاح لتـدافع عن حق الشيعـة المهضوم ولأنهم يقـولون انـك وكـل الشيعـة «جلب عـلى بيروت» أم لتـدافع عن الفلسـطينيين ضـد الكتائب، أم ليدافع الفلسطينيون عنـك وعن حظك الملعـون؟ رغم أني ما زلت في الغرفة المجاورة إلا أني أسمع لهـاثك ولهـاثك يـزداد. ألا يضايقـك، وأنت تأتي بلذتك وحدك؟ هل كان ماجد ومالك يشعران هذا الشعور

المقفر وهما يتلذّذان بينما عيناي مقزّزتان وجسدي كالحطب وقدماي متصلبتان والبرد يحوم فوق كل شعرة تسدّ مسامي؟

هل ستتوقف الحرب وإذا توقفت ماذا نفعل؟ «أرجوك لا تفتحي هذا الموضوع». يقول لي أحمد. كان واضحاً لماذا كانت نبرة صوته مرتبكة، ولماذا يخاف أن تتوقف الحرب. إنه سيغدو لا شيء. فجأة يصبح شبحاً يسير في الشارع الذي كان في الأمس له ولأنفاسه ولوقع خطواته في الظلام ولبندقيته التي كان يشهرها حتى يحصل على كمية أكبر من الخبز أو على ربع تنكة بنزين. ستنزوي بندقيته في ركن ما وحيدة، تجترّ ذكريات الماضي عندما كانت تندفع إلى الوراء، تستفظع كل طلقة يطلقها. أحمد الذي لا تستطيع أن تجرّه إلى مناقشة أو حوار، ولا أيضاً تستطيع أن تعرف منه دوره في الحرب. كل يوم تنبت في رأسه وعلى لسانه فكرة، يرددها كببغاء بيت أبو الخدود، الذي لم يسكت مرة عن تقليد محمد شامل بكلمته المشهورة «يا مدير!» وكانت امرأة أبو الخدود تقرأ الكف والفنجان وتستحضر الأرواح مقابل خمس ليرات، وقد رأت أن وجود ببغاء ذي صوت هش، وبضع ساعات معلّقة في الحائط، تدق كلما تمر خمس دقائق ويطلّ منها جميعاً الديك، والصوص وربما البجعة ضروري لمهنتها ضرورة حوض أسماك تصدر منه بين فترة وأخرى صوت فقاقيع المياه. لأن شكل امرأة أبو الخدود كان لا يوحي بأنها روحانية بل ربة بيت. أحمد كببغاء بيت أبو الخدود أسمعه يقول يوماً إنه يحارب لأنه شيعي وحقه مهضوم. ربما كلامه هذا لم يكن يعجب أصدقاءه أو رئيس فرقته، أو أنه يجب عليه أن يعطي أهمية لدوره. فكان يتراجع ويقول: أنا وغيري نحارب الامبريالية. نحارب أمريكا وهذه خطة

إسرائيلية لتفريق العرب عن بعضهم البعض. يريدون قسمنا ولن يفلحوا. بعد أيام... يقول إن الفلسطينيين يحاربون معنا ثم يقول إن الفلسطينيين لا دخل لهم فهذه حرب لبنانية محض. بعد أيام.. «أنا شخصياً أحارب من أجل القضية الفلسطينية، أنا طول عمري وأنا ضمن بيئة فلسطينية. أصدقائي فلسطينيون. عندما كنت أزور جدي في الجنوب كنت ألتقي بهم وآكل طعامهم وبعد لحظات تكون لهجتي لهجتهم. وكلامي كلامهم، يا أختي أنا مع أي محروم أنا مع الأقلية وهم أقلية مثلنا، مثل أهل الجنوب «مشحرين، معترين» هذه مؤامرة ضدهم ونحن نُفشِّل هذه المؤامرة. يمدّ أحمد يده إلى جيب جاكيتته الكاكية الغامقة ويتناول قصاصة من جريدة المحرر وقصاصة من جريدة السفير ويمدها لي، بينما يتناول بيده الأخرى «فراكة الكبة» يطبق عليها فمه وهو يكمل حديثه والبرغل يتطاير مع تطاير كلماته: «شوفي يا أختي هم قلبوها طائفية. شوفي هالأولاد، كانوا عم يبيعوا جرائد مش حرام يقتلوهم.. شوفي مين المقتول والمشوّه غير مننا». وكنت أهزّ رأسي أمام هياجه الحقيقي لفترة قصيرة كأنه بنج موضعي يجمد ويخدر جزءاً ما به ثم يزول بسرعة. كنت أسأله أحياناً إذا جرب أن يقرأ جرائد العمل والأحرار لربما رأى الجثث والمشوهين منهم فقط. وفي المرة الثانية كنت أهز رأسي أيضاً أمام هياجه الحقيقي إنما الموضعي وأقول له: «لقد سرقوا ونهبوا المرفأ، وأنتم بعض البنوك. هم نهبوا وحرقوا ما استطاعوا عليه، وأنتم كذلك. يجب أن تقرأ الجرائد الأخرى لا، أنا لست معهم. إذاً معكم؟ لا، أنا لست معكم، أنا لم أحمل بندقية على كتفي ولا بندقية في أفكاري. أنا محايدة، لذا أرى حرائق الجهتين. وبكاء الجهتين». وأنا في هذا البيت

عبر هذه النافذة التي كانت هي صلتي الوحيدة بالمدينة والحرب وبالتالي الحياة. كنت أرى كميونات تتوقف عند باب هذا الملجأ الذي كان مرآباً. كانت البضائع بداخله قابلة للتغيير والتبديل. عشية يوم كانت البضاعة رجالاً برؤوسهم المطأطئة وكان المسلح يعدهم وكأنهم أغنام تعدّ للذبح. ربما ذبحوهم لأني لم أعد أراهم يخرجون من هذا الباب. والبضائع الأخرى كانت متناقضة، الثريات وأفران الغاز مع الأحذية مع أدوية مع سشوارات الحلاقين ومكنات جوك بوكس وأكياس بطاطا مع ربطات عنق أجنبية ومكنات لتفقيس البيض وقطع غيار السيارات ومرة دجاج بالمئات يقاقي خائفاً. هذه المسروقات كانت تخرج من الباب بدفعات وعند الدفع. وكأن أحمد يحدث نفسه وهو يسمعني: «المقاتلون في شارعنا سارقون، والمقاتلون في شوارعهم سارقون»، لا أعرف بماذا أفكر؛ أنا مؤمن بحملي السلاح من أجل قضايا كثيرة، ربما من أجل كل ما ذكرته. ولأني عددت الأسباب في فترات متباعدة وكان وقعها على نفسي وعلى غيري وكأني متردّد. وأنا متردّد، وأنا ضائع في حقيقة حملي السلاح، مع أني أؤمن بحمله. ربما كان الهروب من نفسي لأني كنت أدرس، ولم أتمم دراستي، هكذا أسمع زهرة تبرّر حملي السلاح ونحن نتناقش، لكن زهرة تحاول بطريقة ما أن تعيّرني لحملي السلاح، رغم أنها لم تعد تناقشني بجنون ولم تعد تصاب بالحالات العصبية كلما كنت أزور البيت في بادىء الأمر وتسألني الأسئلة ذاتها: ماذا تشعر عندما تطلق الرصاصة؟ فأجيبها بأني لا أشعر سوى بنتعة البندقية عندما أطلق الرصاصة، وأن القضية روتينية، ومن كثرة روتينيتها أخذ التكرار والضجر يحومان حولي حتى أخذت أتعاطى المخدرات.

تعطي المخدرات للحرب أبعاداً أخرى لا يفسرها أحد. إنما نراها وغمامة فوق أعيننا وفوق الزناد. ننسى ما رأيناه. ننسى رفيقنا الذي صرخ ولم يعد يتحرك. ورفيقنا الذي فاضت أمعاؤه قرب ساعته الجديدة. ننسى مدافعهم وقنابلهم. ننسى كل النيران مع أننا نتعاطاها. لكن إذا سألت نفسي ماذا حققت لأجبت، سمعت أوامر قائدي وحققت الكثير بأنني لم أنزو في البيت مع النساء، وعندما يقولون إن الحرب كادت تنتهي بلا نتيجة أجمد في أرضي. انتهاء الحرب معناه أني سأصبح شبحاً أسير في الشارع الذي كنت أملكه أنا وبندقيتي حجرة حجرة، بناية بناية، شجرة شجرة، الليل كنت أملكه. حتى النهار كنت أملكه. ربما عليّ أن أسلّم بندقيتي أو أن أخفيها منهم حتى تبقى معي. أتمنى لو تكون كل هذه إشاعات، لا أريد للحرب أن تنتهي، لا أريد أن أحتار بما سوف أفعله. الحرب قرّرتني. قررت يومي وليلي وجيبي. الحرب وظيفة لاءمتني، خاصة بعد الأشهر الأولى التي كنت فيها خجلاً، متردداً، خائفاً. لأصبح بعد الأشهر الأولى فخوراً كديك الحبش أنفش عرفي وأنفش ريشي وصدري. أن تنتهي الحرب بلا نتيجة معناها خسارة وضعف وخوف. الخسارة معناها أن رفيقي الذي صرخ ولم يعد يتحرك إنما صرخته كانت زائفة. والذي تناثرت أمعاؤه كان زائفاً وتناثره زائفاً. هؤلاء هم الذين أريد أن أبكي لهم. وأصرخ لهم وبهم. هؤلاء هم الذين وقعوا في الفخّ غصباً عنهم.

وكان أحمد قد بدأ يتسلل عائداً، ومعه أشياء أخرى غير البندقية وغير لفائف الحشيشة. كان يحاول إخفاءها وراء ظهره ريثما يعبر صالة الجلوس إلى غرفة نوم والديّ اللذين ما زالا في الضيعة. واللذين ما

فتئا يلحّان بالمراسيل أن أعود حالاً إليها. يدخل أحمد إلى غرفة والدي محاولاً أن يخبىء مسروقاته على مهل. يخرج وهو يخبط خبطات خفيفة على بطنه ثم يعود إلى غرفة النوم وأسمع جلبة صغيرة. لا بد أنه يبدل المخبأ. يخرج وقد انفرجت أساريره. هذه المرة أرى كلاماً على ملامح وجهه، كلاماً يود أن يقوله ومع ذلك أنا لا أشجعه وهو يدور حولي ويحوم حول نفسه ولا يرى نفسه إلا في حالة اعتراف إنما اعتراف سعيد: «هالساعة لصاحبي. طلب مني تخبئتها له». وعندما كان أحمد لا يسمع تعليقي بل يرى الامتعاض فقط على وجهي، كان يضيف وهو لا يزال يخبط بكفه على بطنه المبلوع: «إنها ذهب خالص عيار ١٨ شغل إيطاليا». وكان دائماً ينهي اعترافه بكلمة: «بدك تشوفيها» وكنت أهزّ كتفيّ كنت أهزهما بطريقة لا يفهم منها إذا كنت أرغب في رؤيتها أم أرفض. في المرة الثانية لم يستطع إخفاء ذاك الشيء وراء ظهره، كان راديو مع مسجل. وفي المرة الثالثة حمل ذاك الهدهد الفضي تحت إبطه. وفي المرة الرابعة وبعد أن سكت عن إعطاء الحجج والتبريرات، كان فخوراً بما يأتي به قائلاً: «أنا الوحيد الذي يعرف ُما يأخذ وما يترك» أخذ يخرج سلاسل ذهبية وخواتم تلمع أحجارها الكريمة. وفي المرة الخامسة جاء بحقيبة يد نسائية واختفى معها في الغرفة بعد أن تناول السكين من المطبخ. وفي المرة التي تلت قال لي وهو يفتح جرائد ويخرج منها فستاناً أصفر كلون الشمس في عزّ الصيف، ويقول: «اشتريت هذا لك». مرة جاء بمرآة مستديرة فوقها تلتصق بطة شفافة من الزجاج وقال فخوراً: «شوفي يا زهرة، الكل شافها، وما فكر ياخذها أحد، يعني مش سهل تأخذي شيء وأنت عم تركضي وعم تسمعي المتفجرات وعم تشوفي برق

الصواريخ». وسددت أذني وأنا أصرخ به: «أوعى تحكي بعد»! وانكفأت أبكي وسمعت صوت باب الثلاجة يفتح ويعود فيغلق. لقد نسي أن لا كهرباء عندنا ولو كنت قريبة منه لكنت سمعته يقول لنفسه، كيف أن قائد القنطاري أمرهم بوقف إطلاق النار لمدة ربع ساعة، ريثما يذهب اثنان منهم لإخراج زوجة طبيب في أيام حملها الأخيرة. كان بيتها قلعة بل منارة لكل الرصاص المتناثر: «ولما توقفنا عن إطلاق النار ريثما أخرجها اثنان منا، وركضت هي معهما حتى آخر الشارع ونحيبها يختلط بوقع أقدامها حيث زوجها وآخرون كانوا بانتظارها. بعد وقت قصير لمعت في رؤوسنا فجأة فكرة خبيثة. اللذان قاما بتهريبها لم يعود ا. وانتصبنا نحن الخمسة نترك المتراس، ونهرع إلى القلعة، كأن مغارة من ليالي ألف ليلة وليلة قد انفتحت أمامنا، وكنا على حسن ظنّنا، فالأصحاب قد بدأوا بتشغيل أيديهم، وها نحن نشاركهم. كانت معاطفها كثيرة، كذلك ألعاب الطفل المنتظر. وصحون السكائر التي عرفنا بعد وقت أنها من الفضة، والتي كنّا نحسبها زجاجاً، كانت من الكريستال والنحاس الأصفر المحمرّ من البرونز. والصور المعلقة غالية الثمن. نزعنا بعض قطع السجاد العجمي الصغير عن الحائط. والذي لم نستطع نزعه خرقناه برصاصات عدة ورمينا صورها المرصوصة على البيانو ودعسناها بأقدامنا. ولما قال أحدنا إن التخريب لا يكفي، وإنه علينا أن نحرق البيت «لأن القضية مكشوفة حتى لا يقال: «حاميها حراميها» وكأن قذيفة قد وقعت وأحرقت وجعلت المسروقات مجهولة بين الحائط الأسود، والأثاث المبعثر، من ضمن ما حملته هذه المرآة فوقها هذه البطة الكريستال رغم أن حملها لم يكن سهلاً».

في الليل وقبل أن أنام كنت أنتقل إلى غرفة والدي على رؤوس أصابعي وفي يدي شمعة، أبدأ بإخراج غنائم أحمد أتحسَّس الساعة الذهبية المصنوعة في إيطاليا كما قال والتي هي من الذهب الخالص كما قال أيضاً، ما عدا الأرقام فإنها سوداء. أقرب الشمعة حيث ألمح أحرفاً سوداء. وأقرأ اسم سمير. ر. وأرتجف. كما ارتجفت عندما رجاني القنّاص أن أضع الخاتم حول إصبعي. أين هو سمير. ر. هل لا يزال حياً يرزق، وإذا كان حياً هل يحنّ هو إلى ساعته الذهبية؟ وهل يتساءل أين هي. وأتحسس بيدي لمعان ذهبها، وأفكر لماذا اقتنى ساعة حائط من ذهب. لماذا ليست هي ساعة يد. أعود فأتحسس بيدي البطّة الزجاجية وانعكاس بياضها فوق المرآة التي تلمع في الظلمة. هل امرأة الدكتور كانت تحبّ البط لدرجة أنها اشترت بطّة من الزجاج؟ لو أن البطّة تتكلم هل كانت قالت لي اتركيني، دعيني أسبح إلى حيث كنت؟. هل أحاول غداً عبر دليل الهاتف اكتشاف رقم سمير. ر. وأين يسكن وأطمئنه أن ساعة حائطه الذهبية موجودة لقاء شرط واحد، أن لا يسألني: من وكيف ومتى؟ هل أبحث عن زوجة الطبيب وأسلمها البطّة العائمة فوق المرآة؟ هل إرجاعي لهذه الغنائم يتماشى مع سيري اليومي إلى بناية الموت حيث قرصانها ينتظرني والسفينة مائلة الاتزان بين شفة الحرب وشفة الهرب منه. بين شفة الاحتقار وشفة اللااحتقار. وأنا بعيدة عن ذاك القرصان، وتلك السفينة كنت أستهول الأمر وأقول: «أعوذ بالله» ما أنا فاعلته. علاقة مع قنّاص؟ وعندما يبتدىء كل شيء وكل نبض بي يتهيأ للذهاب إليه بعد ظهر كل يوم، كنت أطرح السؤال بيني وبين نفسي. ربما هو ليس بقنّاص، ربما هو جار عمّتي أحب أن ينظر إلى الحرب من أعلى.

ربما ذاك المنظار للاستطلاع الغريزي ولا علاقة له بتصويب بندقيته، ربما لافتة تقول «إحذر القنّاص» وأخرى: «إذا أردت أن تتخلص من حماتك اجعلها تمرّ من هنا» هي عن قنّاص آخر مجهول في بناية أخرى مجهولة.

لكن، أما جئت إلى البناية مرة عندما طالت الهدنة أكثر من أسبوعين ولم أجده؟ بينما وجدته فوق السطح في المرة الأولى عندما قدمت إليه بلا موعد. إنه قنّاص، إنه قرصان هذه السفينة الماثلة الحائرة بين هذا التناقض الذي استملكني. كأن الحرب وحدها لم تكن كافية لكل هذا التناقض والخوف. لا أريد أن أذهب إليه بعد الآن ولا أريد أن أفتح الباب لأحمد. سأرمي بغنائمه من فوق السطح. لن أغادر هذا البيت، ولو كان لحمّامنا قفل لسكنت في هذا الحمّام. لا. سآتي إليه كل يوم، الى ذاك الشعور المضطرب، وذاك الخوف، وقدماي لا تكادان تلمسان اسفلت الشارع أو بلاط الدرج. الى تلك الرائحة، رائحة عرقه، وعيناه الغارزتان في جسمي كانغرازه كله ويدي فوق ظهره تشده ليرمي بكل ثقله. وذاك التخدير الجميل بعد القشعريرة، التي تضعني للحظات في ظلام دامس، تريني عينيه المغلقتين وهما لا تقويان على الإبصار من الانتشاء المتلاحق والذي لا أقوى على امتصاصه أيضاً كله، لطول لحظاته ودقائقه. وحين يتركني ممدّدة على بلاط الدرج بينما ينهض هو ويدير قامته الطويلة لي، ثم يعود ليقف في مواجهتي كنت أنسى أني قلت قبلاً بأني لن آتي إليه. وبأني سأظل في البيت ولن أفتح الباب. وكل ما أتمناه الآن أن تنتهي الحرب حتى يصبح سريرنا سريراً آخر، وأدفن افريقيا و«مالك»، وشاربي هتلر. كل ما أتمناه أن يتزوجني هذا القنّاص، لأني أريد أن أكون معه دائماً،

ولأن العيش معه بدون زواج من المستحيل. إذا رفض الزواج سأبقي هذه العلاقة، غير خائفة من حزام والدي الجلديّ، لقد اختفى، لقد تقوقع.. قوقعته الحرب وجعلته بلا روح ولا قوة.

سأبقي هذه العلاقة شرط أن يبقى أهلي في الجنوب ويتركوا لي هذا البيت. لا أستطيع أن أعيش مع أحد بعد الآن. أريد أن أكون وحيدة مع رجل. أتهيأ له كل النهار وكل الليل. لو يتزوجني ويجعلني كأني أعيش من خلال قبضته وثقله الزاحف علي. هل يتزوجني؟ هل أسأله ماذا سيحلّ بنا إذا انتهت الحرب. وهل سيصدق أن هذا صوتي؟ فالمرات القليلة التي فتحت بها فمي، كانت دائماً رداً على أسئلته التي سمعها من مطعم أبو جميل: «صحيح كنت متزوجة على بلاد افريقيا من واحد غني كثير، وتركك لأنك ما بتجيبي أولاد.. وصحيح أنو أخوك بحارب؟ صحيح أنك كنت بتحبي واحد ولما تجوز غيرك وقعت بالنقطة وصاروا يكووك عالكهرباء» «صحيح معك شهادة الفلسفة». كانْ كلامه ونومه معي ونهوضه عني، ومراقبتي له وهو يدخن السيكارة أو يقفل أزرار بنطلونه أو يمسح وجهه وهو يأكل أقراص الكبة متمتماً «والله العظيم أنو أطيب كبة هي كبة المتاولة» أو يرهف السمع وهو يسرح شعره بلا مرآة. كل هذا كان يمحو كونه قناصاً، ويجعل هذا الواقع ضئيلاً وغير مهم. كانت تصرفاته هذه اللاشعورية التي تضعه في خانة البشر تنفض الغبار العالق حوله وتريه لي وللعالم الخارجي واضحاً يتربع في خانة البشر. يجعلني أعود إلى البيت وكلي شعور بأن ثقل الليل لم يعد يفرد نفسه فوق بيروت بل فوق لبنان كله كأني، إذا حلّقت في طائرة فوق لبنان لكنت رأيت أن كل شيء على ما يرام. فهياكل البنايات لا تزال قائمة، والأشجار لا

تزال واقفة، والقمر يضيء الوطن لكن سرعان ما يعيدني الواقع لأرى الناس ضمن جدران منازلهم لا يحيدون بأنظارهم ولا يزيدون تنفسهم خوفاً من أن تعرف وجودهم الصواريخ الطائرة.

أفكّر بالقنّاص وهل هو فعلاً قنّاص وهل هو بحاجة لاقتناص الناس، هل هو مهووس؟ وأبعد هذه الصورة، فهو متّزن، طبيعي التصرّف، هادىء الشخصية ولم أره يحتّد مرة، ربما لأنه لم يحتج إلى هذا. لا حوار بيننا ولا وحدة حال سوى جعلي أتمدد على الأرض. كان جميل التكاوين، بشعره الهابط فوق جبينه بعينيه الثاقبتين إنما بحنان، أو لعلّني أريد أن أراهما هكذا. غداً سأذهب إليه كالعادة وسيكون لقاؤنا لقاءاً آخر. سأفتح الموضوع وسأناقشه في كل شيء عن القنص والزواج. غداً سيكون الغد الحاسم بالنسبة لحياتي كلها. أريد أن أعرف كل شيء، يجب أن أقرّر حياتي في الغد. أمدّ رأسي تحت سرير أمي وأجد أن غنائم أحمد في ازدياد دائم أسدل شرشف السرير، حتى يلامس الأرض كما كان وتعلو حمرة الحنق وجهي، لا أصدق أن أحمد سارق. لا أستطيع أن أتصوّر ذلك الصبي ببنطلونه القصير ومعطفه غير المتساوي الذيل ونصف حبة الفريز المرسومة على خده والتي هي شهوة الولادة تزداد احمراراً عند بدء موسم الفريز كل عام وتعود فتذبل ويخف لونها تدريجياً بانتهاء الموسم. أحمد الذي كان أيضاً يرتجف خوفاً من والدي في آخر كل فصل دراسي وفي مطلع كل عام حتى أنه كان يحسب حساب والدي قبل دخوله إلى البيت. كنت أسمعه كل مساء ينقر نقراً خفيفاً من شباك النافذة المطلة على الدرج. وإذا حدث وأطللت كان يستفهم بيده إذا كان والدي في الداخل، إنما خوفه كان لا يقارن مع خوفي الذي كان يدخله الهلع على أمي ثم

على نفسي. هل أحمد سارق من فئة الذين كنا نقرأ عنهم في الجرائد.. «اعتقل أمس ج.ج. وهو يحاول سرقة منزل ك..» وكذلك «قبض على كل من... وهم يتعاطون تدخين الحشيشة».

جاء الغد، وكالعادة لم أستطع أن أنفّذ ما وعدت نفسي به. بل للحقيقة نسيت وسها عن بالي كل ما كان يقلقني، لأني كنت في حالة أخرى مختلفة عن كل الحالات التي زارتني في الأيام الماضية والحاضرة. فأنا أشعر بأني أريد النوم، وأريد أن أكون في غرفة باردة، فارغة، الا من سرير بجانبه صحن فاكهة. لما هبط القّناص فوقي تمنيت لأول مرة أن يبتعد عني. كنت ساهية، ناعسة طوال الوقت وكأني في حقل مليء بأريج الليمون والشاي الأخضر، اختلاط هذه الروائح جعلني أشعر بالدوخة مستسلمة لدواري. لما حاولت النهوض ولم أستطع سألني ما بي. قلت له إني نهضت هذا الصباح وبي رغبة للبقاء في السرير مع أن حرارتي عادية وليس بي أي ألم مباشر أشكو منه. سمعته يقول: «يمكن تعب». نهضت وأنا أرتكز على الجدران وكنا دائماً بعد أن نتضاجع نجلس وندخن السكائر ونتحدث وكان حديثنا غريباً لا يمتّ إلى نفسينا، يدور حول أحداث ومواقف بعيدة كل البعد عما يدور تحت في الشارع وعبر هذا الشارع وفي بيروت كلها وعبر بيروت في الجبل وعبر الجبل. يحدثني عن محاولة انتحار ارتيست من أجله وهو في سن السادسة عشرة. ثم يحدثني عندما أحب ابنة سفير أجنبي وكيف كان يبيع كتبه المدرسية ليدعوها إلى السينما. وكيف رأته مرة ماسكاً نرابيش مائية يغسل السيارات في كراج مكشوف. يخبرني كيف كانت تلك الارتيست ملاحقة من قبل الأمن العام لأنها تركت العمل من أجله واضطر أن يهرّبها فأخذها إلى ريفون بعدما استأجر

لها غرفة صغيرة. كان عليه أن ينزل إلى عمله في بيروت كل يوم ويعود إلى ريفون في المساء. أخبرني كيف فقد «عذريته» أول مرة وكان على ظهر جمل مع فتاة، ومن شدة خوفها التصقت به التصاقاً جعله يهتاج ولا ينزل عن الجمل إلا بعد أن اكتملت لذته، رغم أن صاحب الجمل كان قد أوقف جمله طالباً منه القرفصاء.

وكنت أستأنس لأخباره التي هي دائماً قديمة تعود إلى سنّ المراهقة وما بعدها بقليل. بينما كان التعتيم يخيّم على الحاضر أو الماضي القريب. وأخذ الفضول لمعرفة حقيقته يتضخم رغم أنه يكاد يخنقني. أريد أن أعرف اسمه الحقيقي، أريد أن أعرف لماذا يقنص، وإذا كان قنّاصاً بالفعل؟ أريد أن أعرف بماذا يشعر نحوي. إذ تصرّفه العام تجاهي ما دلّ مرة على استرخاصي أو احتقاري، بل كان يظهر لي بعفوية كم هو سعيد كلما رآني فوق الدرجات القليلة حتى أصل إليه. لا أستطيع الآن التفكير بشيء، أريد النهوض والذهاب إلى البيت ثم النوم. واستجمعت نفسي وقلت له بهمس: «بخاطرك» وأجابني «انتبهي الى حالك!» نزلت الدرجات ببطء، غير مبالية بالعيون التي كانت تتراءى لي كل مرة أصعد أو أنزل الدرجات. لا أفكر إلا بالوصول إلى السرير حتى أنام وأنام.

لما وصلت إلى البيت ورأيت الباب مفتوحاً، ناديت أحمد. فوجئت بأمي وقد ازدادت سمنة إلى درجة أني لم أعرفها لأول وهلة. بينما لوحت شمس الجنوب وجهها وازداد ازرقاق عينيها. واقتربت تقول شبه مولولة: «ولو يا زهرة، لا حس ولا خبر، لا سلام ولا كلام ولو ذاب لساني، يبس حلقي وأنا أبعتلك المرسال وراء المرسال ولو تركتينا مثل المجانين أنا وأبوك ولو شو صار!».

آه، أين السرير، أريد أن أنام، لماذا أتت اليوم، أريد أن أنام، أنا نعسى لدرجة. «ولو يا زهرة هيك، تاركة البيت وسخ، بلا مي! شو كنت تأكلي» آه، أين السرير، أريد أن أنام لماذا أتت اليوم. وقلت لها «أنا مش مبسوطة يا أمي، أخذت برد، بدي نام شوي». سمعتها وأنا أسير إلى غرفتي «وين كنت، برمت عليك كل الزاروب، ولو بتعرفي أنا كيف جيت، جيت مع الحكيم نعمة الله، قال لي على شرط بوصلك على الأوزاعي وانت بتدبري حالك ومن الأوزاعي مشيت ومشيت حتى وصلت عالبيت وقلبي كأنو لابس قبقاب عم يدق ويطرطق ويا ما لطيت هون وهون حتى وصلت». وصلت سريري وتمددت ووجدت نفسي وكأنه يرفعني أحد على السرير ويلوِّح بي حتى أصاب بدوار ويعود فيمدّدني في مكاني إياه وكأني لم أتحرك قط. شعرت بألم في يدي التي كنت قد أسندت بها رأسي. لما رفعتها أحسست بأن أحداً ما يقف فوق رأسي، كانت أمي تسألني «لمين هالأغراض تحت تختي، كنت عم كنس ولقيتهم»، وتمتمت وأنا نائمة بأنها لأحمد.

لماذا أنت تعبة وهزيلة؟ هل تفشى بي السرطان كما تفشى بسميّة بنت الجيران. وصديقة الطفولة والتي حتى أيامها الأخيرة لم تعرف انه كان داء السرطان. رغم أني زرتها ذات صباح، وكانت تقف على قدميها في المطبخ، تفرم باقات البقدونس والنعنع وتفرك عينيها الدامعتين من قص البصل كما تفعل أية امرأة معافاة وتقول لي كم هو لون فستاني جميل. كان بطنها منتفخاً لما رأتني ألاحظها وأبحلق متعجبة حتى ضحكت وقالت: «ما تخافي مش حامل، كتر خير الله صبي وبنتين يكفي، هالنفخة من قعدة التخت، إن شاء الله بتروح

لما قوم وأقعد». وابتسمت وأنا فرحة أخبرها كيف تشاجرت مع أمي لأنها كانت تلمّح بأنه لربما سمية مصابة بداء السرطان. لما سمعتني سمية ضحكت وقالت ويدها لا تزال تطبق على صمة البقدونس فوق الخشبة: «لما طلعت نتيجة التحاليل كنت مع البابا، بالتاكسي وصار يقبلني ويضمني إلى صدره ويبكي. ولم يتوقف عن القول «الحمد لله يا سمية، الحمد لله، كرمال هالزوج اللي عندك وهالصغار». ولم أفهم قصده إلا عندما قال لي «أنا كنت متأكد أنك ما انتبهتي للافتة المكتوبة وكان الحكيم شاكك أنو عندك سرطان والحمد لله طلع خير». وأخذت حالة سمية تتحسن وتتحسن ثم تتدهور وتتدهور. وكنت كلما زرتها ألاحظ الزرقة التي غطت بشرة وجهها واللون الكحلي الذي زحف حتى ازهرار شفتيها وزنديها الضامرين، رغم أنها كانت تأكل وتفكر باستئجار منزل في ضواحي بيروت، حتى أنها كانت ترافق زوجها وهو يبحث عن بيت للايجار. وتتحدث عن القفطان الذي سوف تشتريه وتؤنبني على عدم زيارتي لها أكثر وتلومني لأني لا أهتم بشكلي ولا أجرب كريم جديد لحب الشباب. في المدة الأخيرة أخذت أراها تتضايق من زيارتي لها. كانت تمسك مرآة صغيرة تبحلق في وجهها من حين إلى آخر ولا تحدثني إلا عندما كنت أهمّ بالذهاب، كانت تستحلفني أن أبقى وأن أزورها كل يوم. كانت تحاول أن تتذكر أيام دراستنا بكل تفاصيلها طالبة مني أن أقصّ بعض القصص المضحكة التي مررنا بها. بدأ صبري ينفد بعد أن أوشكت مرة أن أقول لها إنك ستموتين بعد أيام، كفّي عن الأسئلة، كفّي عن القول هالفستان حلو. كفّي عن اختيار طعامك وعن حمل المرآة، ويجب أن تبحثي عن مهرب من الموت. لكن كنت أعود إلى

التفكير بأنه ربما يجب أن تستسلم لـه وهي جاهلة بـه. ثم توقفت عن زيارتها رغم أنها كانت تطلب رؤيتي يوماً بعد آخر. وكانت أمها وهي تبكي وتلطم تصيح بأمي «وين زهـرة هالمجنـونة، سميّـة على فـراش المـوت، وعم تطلبهـا، وما بـدها تشـوف إلا زهرة، وزهـرة بتتهـرب منهـا، ولو المـوت من عند الله، أو زهـرة قرفـانة من شـوفة سميـة يـا ناري». وكانت أمي تدخل غرفتي وهي تبكي وتلطم أيضاً وتصيح بي «ما عندك قلب، ولك رأسك ولا رأس تيس، روحي زوري هـالبنت المشحرة» وأنا كأبي الهول لا أجيبها لا أجيب أحداً بشيء بـل أزيد من نقر بثور وجهي. إلى أن كـان يوم أحـد، وكنت متمدّدة فـوق فراشي أحملق في جدار الغرفة المشقق، أفكر بـأنه يجب أن أنهي حيـاتي. فأنـا حامل من مالك وغداً سأذهب إلى الـطبيب إياه والممـرضة إيـاها ولن أقوى على الوصول إلى ذاك المدخل المعتم والتمدّد فوق الطاولة ورؤية الخرق الملأى بالدماء بعد أن أنتهي. فتح الباب فجأة وكأن قـوة إلهية قد خلعته ووقفت أمي وسط الغرفة تلطم وجههـا وتصرخ بي: «ولك قومي، قومي ودّعي سمية» وعندما لم أتحرك من السرير، أسرعت إلى رقبتي وأمسكتني وصرخت وهي لا تـزال تضغط على عـظام صدري: «ولك لح تجنّنيني، يا بنت الحرام، حاج نايمة بها التخت، إن شاء الله تكون آخر نـومة، قـومي سمية عم بتمـوت وأنت نـايمة» وخفت من جنـون أمي المفاجيء، ورأيتني بحـركـة لا شعـوريـة أرتـدي تنـورتي وكنـزتي. أخـرج وراءهـا، أحـاول أن أبكي ولا أستـطيـع، تنـاولت معطفها الأسود ترتديه ونزلنا السـلالم بهدوء رغم أن الصراخ والعـويل كـان ينبعث من كل حجـرة من البنايـة والأطفال والأولاد قـد تجمعوا على كل درجـة. عندمـا دخلنا غـرست ظفري في كفي أشجـع نفسي

على مواجهة الناس وهم بهذه الكثرة، وبهذا الموقف. أية كلمة الآن لن تكون في موقعها، أي حركة ستكون نشازاً وجلست في أول كرسي فارغ عند عتبة الباب، ورأيت والدها وأعمامها الثلاثة يأتون بالكراسي ويسلمونها لبعض النسوة عند عتبة الباب ويختفون في الشقة المقابلة. أردت البكاء لكنه عصاني. أما النساء المنتحبات فقد حولن شقة أم سمية إلى ساحة رعب حزينة. فجأة رأتني أم سمية وأخذت تقترب مني مبتسمة ضاحكة وقائلة: «يللا يا زهرة، شو جاي تأخذي سمية عالمدرسة يللا مش لح تتأخر، عم تحط الشريطة على رأسها، يا سمية يللا يا سمية اجت زهرة». ظللت أنا كالصنم المشدود الملامح والعضلات والشعور. ظللت يابسة أمام كلامها الصادق الذي تود أن تصدقه إذ ظلت تكرره على مسامعي والنسوة يلطمن أكثر ويشتد صراخهن. نهضت اثنتان تمسكان بأم سمية وأم سمية لا تزال تردد الكلام ذاته: «يللا قومي يا سمية، ليش مش عم تسمعي، زهرة ناطرتك حتى تروحوا على المدرسة» وأنا ما زلت ذلك الصنم اليابس إلى أن استطاعت أم سمية الإفلات أخيراً واقتربت تشدّني من جسدي حتى جعلتني في قبضتها الخارقة القوة أقف ملاصقة لسرير سمية والتفت نحو سمية مرتعبة. كانت لا تزال تنازع وكان الصفير الذي ظننت مصدره الخارج هو صفيرها ووجهها قد أصبح طويلاً، صغيراً، أزرق اللون وقد أحيط بمنديل أبيض أخفى كل شعرها. كانت مغمضة العينين. كل ما فيها نائم، عدا ذلك الصغير. هناك امرأتان ترفعان رأسها عن الوسادة من وقت إلى آخر وتقربان من فمها فنجاناً من الماء. وكانت سمية ـ أمام دهشتي المرتجفة ـ تفتح شفتيها وتشرب. وفجأة أخذت هستيريا البكاء والتشنج يتملكاني، فقط

عندما رأيت فستانها الأخضر مطروحاً عند زاوية السرير كأنها ستتناوله بعد قليل وترتديه. ورأيت أيضاً «خفّها» الذي أذكره جيداً والذي أصبح قديماً، منطبعاً في الذاكرة، بجانب السرير، ينتظر قدمي سمية بين لحظة وأخرى.

هل سيتفشى بي داء السرطان؟ أتت وكأن قوة مجهولة بأمي من الجنوب وجلبتها لتكون بجانبي، تقدم لي الماء وتعصب رأسي بينما غنائم أحمد تضحك تحت السرير وتؤكد لبعضها البعض بأن وجودها هنا رغماً عنها قد سبب الموت لابنة هذا البيت. لا أستطيع التحرك أم أني لا أزال نائمة لا أتحرك ووجدت نفسي أحملق في الشباك وكأن القنّاص لحقني حتى البيت ورضيت بمضاجعته لي ريثما يغلق النافذة التي لا تزال مفتوحة. كنت أحلم وطالت حملقتي وسمعت صوت أمي من جديد، نهضت من الفراش، ووجدت نفسي في أحسن حال، وقد فارقني الشعور بالإعياء، خاصة عندما فاحت رائحة الكمون، وأمي تنثره فوق كبة البندورة، تقدمت من الصحن وأكلت بنهم دون خبز، ولا معلقة، وسمعت أمي تقول «ولو قاعدة بلا أكل، منشان هيك كنت مريضة».

وأنا حقاً مريضة. أريد أن أستلقي وأنام، شرط أن أنهض في أحسن حال. لا أعرف إذا كان أحمد سيأتي اليوم أم في الغد «اتركيني أريد أن أنام». اتركيني أريد أن أخرج... أنا أخرج كل يوم... سأزور بنت تعرفت عليها منذ شهر.. لا تخافي كل يوم أزورها وتزورني، الصواريخ تخف بعد الظهر. ما في قناص، ما تخافي أنا رايحة، حاج تصرخي لأني رايحة»..

يكاد الشارع يكون مقفراً وأنا أتقي صوت الرصاص. أسرع حتى

أصل إلى البناية الهادئة أفكر بكيفية الوصول إليها دون إصابتي برصاصة. بينما ينمحي وعدي لنفسي اليوم بعد الآخر بفتح موضوع العيش معه والزواج به. رغم أن علاقتنا تصبح أكثر إلفة لكن ما أن أصل إليه حتى أصاب بالبكم ولا أعود أنتظر سوى طرحه لي على الأرض وغيبتي عن سماع الرصاص ولو لقليل. هل كان هذا الشارع دائماً كما أراه الآن، مقفراً سوى من رجل عجوز بيده كيس وحاجز من شباب المحلة. رائحة الغبار أو الغبار بلا رائحة، يخيم على الشارع الذي قد تبدل لونه. الدكاكين مقفلة وأصوات الأولاد تنبعث من مداخل البنايات. الهدوء غير الطبيعي يسيطر على كل شيء حتى على الأشجار وعواميد الكهرباء ومصابيحها المكسورة وعلى القطة التي لا تموء بل تنقب بين النفايات والأوساخ يرافقها ذاك الرجل العجوز. هل أسير كل يوم في الوقت نفسه عبر هذا الشارع ولا أحد يوقفني ولا أحد يصرخ بي؟ أم أنهم يعرفون أن الأمان يحيط بهذا الشارع. لكن ماذا عن منتصفه؟!. لكن هذا السكون يخيف. يخيف حتى القطة لا تموء. أم ربما لأن الشمس لا تزال في وسط السماء والخوف أصبح يأتي قبيل غيابها ويشتد بعده. أم كلهم يعرفون أني ذاهبة إلى ملك هذا الشارع، لذا فهم يجعلونني أسير كملكة سبأ بين الحجارة والخوف؟ ولما وصلت إلى البناية لم أصدق أن أحداً لم يمسني وبأني نفذت من بين شباك مئة صياد، وبين نيران السيرك. صعدت السلالم والعيون المتخفية كأنها أخذت تراقبني من جديد. وبدت السلالم أكثر طولاً لا تنتهي. وكأنها إذا انتهت فإنها ستوصلني إلى الفضاء وأغدو وجهاً لوجه أمام النيران المشتعلة. السلالم أصبحت طويلة وأنا أرتجف من التعب. الاسترخاء يشلني ابتداء من عيني. كان الجوع والعطش ضرباً

أجراسها في معدتي، مع أني لم أكف عن الأكل. خطوتان وأصل إلى الدرجات التي إن وصلتها رأيته يطلّ علي مبتسماً.

ولما انطرح فوقي كالعادة، شعرت بالغثيان يصل حتى حلقي. للحظة مددت يدي إلى الكلينكس الموضوعة قرب الشرشف (الذي فكر وأتى به منذ شهر ليكون سريرنا). لما هممت بالتقيؤ نهضت بسرعة متفادية الشرشف متجهة نحو السلالم ولم أتمالك نفسي، وأخذت أتقيأ وأنا أشعر بأن نهايتي قد أتت، فأنا قلما تقيأت في حياتي كلها. سمعته يقول لي: «خذي هاي ورق» وأشحت بيدي طالبة منه الابتعاد، لكن إلى أين يبتعد وليس هناك من مخرج سوى سلالم أخرى وجدران متشابهة؟ أشحت بيدي مرة ثانية، أدار لي ظهره استجمعت نفسي وأتيت بالكلينكس أحاول مسح استفراغي. وأمسكت بإبريق الماء أدلق منه على يدي وعلى فمي وسمعته يقول «بسيطة، الهيئة مضرورة، إذا ضليتي هيك، شوفي حكيم حدّ بيتكم، بركي بيغسلك معدتك»، وهززت رأسي بينما فاحت رائحة التقيؤ وقلت بصوت منخفض «هل تسكن هذه البناية؟» وربما باغته سؤالي هذا، وربما لا، إذ لم أر ردة فعل سؤالي على وجهه، لكني سمعت صوته العادي يسألني: «إيه، ليش في شي؟» أجبته: «مشان تجيبلي مقشة حتى أنظف». وربما ارتاح لجوابي هذا وربما لم يرتح بل سمعته يجيبني: «ولا يهمك، بسيطة بعدين أنا بنظف». كان من الممكن أن نفتح الموضوع ضمن تفاصيل ما حدث اليوم مصادفة، لكن يظهر أنه أعطاني الآن الكذبة خلف الأخرى، قال إن عائلته لا تزال تسكن أحد طوابق هذه البناية، وما أحتاج ليبرر لي لماذا لم ندخل بيته لأنه لا مجال للتفسير. في شارعنا هذا لا تدخل بنت إلى بيت شاب خاصة

وأهله في البيت، لـذا نحن نلتقي فوق هـذه الـدرجـات ووضعني في هـذا الجوّ بـل بصم على وضعي في هـذا الجـو وأمـات بجـوابـه كـل الـظروف وكل التفسـيرات التي كان من الممكن أن تـبرز فـوقهـا نقط استفهام كثيرة. شعـرت أنه هـدم كل منفـذ وكل بـاب أمامي. طيلة هذه المدة وهو يمدّدني فوق الكذب. ويلقي نفسـه فوقي. فـوق شكّي ولذتي في آن. كأن هـذه الساعـات التي مرّت ونحن معـاً، كأن هـذا الانغراس بي ليس هو بسبب يجعله يقف دقيقة ويفكر ويتساءل ويفتح ذاك المنفذ المسدود في وجهي ويصارحني لماذا أحلم وأنا في البيت بأنـه سيسـألني للزواج به إذا مـا انتهت الحرب. أم ربمـا يظن أن علينـا أن نلتقي هكـذا، أم الحقيقة أنـه سيختفي من قبضتي ما أن ينتهي أزيـز الرصاص وانفجار الصواريخ؟. حتى أعود أتقوقع. أشدّ على نفسي. لا. لا. لن يحدث هذا. فوالدي ما عاد ذاك المـارد. وأسرار جسدي لم تعد مهمة لأن أبني حولها السور تلو الآخر. ولن أهرب ظناً مني أن المسـافات الـطويلة تبـدّل أسرار جسمي. وأن... إذا تـركني سـامي أنتبه إلى أني لم ألفظ اسمه أمامه مرة واحدة لن يكون هناك رجل آخر فـي حيـاتي وفي جسدي رغم أن الحـرب حرقت معهـا مقاييس الغنى والفقر، الجمال والبشاعة.

رلى ابنـة الجيران التي لم أرهـا تمدّ رأسهـا من الشباك أبـداً، أراهـا الآن رغم سحنتهـا السمـراء الغـامقـة التي تعـود إلى أصـل والـدهـا السوداني قد صبغت شعرها، وزجّجت حاجبيها وأخذ صوتها يعلو في الحي. بينما دلال واسمها على مسمى لم تعد تستطيع أن تظهر بالورود الاصطناعية التي كانت تزيّن بها شعرها بمنـاسبة وبـلا مناسبـة ولم تعد تظهر ألوان فساتينها الفاقعة ولون طلاء أظافر يديهـا وقدميهـا المرافقـة

لكل فستان. وأنا شكلي قد تبدّل، بُثوري عادت ليس في وجهي فقط بل عند رقبتي وأول كتفي، لم أعد أهتم بهذه البثور، التي أيقنت أنها مني ولن تفارقني ولن أفارقها. أنا الآن متمدّدة على السرير أحملق في صورة لامرأة فارسية معلّقة قرب الخزانة كنت قد وعيت على وجودها دائماً في البيت، كلما لاحظتها قبلاً كلما تأكدت أنني مخلوق آخر لا ينتمي إلى النساء. تلك امرأة أشبه بأسطورة، كانت جميلة لدرجة باهرة. أنا الآن متمدّدة فوق السرير أفكر كيف أصبحت من جنس النساء وكيف أن المقارنة بدت معقولة بيني وبين امرأة تلك الصورة الباهرة، فنحن من جنس واحد. لماذا هذا الدوار؟ إنه يجعل حتى تمدّدي صعباً. ويجعل إمساكي لفرشاة الأسنان ودنّوها من أسناني مستحيلاً. ويجعل شربي للماء صعباً، وشهيتي للأكل معدومة. كانت أمي تدخل عليّ بين وقت وآخر وتقول: «لازم أعطيكي شربة لأنك مضرورة من الأكل، ولازم غطّيك حتى تعرقي وبعدين بتصحّي، حاج مثل المرا المتوحمة والبدوية الطرحانة» وابتسمت لتعبيرها، وعلقت ابتسامتي وأنا أفكر بأن الأيام التي كنت أحمل وأطرح قد ولّت إلى الأبد. لقد ولّى الدكتور العجوز والممرضة وطاولتهما الخشبية. لقد انهارت عمارتهما. أم أنه لم يكن طبيباً؟ لماذا لم أتجرأ على شراء حبوب منع الحمل آنذاك، هل الخوف من الصيدلي وشكّه بي وأنا أشتري الحبوب كان يفوق خوفي من الإجهاض؟ ذاك الخوف.. الخوف البشري الذي وضعني في حالة رثاء انمحى في الحرب لدرجة أني أستطيع أن أسترجع نظرات الصيدلي عندما طلبت منه عشر علب من هذه الحبوب. نظراته جعلت شجاعتي التي استغرقت مني، الوقت الطويل لأستجمعها تهتزّ ولو قليلاً قبل أن أقول له بلهجة واثقة بأني

أريد عشر علب من هذه الحبوب. نظراته جعلتني أشك بشجاعتي. أشك بأن الأمر لا يعنيه. لكنه قال أخيراً «عشر علب، كثير يا مدام بتعرفي ظروف الحرب، لازم تتركي دور لغيرك، شو رأيك خمسة؟ وعدت أستجمع شجاعتي، وأدفع النقود وأنا أضم هذه العلب إلى صدري. سأكون كما أريد، إنما تفكيري يجب أن يكون لي فقط حتى أبقي قناع شخصيتي. لذا اخترت هذه الصيدلية البعيدة عن بيتي وتناولت حبّتين مرة واحدة عن المرة التي ضاجعني بها منذ ثلاثة أيام وأخذت أتبع التعليمات التي قرأتها في الورقة التي ترافق العلبة. ويوم نهضت وأنا أسبح في بحر من الدم أيقنت أن العادة الشهرية تأتي من جراء هذه الحبوب بهذا العنف وبهذه الكثرة. عدت أتناول من العلبة الثانية كل مساء حبة وقد خبأتها في فردة من جوارب أحمد الصوفية. قبل أن أنهي حبوب العلبة الثانية سبحت أيضاً في بحر من الدم مرة أخرى، وأكملت أخذها تماماً كما أتى في الورقة. في الشهر الثالث انتظرت أن تعاودني بلا فائدة عدت وقرأت في الورقة أنه أحياناً لا تأتي العادة الشهرية عند انتهاء الحبوب وما عليّ إلا أن أعدّ خمسة أيام كأنها أيام العادة الشهرية وأستأنف تناولها من جديد. وابتدأت بالعلبة الرابعة للشهر الرابع. ولما انتهيت انتظرت أن تطل علي بل كنت أبتهل أن أغطس في بحر الدم، لكنه لم يأت حتى الآن، سأنتظر أسبوعاً آخر، فإذا ما أتت، عليّ استشارة طبيب. أي طبيب سأجرؤ على زيارته؟ ربما يجب أن أذهب إلى مستشفى المقاصد القريب من محلتنا، الأطباء فيه كثيرون ولن يعرفني أحد. لكن هل يجوز أن أقصد هذا المستشفى أم مستشفى آخر وكل المستشفيات في حالة طوارىء حيث الأموات وأنصاف الأموات والخطر بين أروقتها. ربما عليّ أن

أنتظر. ربما حبس الدماء في داخلي هو الذي يجعلني أشعر بالغثيان وبالدوار. ربما هذه الدماء المحبوسة، أصبحت سماً في جسمي. لن تنفعني هذه التخيّلات يجب أن أرى طبيباً. لكن، هل أخبر سامي أم أؤجل هذا حتى رؤيتي للطبيب. لم يعد هناك من منفذ، فحالتي أخذت تتدهور. أشعر بالغثيان الدائم وبالتقيؤ. حتى أن جوفي بات لا يتحمل نقطة ماء واحدة ولما أصبحت سحنتي صفراء أيقنت أن ما بي شيء خطير. ربما قد أصبت بكبدي حتى بياض عيني أصبح أصفر بينما الصداع لم يعد يترك رأسي لحظة بل يدقّ فوق عيني اليمنى ويشدّ الشريان الأزرق الذي ينفر ممتداً من أعلى جبهتي حتى عيني. لبثت كتمثال فرعوني، لم أعد أحرّكها حتى بؤبؤي خوفاً من الألم. عندما جاء أحمد عند الظهر، وفتحت له أمي الباب أخذ بكاؤها يعلو على صوته، وأخذ ضجيجهما يقترب إلى أن دخلا غرفتي ورأيت أحمد الكلاشينكوف بيده وبيده الأخرى كيسٌ قدّمه لأمي قائلاً «يلا نظفي هالمعلاق» التفت إلي وقال بلهفة: «شو زهرة، مريضة، في ميكروبات في البلد، الهيئة ضارب على معدتك، بروح بجبلك حكيم، أي حكيم يللي بدك، بحط الكلاشن بظهره وبيجي مثل الزنبرك». وهمَّ بالضحك وعاد يقول ويده فوق ظهر أمي «لو بتعرفي من يومين انصاب نديم صعتر وأخذناه إلى مستشفى الأميركان وحطينا الكلاشن بظهر الدكتور اللي قال بأن عمليته صعبة، خطرة وقلنا له «ما منفهم، إذا ما بيعيش هالشاب ظهرك بطير»، لو ما التهديد ما كان عاش نديم صعتر». لم أعد أريد سماع كلام أحمد. صوته يضايقني، شراسة ضحكته بين كلمة وأخرى، تضايقني، مزحه يضايقني، كل شيء به أخذ

يضايقني. الصداع يزداد، أقفلت عيني، ناديت أمي ولما لم أسمع جواباً، نظرت إلى ساعتي وكانت الرابعة، لقد تأخرت على سامي. هجمت أرتدي ملابسي كالمجنونة كأنَّ الجهد المتكاثف الذي أضعته في سرعة ارتداء ملابسي أخذ يظهر عليَّ وأنا أرتقي السلالم. للمرة الأولى منذ لقائنا وجدتني أضغط بيدي على تنورتي ولا أدعه يرفعها رغم أنه مدّدني على الأرض، لا بد أنه شعر بأني لست طبيعية إذ نهض عني وهو يقول بخيبة أمل: «شو بعدك مريضة!! ليش جيتي، كنت ارتاحي اليوم». وعاد يقول: «أنا ملاحظ إنو بطنك عم يكبر أوعي تكوني حبلى» فوجئت بأن لهجته عادية ولا غضب فيها فرحت بيني وبين نفسي لتفكيره الذي لا خوف به ولا توتّر وأجبته إجابة غير متوقّعة: «أنا خائفة يكون معي سرطان، في عندي صاحبة كان معها سرطان وصار بطنها يكبر» لم أعرف كيف كان وقع كلامي عليه، لأني كنت أتكلم وكأني أعترف لنفسي وللجدار ولصمت السلالم. تمنّيت لو أنهض كما كنت أنهض بصحة وعافية. آه من تلك الأيام هل ستأتي ثانية؟ لماذا أصبحت هكذا؟ لماذا قبض علي المرض رغم هذا الضجيج القاتل الذي يسيطر على المدينة والذي جعلني لا أعرف تاريخ اليوم واسم اليوم. لماذا لم يجعلني المرض أمرّ من بين أصابعه كما تمر الجداول. كيف لم يجعلني أنجرف معها ولماذا أطبق أصابعه فقط علي بينما ترك السالمين من الرجال والنساء بكامل صحتهم؟ رغم أنه لا وقت للمرض الآن بل للرصاص، أم أنه اختارني حتى يتوقف المقاتلون عندما يعرفون أن هناك موتاً وعذاباً طبيعيين وأن هناك قبوراً فيها جثث اختارها الله؟ جثث خالية من ثقوب الرصاص والشظايا وسكاكين المهووسين. هل يصدق أحمد أنه عندما عرفت أمي بموت

شوشو شهقت، ولما سألتني كيف مات وأجبتها «نوبة قلبية» ارتاحت أساريرها وغابت تجاعيد وجهها وقالت لي بسعادة «الحمد لله» وكأني بجوابي هذا قد أعطيتها نبأ عودته للحياة. لكن المرض في هذه الأيام خطر. كأن من سيعاينك سيصرخ في وجهك قائلاً: «هلّق وقتك؟» وكأن الممرضة التي يجب أن تعاونك على الوقوف ستسحب كتفها من تحت يدك وتصيح: «هلّق وقتك؟».

وصلت باب مستشفى المقاصد ودخلت الأروقة البيضاء. حين رأيت الناس تنغل كالنحل وبعض النساء يفترشن درجات السلالم وبعض الشباب والبنات في ثياب الميدان، خرجت من حيث أتيت. مضيت أسير إلى أن توقفت عند دكان أطلب من صاحبه دليل الهاتف وأفتح على كلمة طبيب وأبحث بعيني حتى أقرأ: طبيب نسائي وأعود فأبحث بين العناوين حتى وجدت طبيباً عنوانه في محلة المزرعة اتصلت به ولحسن حظي فقد ردّ على المكالمة بنفسه وقال إني أستطيع الذهاب إليه حالاً.

أخذت أسير وزخّات المطر تنهمر قليلاً. حين اشتدّ وأخذت الزخّات الناعمة تتحول إلى نقاط كبيرة متلاحمة بلّلتني أوقفت تاكسياً وقلت له على العنوان. هو رد: «خمس ليرات» وشهقت قائلة: «ولو خمس ليرات»؟ شهق وهو بدوره يقلدني قائلاً: «ولو وين عايشة يا ست، تنكة البنزين صارت بمئة ليرة يا ريت بنزين أزرق وهلق تحت الخطر عم وصلك». فكرت أين الخطر إذا أجبرت نفسي على نسيان الحرب، فليس هناك ما يؤكد وجوده والمطر ينهمر. والناس يركضون والمحلات فاتحة. قمصان نوم معلقة على باب أحد الدكاكين. سيخ الشاورمة يدور، بائع الفلافل لا يزال يضع في المقلى عشرات

الأقراص بينما حوله عشرات المراطبين ملأى بالكبيس الملوّن، رغم أنه كان يعكر صفو هذه الحياة العادية أصوات الانفجارات البعيدة والقريبة. وقفت عند باب بناية هذا الطبيب النسائي ولم أصدّق. إنها بناية عجيبة. فقد صعدت درجها بعد أن كان عليّ أن أخترق حديقة مهجورة. عند منتصف الدرج رأيت رواقاً في آخره باب. تهت ولم أعرف في أي طابق أنا. دخلت هذا الرواق وخبطت على الباب ولم يفتح لي أحد بل سمعت صوت عجوز يسأل: «مين» وأجبته «دكتور عبد الرزاق». وأجابني الصوت العجوز: «فوق» عدت أصعد الدرجات وأنا ألهث حتى وصلت إلى رواق آخر ينتهي بدرجات.. صعدت هذه الدرجات، ثم خبطت على الباب. فتحت لي بنت صغيرة سألتها عن الدكتور عبد الرزاق ونادت: «بابا، في مرا عالباب». وجاء الطبيب ماداً يده مرحباً مشيراً لي أن أتبعه، ولم أستطع إلا أن أشكّ إذا كان هو طبيباً». وأنا ألتفت حولي حيث المنظر كان عجيباً، صبيان تتراوح أعمارهم بين الخامسة والعاشرة وهم في قمصان نوم بيضاء. منهم من يجلس ومنهم من يقفز فوق كراسي القش ومنهم من يبكي. كان كل واحد منهم بصحبة أمه. أدخلني الطبيب غرفة جانبية، سمعت أنيناً يصدر عن شابّ في حوالي الخامسة عشرة من عمره، كان ممدداً فوق طاولة وقد وقفت بجانبه امرأة أيقنت أنها أمه. كانت تمسح جبينه وشعره قائلة: «معليش يا حبيبي، خلصت من هالهمّ»، اقترب الدكتور من الشاب قائلاً: «يللا شدّ حيلك، مثل ما قلت لك لا حمام ولا حركة، لا كيلوت، عندك قميص نوم؟ أو بتشتري هيدا يللي لابسه» وهنا سألت الأم عن ثمنه فأجابها الدكتور بعصبية «هاتي شو في معك، ثلاث ورقات، أربعة يللي

معك» مدّت يدها إلى صدرها وأخرجت منه منديلاً أبيض في طرفه عقدة، وهي تفك العقدة كان الطبيب يهزّ كفّه أمام المرأة كمن يستعجلها. لما أخذ ما أعطته وكان ليرتين، لم يعلق شيئاً بل اقترب من الطاولة ومد يده يضعها تحت إبط الصبي قائلاً بنفاذ صبر «يللا يا عمو، يللا إنت شاب». بينما مدّت الأم يدها تحت الإبط الأخرى. أخذ الصبي يئنّ كلما حاولا تحريكه. عندما أصبح أنينه صياحاً قال الطبيب للمرأة بعصبية وبعجلة: «اسمعي، بعيطلك للناطور بيحملك هالصبي وتدفعيلو كم قرش» وما انتظر حتى يسمع ردّ المرأة. بل فتح النافذة ومدّ رأسه وصرخ «يا قيس، يا ناطور، اطلع عايزك شوي». وأنا لا أزال واقفة مندهشة، كل شيء يدهشني. هل هذا المطهّر هو طبيب نسائي أيضاً أم أني أخطأت في القراءة؟ وإذا لم يكن، لماذا استقبلني وأدخلني غرفة عيادته هذه؟ دخل الناطور وتبعته امرأة شديدة السمنة وصاحت: «شو يا حكيم هلق وقت كروش وغمّة، ليش يا رجال دائماً تتحشر بالأكل وبالمطبخ، إذا بدك هالكرشات أنت بتنظفهم وبتطبخهم» «ثم أدارت ظهرها لنا». لم يجب الطبيب بكلمة سوى ـ بأن هز رأسه يميناً وشمالاً وقال: «يللا يا قيس، احمل هالولد، والمرا بتعطيك تحت كم قرش» واقترب قيس يحمل الصبي وكأنه يحمل طفلاً. تبعته الأم قائلة: «شو يا حكيم منجي بعد جمعة؟» والطبيب يتناول شرشفاً من درج طاولة مكتبه ويهز رأسه قائلاً دون أن ينظر إليها: «نعم مثل ما قلت لك. لا حمام، ولا لعب، ولا كيلوت». فرد الشرشف على الطاولة وقال دون أن ينظر إليّ: «شو القصة؟» وقبل أن يسمع جوابي ربما رآني استغرقت وقتاً قبل أن أفتح فمي، تركني ومدّ رأسه عبر الباب وقال: «انطروني ما

حدا يروح، أنا عم بفحص المرا خمس دقايق». أغلق الباب وراءه وعاد يقول بعصبيةوأنفه الكبيركأنه جبل ترتكز عليه نظارتان بيضاوان: «شو القصة؟» وأخبرته وكأنه لم يسمع شيئاً أشار إلى الطاولة قائلاً: «اشلحي الكيلوت واتغطي تحت الشرشف». ثم مدّ يده وسحب ستارة من الجدار إلى الجدار. خلعت سروالي واحترت أين أخبئه ورأيتني أضعه في الكيس الأصفر النايلون الذي لا أستطيع أن أقصد سامي بدونه، كنت أفكر أن الكيس هو الذي ينقذني من رصاصة قنصه رغم أنه ما قنص مرة في اتجاه الشارع الذي آتي منه. وتمدّدت فوق الطاولة وعيناي تدوران في سقف هذه الغرفة العالي. دخل الطبيب بعد أن أزاح الستارة ثم أدخل يده داخل الشرشف ولما حاول فحصي شددت فخذي وقبضت على أسفل بطني وسمعته يقول «ولو بتخلي جوزك ينام معك، وبتخافي من إصبعي، يللا بلا دلع يا أختي». حاولت أن أهدأ وأرتاح ثم عدت أحاول فتح فخذيّ فلم أستطع حاولت أن أسيطر على انقباض أسفل بطني دون جدوى وسمعته يزفر صائحاً: «ولك شو القصة يا أختي، شو جايين نلعب هون، الله يرضى عليك أنا مستعجل، عندي شي عشرة مطهّرين بدي أفحصهم قبل أن تعتم الدنيا». وحاولت مرة أخرى، وكلما حاولت كلما شددت وانقبضت أكثر. تركني بعد أن نزع نظارتيه الطبيتين وقذف بهما على الطاولة قائلاً: «مع السلامة يا أختي، يللا يا أختي البسي ومع السلامة» قلت له برجاء: «معليش يا دكتور جرّب بس هالمرة». تقدم مني وهو يزفر بينما نظراته تهددني، وبأعجوبة وجدته يفحصني بينما يده الأخرى تتحسس بطني ثم انسحب وقال: «مبروك يا مدام إنت حبلى أربعة أشهر»، ورفع الغطاء حتى خصري

وقال «كان لازم تعرفي أنك حامل، خصرك رايح وبطنك كبران، عشر ليرات فحصيّة». صحت: «مش معقول أنا حبلى، كانت العادة تأتيني كل آخر الشهر لمدة شهرين!». نظر إلي وكأنه يهم بافتراسي وأجابني بسرعة: «شوفي يا أختي صار لي خمس وثلاثين سنة حكيم بقص حمامات وبولّد نسوان وبعرف شو المرا بدها تجيب من أول شهر فحصيّة، هلأ بدك تعمليلي قصص ودواوين يللا يا أختي بلا خلط، عندي عشرة صبيان مطهّرين بدي أفحصهم». أجبته وعقلي لا يريد أن يصدق «بس العادة». . وقاطعني قائلاً بهدوء هذه المرة: «هالدم كان نزيف يا مدام مش عادة شهرية، يمكن الحبوب تّرموا هالنزيف» أجبته وأنا أبكي صارخة: «بس كنت آخذ حبوب، معقولي الواحد يحبل وهو عم ياخذ حبوب؟» أجابني بهدوء: «ما في الواحد يحبل، الواحدة بتحبل، أنت مرا أو رجال، ليش عم تقولي عن حالك رجال، انت عالأكترية كنت حبلى قبل ما تاخذي الحبوب بشي جمعة، أو بيومين، على كل حال هلأ انت حبلى وبلا كثرة حكي، عشر ليرات عالفحصيّة، تعي زوريني لما تصيري بالثامن، لح اكتبلك على فيتامينات» عندما مدّ يده يكتب على ورقة، جنّ جنوني وصرخت به: «يا حكيم أنا ما بدّي هالولد دخيلك طرّحني هلق». ولم يدهش أو يفاجأ بكلامي، بل استأنف يكتب على الورقة ثم يطويها ويعطيني إياها، فلم أمدّ يدي بل قلت: «دخيلك ببوس إجريك طرحني هلّق». قال وهو لا يزال يمدّ لي الورقة: «دائماً المرا ما بتصدق على حالها حتى تحبل، ولما تحبل بتصير تتدلّع وبتقول «ما بدها». «دخيلك. .» «وقاطعني ووقف صائحاً: «ولو يا مرا انت متعلّمة أو جاهلة، معقول طرّحك وانت خلصتي الأربع أشهر، لو شهر شهرين

ثلاثة بسيطة، كنت بسكّر هالباب وبخمس دقائق بطرحك، بس هلق مش معقول، صار في بطنك روح». قلت له بعصبية: «طيب عطيني شيء حتى يسمّم الولد». ضحك باستهزاء قائلاً: «يا مرا قديش إنك عنيدة وجاهلة، اللي بتشربيه بسمّمك وبموتك قبل وبعدين بسمّم وبيقتل الولد». وصحت: «جوزي بدي أطّلقه بحبّ علي!» وأجابني: «معليش القانون معك مجبور يعطيك معاش وحضانة، لأنك حبلت منه قبل الطلاق، ومنيح اللي عرفت قبل ما طلّقت!» أخذ رأسي يدق وقلبي يدقّ، يدقّ، ويداي تدقّان وتحفران في فخذي وصحت باكية: «جوزي كان عم يحارب ومات ليش بدّك تعترني وأنا بأول عمري، دخيلك يا حكيم ببوس إجريك وإيديك، بعطيك خمسمئة ليرة، ثمانمئة ليرة». رأسي يدقّ، ويدقّ. وقلبي يدقّ، يدقّ ويداي تحفران في فخذي وترتجفان. نهض من خلف طاولة مكتبه ووقف قبالتي وأدار بيده وجهي حتى أصبح مواجهته ثم قال بهدوء أشبه بالهمس «اسمعي يا مرا، اسمعيني منيح كثير، أنت صارلك حبلى أربعة أشهر بلشتي بالخامس، مش معقول، تطرحي، ولا حدا بيقدر يطرحك بالعالم، حتى لو إجا النبي محمد أو المسيح، حتى لو لبس الله ثوب حكيم وإجى بنفسه ما بيقدر يطرحك، في خطر عليك كثير، لو عطيتيني من ألف ليرة لمئة ألف ليرة، مش معقول حط إيدي عليك، فهمتي، الله يصبّرك».

التفتّ حولي وتسمّرت عيناي على الباب وفكرت أنه ليس من المعقول أن أخرج عبره قبل أن أجد حلاً. بعد هنيهة أيقنت أنه لا مفرّ سوى الانتحار والموت عدت أفكر بإلحاح شديد أن هذه سوف تكون النهاية إذا ما خرجت عبر هذا الباب. وجدتني أفتح محفظتي

وأعطيه ورقة الخمسين ليرة. تناولها وهو يقلبها عن ظهر قلب ويتحسّسها بأصابعه وكان أنفه الجبل لا يزال يحمل نظارتيه الطبيتين وأنفاسه ذات الصوت لا تزال تعدّ النقود من فئة الليرات وكأنه بائع سلعة واحدة ثمنها ليرة. قلت له أو حدّثت نفسي أو حدّثت الدنيا كلها أو حدّثت أمي أو حدّثت القناص، قلت له: «سوف أنتحر» ورفع رأسه عن الليرات، ومال به هازئاً وزمّ فمه وغمز بعينه وقال: «ولك تسلميلي وانت وهالحكي». عدت أقول له وقد ارتحت نوعاً ما لردّة فعله: «يا حكيم أنا خائفة يكون معي سرطان، أنا متأكدة أني لست حبلى». قال وقد انتهى من عدّ بقية ورقة الخمسين وهو ينهض: «بركي الله بعثلنا مريم عذراء ثانية، ونحن مش عارفين، بدك تروحي تعملي أشعة بالمقاصد يللا روحي بكتبلك ورقة، يللا هاي ورقة، بس حرام رمي المصاري، إنت حبلى ونصف» وقبل أن أفقد عقلي وأستجديه من جديد. فتح الباب، وظهرت امرأته السمينة. مع أني كنت في حالة ضياع وخوف يختلطان مع كآبة مميتة إلا أن بياض وجهها الطافح بالسمنة مع لون شعرها الأسود المصبوغ على ما يظهر قد جذبني، ووقفت تتأملني ويدها على خصرها وتعود تتأملني ثم تلتفت إليه «شو هالفحص مالح يخلص أنا شايفة». ثم عادت تقول إزاء صمته وقد نقلت يدها إلى خصرها الآخر: «الصبيان قلبولي الدنيا بره، شو بدك نعمل، بقول لهم الحكيم بعدو مشغول عم يفحص أو شو؟» ووقف الحكيم يسير حتى الباب والتفت إلي قائلاً: « يللا يا أختي الله يصبرك» خفت من نظرات امرأته السمينة، خفت أن تتحول نظراتها إلى ضربات ونزلت السلالم. . الخوف من حالتي يزداد وكأن هذا الخوف قد شلّ قدرتي حتى على التركيز بما أفكر

به. سرت في الصحو إذ توقّف المطر وترك قوس قزح يمتدّ. حتى قوس قزح لا ينسى دوره رغم ضجيج هذه المدينة المرعب. وكان الخوف قد جعلني لا أسمع دوي الانفجارات ولا أنتبه أن الطرقات فارغة إلا من المسلّحين. «وقفي عندك يا مرا، شو عم تعملي هون وليش بعدك بالشارع؟» أجبتهم بلا مبالاة: «كنت عند أمي في المستشفى»، وأكملت سيري دون أن أعلّق على نصيحتهم: «عجلي قدّ ما فيك» أين هم وأين أنا، أعجّل؟ أحمي نفسي؟ لماذا أحميها وأنا سأقتلها بعد قليل. لكن، لماذا أتت أمي من الجنوب، ألم يكن أسهل لي أن أتناول علبة الأسبرو كلها بعد أن أكون قد تمدّدت في السرير وأخذت أردّد أسبرو خلّيه صديقك، أسبرو خلّيه رفيقك، أسبرو يزيل الأوجاع والآلام، يعيش يعيش فيف بالموليف، لا، لقد نسيت كيف ينهون هذا الإعلان، من إذاعة الشرق الأدنى. قرأت مرة على لسان إحدى بطلات يوسف السباعي أن ترديد جملة يساعد على الإسراع في نسيان الحاضر والانتقال مع مفعول سمّ الانتحار إلى حيث يريد أن يأخذها. في اليوم التالي ينتظر سامي رؤية الكيس الأصفر وسماع خطواتي على الدرج، تظل علبة الكلينكس طافحة بالورق والشرشف الذي يفرشه على الأرض يظل مالساً، بندقيته ومنظاره يستسلمان لزاوية الجدران، تبقى مياه الإبريق ساكنة. بينما تتعالى الصيحة المقلوعة من جذور كيان أمي في بيتنا. والرعب القريب من الهستيريا يحطّ على وجهها ويداها تمتدّان تتحرّكان في الهواء. ترى هل ستمرّ في ذهنها صور الماضي. هل وجودي كان متمّماً لوجودها؟ لأننا كنا البرتقالة وصرّتها لا نفترق؟ ربما كنت أنا الوحيدة التي تربطها بشبابها وإذا متّ أنا اختفت معي حتى الذكريات. وأحمد، هل سيبكي؟ هل

تتساقط دموع الرجال ببساطة؟ وإذا كان يحمل الغنائم هل يخبئها قبلاً ثم يبكي؟ أم يمدّ يده إلى وجهه يخفيه ويرمي لا شعورياً المسروقات. وإذا ارتطمت ووقفت حتى الأرض وكانت قابلة للكسر، هل سيأتي أحدهم بمقشة يلتقط الحُطام، أم أن كون زهرة ممدّدة فوق سرير الموت لا أهمية لأي شيء فوق الأرض؟ هل سيمتلىء بيتنا بالنساء فقط أم غرفة للنساء والغرفة الأخرى للرجال، أم أن الحرب سوف تسمح بالاختلاط؟ «يا حرام الشوم يا زهرة، يا ضيعان شبابك يا زهرة، يا ضيعان شبابك يا سمية، ليش يا بنت سوّيت هيك، يللا يا زهرة قومي روحي عالمدرسة مع سمية، لكن سمية الآن تحت التراب، ولن تقول أمي هذا عندما ترى أم سمية، بل ربما ستقول: «زهرة لحقت سمية، وبركي من هونيك ورايح بروحوا عالمدرسة. مدرسة الإناث الأولى، برج أبي حيدر، يا زهرة ليش مش منشّاية قبّتك، مين طرّزلك الأرزة على هالقبة، ولو حدا ما بيعرف يطرّز الأرزة. مين نقّالك لون خيطان هالأرزة. لونها أخضر باهت، يللا مدّوا أصابعكم لشوف، ليش هالظفر طويل، مطعوج طيّب فهمنا بس ليش طويل، الحكيم قال لك ما فيكي تقصّيه، طيّب مدّي رأسك، هيدا قشرة أم صيبان، قرّبي شوي، هيدا صيبان شو كنتوا بالضيعة؟ مدّي لشوف إيدك.. شو؟ مدّي لشوف إيدك، شوهاللون الأصفر على.. حنّة، حنة على الإيدين، قولي لأمك حتى تروّحلك هالحنة، انت جاية عالمدرسة مش على سوق الدلّالين، شو مبين بعدهم إيديك صفر حمر، ليش ما شلتيهم، شو قال، الحنة ما بتروح إلا لحالها، يعني بدي ضلّ سنة شوف هالإيدين، شوهالحكي، شوهالعالم، بس زهرة شاطرة، أحسن بنات المدرسة، تاريخ عشرين على عشرين،

جغرافية عشرين على عشرين، إنشاء عشرين على عشرين. إنشاء: الجنة تحت أقدام الأمهات، ولو ورقة فاضية، شو بك يا زهرة، طيّب روحي، كثير عم يوجعك بطنك، هلأ منبعث معك سعدية، سعدية امرأة بواب المدرسة تمسكني بيدي تقطع الشارع وهي تشتم السيارات وتشتم كل بنات المدارس: «كلهن جزليات»، لا أفهم هذه الكلمة. «هاللعونة نجوى حطّت جوزي بالحبس قال شو، قال... نام معها... ما هي خالصة من أيام سيدنا نوح». الحمد لله أني لست في المدرسة. الحمد لله أن الطاسة ضايعة في بيروت وفي بيتنا ولا أحد ينتبه إلى تكوّر بطن، لكن ألن ينتبه الطبيب الذي سوف يحدّد سبب موتي إلى تكوّر بطني الخفيف، أم أنه لن يظهر هذا التكوّر وأنا مستلقية فوق ظهري، هل سيرسلون في أثر الطبيب. وإذا كانت أمي وحدها في البيت وفلشتني بهستيريتها المعهودة لترى إذا كانت تستطيع أن تدبّ بي الحياة وانتبهت إلى اختفاء خصري وتبدّل لون حلمتي كما قال الحكيم وكبر بطني الضئيل هل ستعيد هي ملابسي ولن تأتي بطبيب يؤكد لها الفضيحة وإلاّ جرّها والدي حتى بضعفه الحالي حتى أرض المطبخ ونزل بحزامه الجلدي فوق لحمها وهو يهذي: «ابن البط عوّام، طبّي الطنجرة عتّمها بتطلع البنت لأمّها، كلّه منك يا عكروتة، بعتي شرفك وشرف بنتك، مين اللّي حبّلها، يللا قولي. روحي لحالك كنتِ، ليش تاخذيها شاهد عليك، هالبريئة المعترة، من سيارة لسيارة، ومن الشام لبيروت، ومن صوفر للنبطية، انطقي مين اللي حبّلها وانت مش حاجّة، إنت عكروتة..». وهل إذا تحرّى والدي وسمع عن قصة مالك، لهجم عليّ رغم أني ممدَّدة فوق سريري بلا حراك وبلا روح؟ لكني أتخيَّله يهزّ رأسه يمنة ويسرة متأسّفاً

على عدم بطشه بي عندما كان كأسد الغابات. يتكلم فيزمجر، يجلس فيربض. يخانق فيفترس. لكنه سيهزّ رأسه يمنة ويسرة محدثاً نفسه: «ولو يا زهرة أشطر بنت مدرسة. زهرة الساكتة الحنون العاقلة، من المدرسة للبيت، ومن البيت للشغل، لا روحات ولا مجيات، لا سهرات، لما لحقت النسوان قعدت بالحمام ساعتين وأمها تدقّ عليها الباب: «يا زهرة يا حبيبتي ما تخافي، هيدا من عند الله، ما تخافي يا بنت، أنا لحقت النسوان على بكّير، معلهش افتحي لي الباب، ما تخافي، بس افتحي الباب شوي، طيب أنا بضلّ برّة، بس انت افتحي الباب وما تخافي. الهيئة زهرة لحقت النسوان، لا بل لحقت أمها على بكّير، الله يقصف عمر أمها مئة مرة، الله يلعن أمها، ويلعن هالخلف الوسخ البندوق. أحمد أزعر سرّاق، وزهرة عكروتة صغيرة، والعكروتة الكبيرة بتحطّ قال فيشة سوداء وترتدي معطف وكلسات سميكة».

ماذا أفعل، سألت نفسي وأنا لا أزال أسير ووقع خطواتي يسمعها وقع خطواتي فقط. فأنا قد داهمني الصَّمَمُ وما عدت أسمع شيئاً. إذا انتحرت سيعرف الجميع أني كنت حبلى. ما هم؟ عندما يعرفون أكون ممدَّدة على السرير، وبعد وقت تحت التراب. حتى بصقتهم لن يصل رذاذها إلي. أكون في استسلام تامّ، أنا والذي في بطني تحت التراب، في سكون تامّ بينما يدوي فوقنا الصخب ويبقى القتال والهدنة تبقى. الأصوات تبقى. والطعام يبقى. الزواج يبقى. الولادة أيضاً. المنازل والمطر والشمس كلها تبقى، في صراع دائم، اللحظة التي سوف يتمددون بها، كما أنا ممدَّدة الآن تأتي آجلاً. ما الفرق بين لحظتي العاجلة ولحظاتهم الآجلة؟. ربما لحظتي هي الأصعب، لأني أنا

قرَّرتها وهيَّأت لها، وإن كلفتني خوفاً خبط صدري كمكواة حامية، لكنني وصلت إلى اتخاذ هذا القرار بعد أن حاسبت حياتي وبعد أن أتممت دفاتر سجلاتي. ولم يبق لي شيء سوى معرفة ما سوف يحدث بعد أن أكون قد أغمضت عيني.

أصل إلى البيت، أسمع صراخ أمي ينبعث، هل بدأت بالندب وتحضير المأتم قبل أن أسفّ هذه الحبوب البيضاء وكأنها عشرات التوائم؟. هل تحاول أن تفهمني أنها على علم بما أنا مصمّمة عليه وها هي تحاول ردعي بطريقة فوران هستيريتها هذه. لكنها ستبدل رأيها ما أن تكشف على جسمي وترى خصري وبطني وحلمة صدري. سأقول لها: «شوفي يا أختي أنت صارلك حبلى أربعة أشهر، وبلشت بالخامس مش معقول تطرحي ولا حدا بيقدر يطرحك بالعالم كله، حتى لنو اجى النبي محمد أو المسيح، حتى ولو لبس الله ثوب حكيم، واجى بنفسه ما بيقدر يطرحك، في خطر عليك كثير، ولو أعطيتيني ألف ليرة، مئة ألف ليرة، مش معقول حط إيدي عليك، فهمت يا مرا الله يصبّرك». يا ليت في وسعي إسقاط هذا الجنين الذي يدقّ في رأسي والذي يجعلني في غثيان دائم وتعب هائل والذي صوّر لي السرطان وقد كمشني في بطني. أم أنه هو السرطان إنما بشكل جنين في كأس اللبن، بعد أن أدعه يسبح في الماء وأتمدّد على السرير، وكل من تزورني تهنئني بالسلامة، تمد عينيها لترى بني آدم يسبح في المياه القَليلة. كيف كانوا يسقطون منك، هل كنت كشجرة ما أن يلوّحك الريح، حتى تسقط الثمرة؟ ترى ماذا سوف يحدث لو أخبرت أمي؟. هل ستضربني؟ لا بأس. هل ستعضّني كما كانت تعضني كلما احتدَّت عصبيتها؟ لا بأس، هل ستصرخ؟ لا بأس، هل

ستميتني؟ لا بأس، فأنا قد فكرت في كل هذا. لكن أريد أن أحمّلها عبء حملي هذا. أريد أن أفرد نفسي ولو للحظات بعد إخبارها، سأدعها تحوم حول نفسها حتى تصل إلى حد الجنون، بينما أنا أفرد نفسي، سأدع الخوف يتسلّل إليها ولو مرة واحدة الخوف الآخر الذي يتعامل ويتفاعل مع الإنسان، لا ذلك الخوف الذي مصدره صوت الانفجارات وأزيز الرصاص. أريد أن أنقل خوفي إليها، كما كانت تنقل قلقها ونحن ننتظر في الغرفة المعتمة. كنت أفسّر خوفاً ينتقل منها إلي وكأنه سلك غرز من شريانها حتى شرياني. أريدها أن تخاف، أن ترتجف وأن تبول وهي في الصحو وأن تبول وهي نائمة. أريد أن أراها تحمل فراشها إلى الخارج وتنشره على السطح ليراها كل من في الحي ويتهامسوا ويضحكوا ويتهامسوا: «شخاخة». خاصة بعد كل مشوار مع ذلك الرجل، بعد كل صدام مع والدي. بعد كل مشوار تكون قد حملتني عبء رؤية أحد لنا والسيارة تسير بنا: «شوفي يا زهرة، شوفي إذا شفتي حدامنعرفوا وطّي راسك وقوليلي: «اسمعي ماما كنا عند الحكيم، رايحين عند الحكيم» أفكر: لكن جدار الدكتور شوقي ملطّخ بالتوت الذي كان يسرقه الوطواط، وهذا الجدار الآخر؟... «يمكن دهنوه كنا عند الحكيم!» لكن غرفة الحكيم شوقي تختلف، الطاولة تختلف، الجدار عليه صورة طفل وبجانبه حليب كليم وصورة أخرى لطفل أشقر وبجانبه ثدي أمه. السرير يختلف ولون زخرفة البلاط يختلف: «كنا عند الحكيم فاهمة» لكن وجه الحكيم آخر، وهو لا يعتّم الغرفة، بل نظل نرى شجرة التوت الضخمة وأوراقها حتى عبر زجاج هذه الغرفة، بينما كانت الغرفة الأخرى دائماً مظلمة رغم عتمتها فأنا لا أرى أية صورة معلّقة على

الجدار، سوى صورة رجل مقطّب الجبين في بذلة عسكرية على صدرها نياشين عدة. آه أريد أن تحملي هذه التناقضات كلها، والتي لم تجعلني أغرق في النوم العميق خوفاً من التبويل ومع ذلك كنت أبول في الصحو».

«ولك وين كنت قطعتيلي قلبي، والله بنتي مجنونة!» التفتت أمي إلى جارتنا ألطاف تسألها: «معها حق بنت الأوادم تعمل فيّ هيك بتترك البيت وأنا عم أستعير كم حبّة هال من عندك، لا حسّ ولا خبر، وبتغيب شي ثلاث ساعات، شو الدنيا فوضى وقايمة، وين كنتي خبّريني؟؟». أجابت عني ألطاف «ولو بدها حكي يا حاجة، أكيد كانت مع الشيوعية عم تتمرّن على الكلاشن. بغيبتك صارت يا أم أحمد كل بنت بتروح عمكتب الشيوعية بتسجّل اسمها. كل واحدة وقدرتها. القوية يحمّلوها السلاح والقوية المفركشة بتطبخ لهم والقوية من نوع تاني.. وفهمك كفاية».

والتفتت أمي إلي، ربما لتضعني في احدى الخانات التي عدّدتها ألطاف. وكان المطر قد نزف عليّ ولا يزال ينهمر حتى وأنا وسط الغرفة. إنه يسيل على وجهي وعلى كفي وعلى حذائي وعلى الأرض. يبدو أن منظري كان مضحكاً لأنها أخفت ضحكة غصباً عنها. لكن وعيناها تلتقيان بجارتنا ألطاف التي تتمالك نفسها هي الأخرى حتى أخذتا تضحكان بصهصنة. كلما تمتمت احداهما «يلعن الشيطان» كلما ازداد ضحكهما. أمي تمسح بكم فستانها دموع ضحكها، بينما أخذت أنا أمسح دموعي التي لم تشأ أن تتساقط. دموع تغطي عيني إنما من الداخل. بينما علت قلبي النقمة. إنهما تهزآن بي. جارتنا ألطاف تهزأ بي وأمي تساعدها وتوافق. تراءت لي قصّة تحميلها عبء

بطني بعيدة. فهي ربما سوف تضحك وتقول لي هازئة: «مش معقول، مش معقول حدا يقربلك، لا أستطيع أن أتصورك بأي وضع مع أي رجل. بعد أن عدت من افريقيا في المرة الأولى كانت تسألني بالحاح شديد إذا كان سبب كرهي لماجد هو الهرب مما يحدث بين المرأة والرجل. لم أكن أعلّق على كلامها، بل كنت أصمت إزاء سؤالها الذي كانت تتبعه بآخر وبآخر حتى انفجرت مرة بها صائحة: «ولك والله نام معي وهيدا مش السبب». وأجابتني صائحة هي الأخرى، «والله العظيم أنا مش مصدّقة، حتى لو شفتك بعيني ما بصدّق». بعد يومين، عادت وفتحت لي الموضوع إنما بشكل آخر باسداء النصائح: كيف يجب أن أتدلّع عليه، كيف يجب أن أركض إليه ما أن يفتح الباب وأقبّله فوق خده. كيف يجب أن أستحمّ كل مساء وأن أرتدي قميص نوم يختلف عن الذي لبسته ليلة البارحة وأرشّ الكولونيا فوق جسمي كله وأن أتزيّن أحياناً بوردة عند شعري وأن أقلع عن السير حافية وأن لا أجيبه بنبرة. كان كلامها هذا كافياً لأكره ماجد أكثر وأكره إقامتي معها في لبنان. إنها تضحك عليّ الآ ن هي وجارتنا، ولن تحمل عبء بطني. عليّ أن أغلق باب غرفتي وأسفّ الحبوب البيضاء. وعند الصباح يكون قد انتهى كل شيء وتُطوى صفحتي مع طمرهم للتراب فوقي.

لا أعرف لماذا فكرت فجأة بسامي وبأن علاقتي معه لا بدّ أنها كانت كتكملة لجوّ الحرب، أو حدث يختلف عن الأحداث المفاجئة المفزعة. كأن هبوطه فوقي لم يعنِ لي شيئاً، وكأني ما تشبثت يوماً في ظهره أريده أن يرمي أيضاً وأيضاً ثقله فوقي. كأني لم أفكر بالزواج به وبالعيش معه.

لماذا لم أفكر به. دوامتي هذه أو مشكلتي هذه قد سدّت بي كل الأحاسيس الجميلة التي كانت قد عادت وكوّنتني كإنسان، ينتظر وينتشي ويحضن ويعطي ويأخذ منذ أن صعدت السلالم اليه في المرة الأولى. الآن هو خارج هذه الصور التي تمرّ في خيالي، بعد موتي وقبله، مع أنه هو العمود الثابت لمشكلتي، هذا إذا استطعت القول إنه هو سبب مشكلتي، مع ذلك فاني لم أدخله بتفكيري هل لأني على معرفة مسبقة بما ستكون ردة فعله إذا علم بحملي منه وهي اللامبالاة أو هذه الجملة: «دخيلك يا زهرة لازم تطرّحي» أذكر كيف كانت تتضاعف سنّ مالك، ويصبح وجهه طويلاً شاحباً وكأن الحمل في بطنه هو. لكن الأمر يختلف: مالك كان متزوجاً لماذا لم أفكر أن حالة بيروت الفوضوية هذه ربما ستجعل سامي يفكر بأن يدع هذه البنت تنجب بعد أن يعقد قرانه عليها والزواج السريع الفوضوي ربما يجب أن يطابق هذه الحالة. . .» أخذت هذه الأفكار تقترب مني. تقترب حتى أصبحت واقعية، وبدت مشكلة حملي لأول مرة بسيطة. أخذ سامي يدخل جميع الصور التي أخذت تتدفّق على خيالي وكلّها بسيطة ثم تحوّلت إلى صور سعيدة عندما أخذت أقرّب من خيالي سامي ومعاملته لي ونظراته الطويلة وارتماءه فوقي بلهفة وتوقه لي كل يوم، كل يوم وقصص ذكرياته التي لا تنتهي. كان يفتح قلبه لي رغم أنه كان عن خلجات الماضي. ما همّ ربما يظن أني أعرف حاضره كله لذا فهو صامت عنه. أم أنه لا يريد أن يعرفني به خوفاً من أن أكفّ عن رؤيته. إذا أخبرته أني على علم به ربما سيذوب الخوف عنه وتصبح القضية محلولة. لماذا عليّ أن أسفّ الحبوب البيضاء وأجعلها تذيب نفسها بنفسها في جوفي حتى تستطيع أن تمّر في كل وريد وشريان

وتصل إلى طفلي بينما الذي وضعه في جوفي لا يعلم شيئاً عمّا يحدث لنا؟ الذي ساعد أفكاري هذه جوّ البيت الذي لا يوحي باغلاق غرفة نومي وسفّي لهذه الحبوب والانتظار. فأمي قد رفعت صوت الراديو وزياد الرحباني يتكلم وأنا أحب الاستماع إليه، انه ينشل ضحكتي غير الواردة، والمطمورة في قاعي. بينما جلست في صحن الدار تحمل الابرة وتخيط الألحفة رغم صوت الانفجارات. سأنام هذا الليل وطيلة الغد حتى يحين موعد ذهابي إليه. ولأول مرة أشعر وأحار كيف أنام. هل أستلقي على ظهري أم أنام على جانبي خوفاً من أن تدخل أمي وتنتبه الى تكور بطني وتفسد كل خططي بل خفت أنا على بطني، خفت أن أؤذي الذي في داخلي. شعرت ربما بوهم ثقل بطني، ربما بوهم احساس بحركة بحركتين، بثلاث. قبل أن أخبر سامي أخبرت نفسي بأنه في حال تردّده وخوفه من مسؤولية بطني سأنسحب قائلة له إني أستطيع بطريقة ما إسقاط الجنين وأودّعه لأذهب بسرعة إلى البيت أسفّ الحبوب دون تردّد. هذا هو قراري الأخير، وها هي الدرجة الأخيرة. وها هو سامي أمامي. لا أعرف إذا كنت سأراه للمرة الأخيرة أم أنها ستكون المرة الأخيرة فوق هذه الدرجات. بادرني قائلاً: «شو إن شاء الله منيحة اليوم، شغلتيلي بالي!» اكتفيت بالابتسام ولم أستطع: أن أضيف شيئاً. عندما اقترب مني وهو يمسك بالكيس الأصفر هربت مني كلمة: «أنا حبلى». جمد في مكانه وقال بعد وقت: «كيف قالوا أنت ما بتجيبي أولاد؟» وأجبته: «اللي قال لا يعرف». أردف دون أن يسمع جوابي وجفاف ريقي وخبطات قلبي. «شو ما كنت تعملي واسطة؟» أجبته بسرعة: «غلطت بأخذ الحبوب». واقترب مني قائلاً: «ما تخافي بكره ببعتك لعند داية أرمنية

ساكنة عالمزرعة اسمها ازادوهيك قوليلها دلّوني عليك بيت رجب وهي بتعرف!» مدّ يده إلى جيبه يتناول مئة ليرة وقال وهو يمدّ لي بها: «عطيها خمسين بس، وإذا أخذت وعطت معك رجعي وعطيها المئة». أخذت أحدق بالمئة التي لا تزال ممدودة حتى أني لم أعد أرى سوى لون أزرق رمادي باهت، بينما ضاعت من حولي رؤيتي ليده وللأشكال الأخرى وبدت كل الحياة في زرقة هذه الورقة وكأن لم يأت قبلها أو بعدها أيّ حدث. ابتدأت بالتفكير، لكن زرقة هذه الورقة تغطّي تفكيري تغطّي الأرض، تغطّي كل الفراغ. الى أين سوف أصل بتفكيري الى غير الموت وبسرعة؟ هل من المعقول أن أدع بطني يكبر شيئاً فشيئاً وأنا أحاول تخبئته، وأنا آكل وأنام وأتثاءب وأفرك عيني وكأن شيئاً لم يتبدل؟ كنت أقرأ فوق زرقة المئة عنوان «قتلها بعد أن حملت منه سفاحاً» ينصبّ تفكيري الآن على مصبّ واحد، الموت وبسرعة، سفّ الحبوب البيضاء، لكن ربما استطاعوا إنقاذي وغسل معدتي. الديمول هو الذي سوف يقتلني. هو الذي سأغدقه دفعة واحدة إلى معدتي دون أن يمرّ بلساني. لماذا حدث لي هذا؟ أخذت أحفر هذا التساؤل الحزين والمميت في اللاجدوى وفي مياه جارية، لماذا حدث لي هذا والناس ما عادت تطيق أجسامها وأعضاءها؟ لمن أتحدّث، كيف أجد حلاً وحلول الأرض كلّها قد ضاعت بلا عودة إزاء عامل واحد هو أني قد انتهيت من أشهر الحمل الأربعة؟ لماذا حدث لي هذا الخطأ وليس لغيري؟ لماذا لم أضع في الصخب؟ لماذا لم يضيّعني الله؟ لماذا اختارني بين الصخب وبين آلاف النساء، هل نسي ما مرّ عليّ؟ هل يجب أن تتراكم الأهوال حولي؟ لا أستطيع التفكير. إني أضيع. إني لا أرى سوى زرقة هذا اللون الباهت الذي لا يزال

بينما أخذت أبتعد مسمَّرة القدمين. طنين في أذني وهذه المرّة في شكل آخر، إنه يهزّ أذني ويهزّني. أريد التمدّد والنوم بعد أن أمدّ كلتا يدي وأغلقهما على نفسي، حتى تصبح كل يد تعانق الكتف الأخرى أكوّم قدميَّ حتى تصلا وتخبئا بطني. لا أستطيع العودة الى هذا كما كنت أعود من قبل، حيث الخوف مشحون بالتفكير العقيم عن الحلّ. لو جلست طوال الأيام والليالي أبحث عن حلّ لما وجدته، وها هو الآن يمدّ يده بالورقة الزرقاء وكأنها جسر بيني وبين الحياة مرة أخرى. آه، كم يهون كل شيء أمام هذه اللحظات المغلقة المضغوط عليها وكأن بين جدرانها الزجاجية فراشة تحوم بين سماكة الزجاج وترتطم أجنحتها في الجدران، غير مصدّقة أن هذه مسدودة بلا منفذ رغم أن كل شيء حولها أخضر وأزرق وبنفسجيّ. ماذا أنا فاعلة؟ بماذا يجب أن أفكر الآن وكل الأفكار لا تجدي وكل الأفعال لا تجدي؟ أريد التمدّد والنوم في حمّام، أترك مياهه الدافئة تسيل، أجد الطمأنينة في صوتها وفي لمسها لجسدي وكأنها تهدّئه وكأنها تعدّه بحلّ انتفاخه. أشعر بحاجة لأن أجلس. أجلس فوق الدرج وأترك رأسي يتدحرج حتى فخذي، وأغمض عيني والضجيج لا يزال يطنّ بأذني. إني أسمع صوت سامي صوته هو الذي يطنّ في أذني. إنه يهزّني. إنه يصرخ. إنه يصيح. إنه صاحب هذا الضجيج وهذا الطنين وأنا أحاول أن لا أسمع شيئاً لأني لم أعد أفكر إلا بالتمدّد والنوم. «زهرة، ما بك يا زهرة، عم تسمعي!!» فجأة مسحت سخونتي نقاط مياه أكثر ثم أكثر، وصعقت من البرودة وكأن سلكاً كهربائياً قد مسّني. وهببت كأني أريد الانفجار. هذه النقاط قد أفلتت تلك السخونة الهائلة التي اختزنها وجهي وجسمي ضد زرقة الورقة المدودة. وأدار وجهي إليه

وقال: رغم أنه لم يعد بامكاني تمييز لهجة صوته: «شو القصة يا زهرة بسّ قوليلي، ليش زعلتي لما عطيتك المئة ليرة، دخيلك احكي». أخذت أبكي أخذت أجهش تماماً كما كنت أرى إكرام قريبتي قبل أن يدخلوها العصفورية. كانت تبكي لا لسبب وكان بكاؤها لا يتوقّف ولا يزداد ولا يخفّ ولا يتغير لحنه. كان بكاء تضع فيه كلّ حواسّها وجنونها حتى ملامحها كانت تبدو وكأنها مغارة، تفتح وتغلق بينما أنفها كان يفرز سائلاً أصفر كنا نسمع همس أمي يقول عنه «بأن نخاعها يذوب» وأخذت أبكي وهذه المرة عن قصد فأنا أسمعه تماماً وأريد التوقّف. لكني أشعر برغبة البكاء. لا أريد أن نحلّها معاً لأنه لا حلّ لها سوى إبعاد المئة ليرة الزرقاء والزواج مني هذه اللحظة وأخذت أتلو عليه ما قاله الطبيب وسمعته يعلّق ورأسي لا يزال بين يديه ويداي متكئتان فوق فخذي: «هيدا كذاب الواحدة فيها تطرح بعد الأربع أشهر».

لا بأس أيها الرجل، «ذاك الطبيب كاذب. وأنا كاذبة أرجوك أن تنسى بطني، وانتفاخه الذي يكاد لا يظهر. أريد أن أنسى، أريدك أن تنسى وأن تعيد هذه الورقة الزرقاء، إنها تجعلك تأكل ألف صحن من الفول والحمص المغمسين بالزيت أيضاً. وأنت تجلس ووجهك إلى نافذتنا ولن ترى سوى الزجاج يحدّق بك. لن يعلّقوا أهلي صورتي بعد أن يكبّروها كما تجري العادة بعد موت الصبية، ولن يكون حولها قماش أسود ولن تبدّل أمي الورد المشكوك على طرفيها كلما ذبل. الصبية التي ماتت، موتها لم يكن قضاء وقدراً بل كان فضيحة. موتها لم يكن حلالاً، إنها قصفت عمرها بنفسها وهذا أيضاً حرام. ماذا كانوا يفعلون لو اطلعتهم على الحقيقة، هل كانوا آتو لي بعريس؟

ومن يرضى أن يتزوّج حامل؟ هل كانوا يعيدونني الى افريقيا؟ لكن خالي هاشم لم يعد يكتب لي أو لأي إنسان من العائلة، أقسم انه لن يتكلم مع أي مخلوق لبناني طالما هو يحيا، عندما أرسل إلى حزبه يسألهم أن يغتالوا زعماء الأطراف المتحاربة، وعندما عرض نفسه ليقوم بهذه الاغتيالات ولم يجبه أحد. هل كانت ترضى أمي أن أنجب بلا زواج؟ ووالدي ورغم قوته التي خارت نوعاً ما، هل يرضى أم أن حقده سوف يمدّه بالقوة من جديد؟ لا بأس أيها الرجل. كل الحلول توصلني إلى الحلّ الوحيد: التمدّد ثم النوم ثم الموت ثم النوم والموت معاً. إني أريد أن أموت هذه اللحظة وأترك ما يتوجّب علي ينهار معي. أريد أن أحضن نفسي حتى تلامس يدي أعلى كتفي وتلمس ركبتاي وجهي. أريد أن أتقوقع كتقوقع جنيني. هل هكذا كلنا نأتي إلى الحياة بالمصادفة. بالخطأ، بلا مجهود وأحياناً بدون أن تصيح المرأة من اللذة؟ وأحياناً بعد أن تصيح المرأة برجلها المتمدّد فوقها: «أكرهك» وأحياناً والمرأة نائمة تشخر من تعب النهار وزوجها يعبث بها؟ إني أسمع صياحاً، إني أسمع صوته، إني أسمع صياحه، لكن لا بأس، لا أريد رؤية تلك المثة، لا أريد سماع المستحيل، لا أريد أن أسمع ذكرياته الماضية واسمه المستعار. أريد فقط أن يتركني بسلام فوق هذه الدرجات الوديعة. وأعود أشعر بكتفي تهتزّ ورأسي يهتزّ، ووجهي يرتفع مفارقاً سخونته ركبتي وأنظر إليه وأسمعه أم أقرأ حركات شفتيه: «طيّب يا زهرة، دخيلك اسمعيني، دخيلك، لح نتزوّج بس دخيلك ما تعملي هيك زهرة أنا بعرضك!!» رفعت رأسي رغم أن الطنين لا يزال إنما أخذ ينساب من أذني والاهتزاز يخفّ بعد أن سحب يده التي كانت تهزني مع أني رفعت رأسي إلا أني كنت

أشعر أنه لا يزال مستنداً فوق ركبتي ويظهر أني بدوت في حالة عجيبة لأن سامي كان ينظر إليّ والرعب في كل وجهه، في ارتعاشه، وفي تلعثمه، وفي تقطيب جبينه وفي أذنيه الواقفتين، في أنفه الذي أخذت غضروفته تنتفض، في نبضه الذي يكاد ينفجر من رقبته. وسمعته يردّد الجملة خلف الجملة: «دخيلك يا زهرة عم تسمعيني، بدّنا نتزوّج، عم تسمعيني» وهمست: «سمعتك، بس رأسي عم يوجعني كثير، بدّي روح عالبيت». وسمعته يقول أيضاً بهدوء: «الله يلعن الشيطان، عمهلك شوي، خليك هون حتى ترتاحي وتروقي!» ولا أعرف كم من الوقت مضى، بل أعرف أني سمعته يقول: «الله يلعن الشيطان، لاحظت أنو بطنك كبران بس قلت بقلبي هالمتاولة بينفشوا من أكل الكبة والفراكة». لا أعرف كم من الوقت مضى بل عدت أسمعه يقول: «بتعرفي خوّفتيني عليك، ولو هيك بتنرفزي، وهيك الزعل بيعمل فيك». ولا أعرف كم من الوقت مضى، بل شعرت بيده تلمس بطني وهو يقول: «ولك يا... إن شاء الله تطلع قبضاي، عالصواريخ والبازوكا» وأخذ الهدوء ينتشلني من ارتخائي ونومي شيئاً فشيئاً، لكن لم أسمعه يزيد شيئاً عن سيرة الزواج.

وشعرت وكأني متأبّطة كتف سحابة تدور بي دوراناً خفيفاً، وما أن نهضت ووقفت على قدمي حتى قال: «خلّيك شوي، ما تخافي من أهلك، بكره لح نتزوج وقولي لهم كنت معي». عدت أتمدّد فوق الشرشف القذر وأفكاري أخذت تنشل نفسها من الجمود إنما ببطء. تراءت لي أمي وهي تستغرب لولادتي المبكرة، وهي تسألني ماذا يشتغل، وأنا أجيبها لا شيء، ثم أراها تنحني حتى تصل بجهتها

الأرض تقبّلها وهي شاكرة لأنها أخيراً قد أعطتها عريساً، خاصة في هذه الأحوال، حيث الشباب واستعدادهم للزواج أصبح نادراً.

شعرت أني أودّ الجلوس، وجلست وأنا لا أزال فوق الشرشف، وسامي يكتفي بالنظر إليّ ثم سمعته يقول: «بكره من الصبح بزوركم أنا وأهلي». وهززت رأسي مطمئنة، اطمئناني خليط من الراحة ومن القلق. لا أريد أن يعرف والدي عن حملي رغم أن جنونه المفترض لن يقدّم ولن يؤخر شيئاً. في هذه الأيام التي لم يعد الصوت ولا الصراخ ولا الثورة حتى ولا الحزن له معنى. لكنني لا أريده أن يقول حتى لنفسه، حتى ولو متمتماً: «ابن البطّ عوام» وسألته فجأة «أنت قنّاص» ورغم أني همست خوفاً من أن تسمعني الجدران إلا أنه هبّ واقفاً وقد بدا على وجهه الجنون والحقد مشحوناً بطاقة هائلة من الغضب المتطاير الشرر وصاح: «قنّاص؟؟» شو هالحكي، شو أنت مظبوط مهسترة صار لهون الشك، صار الواحد يشكّ بأمه، بأبوه، بأخوه، مين قال لك هالخبرية؟» ووجدتني أخاف منه لدرجة الارتجاف، وما أيقنت لحظة أن ردة فعله ستكون في هذه الحرارة. وما أيقنت أن الذي كان ممدداً على الشرشف منذ لحظة هو الواقف الآن يكاد يأكلني. ووجدتني أدافع عن نفسي وأنا لا أزال أرتجف وكلماتي تخرج مهزوزة غير واثقة: «وحياتك ما حدا بيعرف إنو بجي وبشوفك غير أنا وأنت والله الشاهد. ومددت يدي إلى بطني وكأني أحتمي به وأكملت: «بس أول مرة كنت عم بنشر غسيل عمّتي وشفتك نايم وحدك مع البارودة والناظور. استنتجت لأنو كنت عم تابع قراءة الجرائد وكانوا عم يذكروا عن وجود قنّاص بهنا المنطقة». وسألني: «هيدا الحكي قبل ما شوفك بالظلط؟» ولم أعرف لماذا يحدد، لكني

خفت من سؤاله هذا وفجأة اكتشفت أني قد وعيت تماماً وزال الجمود عن تفكيري وفارق الشلل حركتي.

أدار ظهره لي وسرت إليه قائلة: «وحياة الله، وحياة هالنهار تنسى هالموضوع. معك حق الواحد بصير يشكّ حتى بحالو. لو مظبوط أنا بفكر إنك قنّاص معقول كنت بجي لهون!». عاد فأدار وجهه لي والاحتقان لا يزال يتمسك بوجهه يحاول أن يقول بلهجة هادئة لكنه انفجر صائحاً من جديد: «وحياتك، وحياة اللي في بطنك، إنو أنا مش قناص، أنا عندي محل نيفوتيه بسوق سرسق وهلق مثل ما عارفه ما في شغل. وأنت بتعرفي أنا بطلع لهون كرمالك، وأنت بتعرفي إنو الكل مسلّح من الكبير للمقمّط بالسرير، الواحد صار بدّو يحمي حاله، ولما شفتيني على هالسطح كنت عم بتفرّج». نظرت إليه وأنا أبتسم وعدت فأخفيت ابتسامتي إزاء تجهم وجهه. عندما نظر إليّ ولمح بقايا الابتسامة شدني إليه، مددت يدي أحمي بطني. استأنست برائحة عرقه المعهودة، وذقنه الخشنة التي حفّت رقبتي. تركني ووقف قبالتي قائلاً: «شو بدك تروحي، بكره، بكون عندكم أنا وأهلي». وطأطأت رأسي وهممت أن أقول شيئاً وعدلت. لكن عدت وقلت له أشبه بالهمس: «أوعى تجيب السيرة!» وكأنه لم يكن معي، لأنه وكالمشدوه عاد يسألني: «شو؟» عدت فكررت له وأنا أبتسم: «أوعى تجيب سيرة بطني» هز رأسه كأنه قد صحا من النوم لتوه وقال: «ما تخافي خلّيها عليّ». ودعته. نزلت السلالم بعجلة. أريد الطيران إلى البيت. أريد أن أقول لأمي إني سأتزوج. لكنّ تذكّري لضحكها عليّ هي والجارة ليلة البارحة قتلت بي الرغبة. فكرت أنها ستعرف عندما يدقّ سامي الباب وأهله. إذاً سامي اسمه الحقيقي وإلا لكان أفصح

اليوم عن كل شيء. لكن هل هو قنّاص؟ ووصلت الى الشارع. بدا لي وكأن الحرب قد توقفت، عندما قال لي بأنه سيتزوجني. أصبح كل شيء عادياً، هل أذيع باللاوعي سرّ زواجي على جميع المحاربين، حتى توقّف الرصاص والانفجارات، هذا الليل جميل، لقد تأخرت، لا حرّ، ولا برد، رغم أن زخّات المطر خفيفة قد بدأت تهطل. يا ليتني أنهض في الغد وأسمع خبر توقّف القتال الجدّي. هل هو قنّاص، يجب أن أطوي صفحة هذا القلق وهذا السؤال. إنه سوف يتزوج ويعفي نفسه من هذه المهمة إذا كان فعلاً قناصاً، أم أنه سوف يتلو عليّ القصص والأكاذيب حتى يغادر البيت. وأين نسكن؟ في هذه البناية؟ وهل صحيح أنه يسكنها مع أهله كما يقول؟ أم أننا سوف نستأجر بيتاً؟ لماذا لم نتحدّث في هذه التفاصيل، لا بأس نتحدث غداً. أريد الركض، أريد أن أقفز قفزات عالية في الهواء. لكنّ قدمي لا تساعدني. لماذا يبدو بيتنا بعيداً؟ هل لأن الليل قد ابتدأ؟ سأقطع إلى الرصيف الآخر حيث أنوار البنايات تبعد عني وحشة الرصيف الآخر وظلمته. هل ستكون هذه آخر مرة أمشي فيها وحدي؟ أنا خائفة، ما كان ينبغي أن أتأخّر حتى هبوط الليل، في مدى علاقتي معه لم أتأخر كهذه الليلة، الليل قد بدأ، والشارع فارغ إلا من شباب الحاجز، إنها تمطر، إني أتعثر، تمسّكت بعمود الكهرباء وكأن قوّة تشدّني. إن فخذي تؤلمني. إنها تؤلمني أكثر. مددت يدي أتحسّسها لأجد سيلاناً عليها وعلى قدمي. المطر؟ لكنها لا تمطر بهذه الغزارة. هل أنا أجهض... لكن، إني لا أستطيع السير، لا، يجب أن أستأنف سيري، يجب أن أصل الى البيت، إنه ألم فظيع، لا أستطيع السير. وهويت على الأرض. الخوف الملتحم مع الألم. إنني خائفة ومتألمة.

مـددت يدي إلى مصـدر الألم وانتشلتها دبقـة رغم الظلمـة تبيّنت أنها دماء. لقد أصابتني رصاصة طائشة، لكن لم أسمع صوتها ولا أسمـع شيئاً. نقاط مطر خفيفة أخذت تتساقط. كلما لامست وجهي وقـدمي ازداد الألم. وسمعت صوتي وقد انبثق من جـذوره ينادي: «دخيلكم» وسمعت خـطوات وأصواتـاً تقترب ثم تبتعـد قـائلة: «أوعى قنّـاص» وعدت أصيح وكان الألم قد انتقل إلى رقبتي «دخيلكم». الخوف جعلني أنتفض كـدجـاجـة ذبحوا رقبتهـا. إني أصرخ وكـأنّ حيـاتي المـاضيـة الحاضرة لا تساوي سوى هذه الصرخة «دخيلكم!» وأسمع الأصوات البعيـدة، ونقاط الميـاه لا تزال فـوق وجهي. حـاولت أن أتبيّن وأنـا أحملق في البنايات رغم الظلمة وأمدّ يدي وأهـذي وأصرخ، أم تراني لا أصرخ؟ الألم انتقـل الى بطني، ومـددت يـدي أتشبث بـالأرض. سامي الذي وضع في بطني هذا الجنين هـل هو الـذي يضع في بـطني كلّ هذا الألم؟ هـل هو فقط قنّـاص في البنايـة الحمراء، كـما صرخت «القناص في البناية الحمرا» وهل أخطأني عن قصد؟ وهل هو يتردّد في قتلي، أم أني عندمـا ركضت حتى الرصيف الآخـر أخطأني. لاحـظت أني أحملق في الظلمة، أشعر بالمطر ينهمر فوق وجهي، فوقي، لم أعـد أسمـع الأصوات بـل أسمع وشـوشة بـين الحين والآخـر، أو ربمـا لا أسمع شيئاً. الصراخ يؤلمني أكـثر، يقتلع حبالي الصـوتيّة المـطمورة في قـاع قلبي. هو يقتلني يخطـىء رأسي في المرة الأولى وفي المـرة الثـانيـة ويخطىء جنيني في المرة الثالثة. لم أعد أصرخ ولم أعد أمدّ يدي أتحسّس الدماء التي تسيل بل بقيت سـاكنة لا أسمـع سوى المـطر ينهمر فـوق الكيس الأصفر الذي ظننت أنه منقذي إلى الأبـد. تبينت أني ابتدأت أنتظر كل نقطة والتي تليها وأسمـع كلمةا «مـرا» من بعيد وكـأنها آتية

من كهف. أعود فأسمع: «ما تقرّب فيه قنّاص». نظراتي تشرد في العتمة، الخوف يتشبّث بي وقد تحوّل إلى بكاء، أين وجه أمي، أين أحمد، أين أمي، في أية غرفة دافئة؟ آه لو أكون قربك الآن، آه لو أكون معك في البيت، لماذا أنا وحيدة الآن، في وسط الشارع دمي يسيل فوقي وتحتي مع المطر المنهمر؟ بدأت أعتاد على الألم المريع كما اعتدت على الظلمة وأغلقت عيني للحظة ورأيت نجوم الألم. عدت فرأيت أقواس قزح في سماوات بيضاء. إنه يقتلني. قتلني بالرصاص الذي كان إلى جانبه وهو يضاجعني. قتلني والشرشف الأبيض حيث تمدّدت قبل وقت قصير لا يزال. هل قتلني لأني حبلى أم لأني سألته إذا كان قنّاصاً. كأن أحداً يسحبني، هل أصرخ: «دخيلكم» حاولت ولم أسمع صوتي وعدت أغمض عيني، أم أني لم أفتحهما، عدت أرى أقواص قزح في سماوات بيضاء. قوساً تلو الأخرى، سماء تلو الأخرى، أقواس قزح فاقعة، واضحة اللون، وسماوات بيضاء ناصعة البياض. المطر هل لا يزال، فأنا لم أعد أشعر به. إني أسمع صوتاً «يللا يا شباب!!» هل هم ينقذونني الآن من الموت، أين أمي؟ هل هي في إحدى الغرف الدافئة؟ ليتني معها في البيت. لماذا أنا وحيدة والعتمة قد تحولت إلى خوف وجسمي قد تحول إلى خوف إنما متقطع كتقطع عضلاته؟ لقد قتلني. من أجل هذا جعلني أنتظر الليل. ربما لم يستطع أن يمدّ يده إلى الزناد في وضح النهار ويرميني أرضاً. إنهم يسحبونني، أشعر بأن أحداً يسحبني، عدت أشعر بنقاط المطر، إني لا أزال في مكاني، كأني أسمعهم: «هيدا القنّاص بعدو» كأنهم تركوني. عدت أغمض عينيّ، أم تراني لم أفتحهما قبلاً؟ وعدت أرى أقواس قزح في السماوات البيضاء تدنو مني بكثرة مخيفة.

«حكاية امرأة في عالم الرجال، حربهم وسلامهم، أديانهم وقوانينهم. حكاية امرأة لا تعرف إذا كانت صاحية وتعيش، أم أنها تحلم أنها تعيش. وفي حلمها، غالباً ما تسيطر الكوابيس. حكاية امرأة في عالم يرعبها، يهدِّدها، يلاحقها بوحشيته الذكريّة حتى الرمق الأخير، مثل غول الطفولة.

حكاية تعصر، بصدقها عصراً.

من افريقيا إلى لبنان، من الجنوب إلى الجنوب، من بيروت إلى بيروت، من حزب إلى حزب، من ثقب الباب إلى خيالات الغرف إلى آخر النفق.

حكاية زهرة في صحراء.

أنسي الحاج

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ ـ ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣ ـ ١١ بيروت

تصميم الغلاف: مها نصرالله